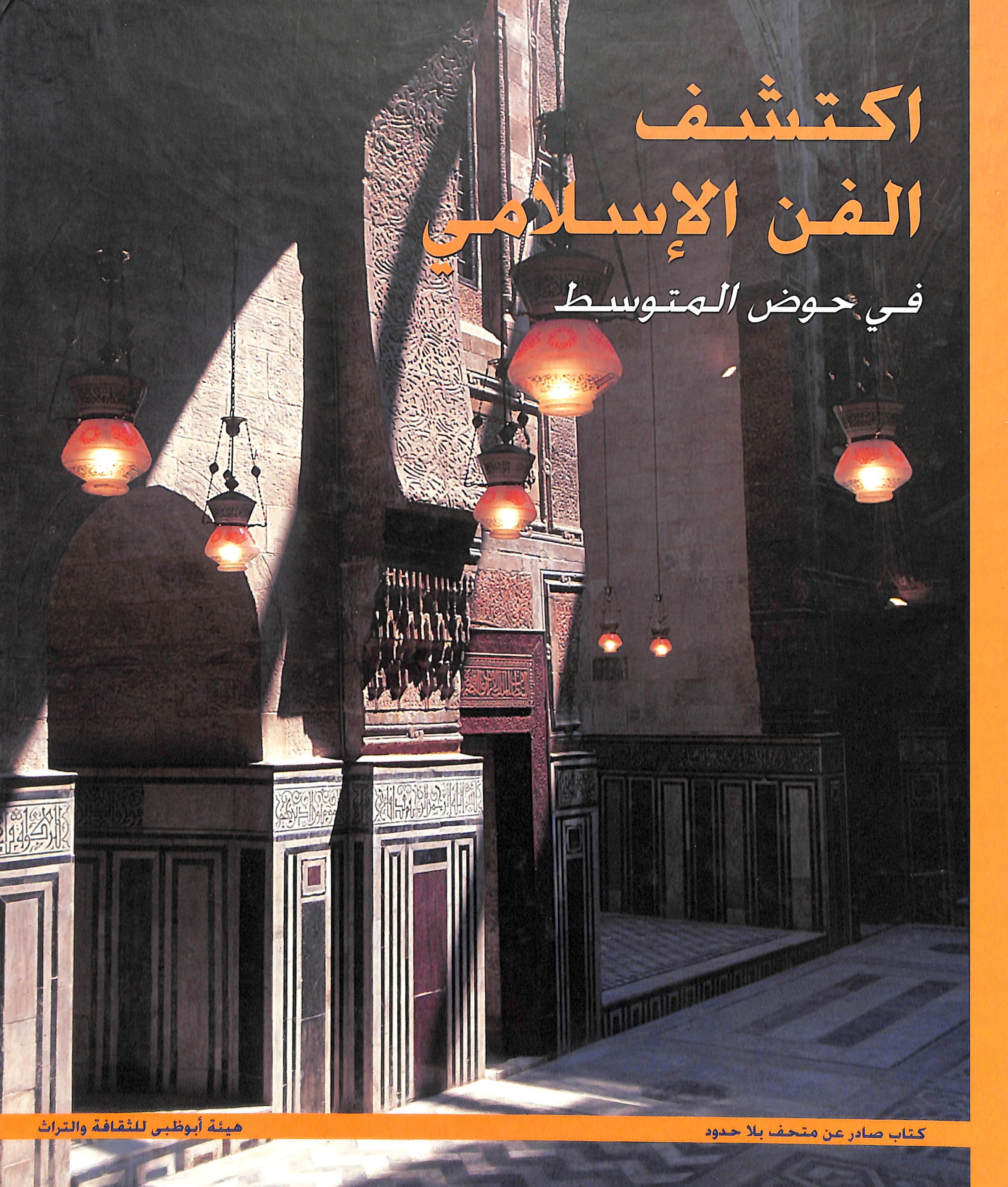
اكتشف الفن الإسلامي

في حوض المتوسط



كتاب صادر عن متحف بلا حدود

هيئة أبوظبي للثقافة والتراث



السلالات الإسلامية الحاكمة الكبرى في حوض المتوسط، جنباً إلى جنب مع تراثها الفني والثقافي المبهر، هي أبطال هذا الكتاب. ثمة تسعة وثلاثون باحثاً، وأمينَ متحف، وخبيراً في التراث الثقافي، من 14 بلداً في أوربا، وشمال أفريقيا، والشرق الأوسط، قاموا بتأليف الفصول الـ 22، التي تأخذ القارئ إلى البلدان الـ 13، ذوات التاريخ الإسلامي، منذ عهد النبي محمد، إلى نهاية السلطنة العثمانية في 1341 هـ/1922 م.

«اكتشف الفن الإسلامي في حوض المتوسط»، عمل جماعي، كُتب لجميع أولئك الذين يرون أن التاريخ ليس أحادياً، بل هناك عدد من التواريخ يوازي، أقلّه، عدد الشعوب الموجودة. تقوم فكرة هذا الكتاب على الرغبة في العمل على إيجاد فهم أدقّ، وبالتالي أسلم، للإسلام عبر تقديم وجهات نظر مختلفة، في مجال تفسير التاريخ، والفن، والثقافة.

يُنشر هذا الكتاب استكمالاً لموقع متحف www.discoverislamicart.org الافتراضي وسلسلته المؤلفة من 18 معرضاً، بعنوان: *اكتشف الفن الإسلامي في حوض المتوسط*.

380 صورة ملونة 272 صفحة



أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE



نُشر هذا الكتاب ضمن مشروع «اكتشف الفن الإسلامي»، المتحقّق بدعم الاتحاد الأوروبي بموجب برنامج التراث الأوروبي – المتوسطي.

ISBN 977-427-105-X
9 789774 271052

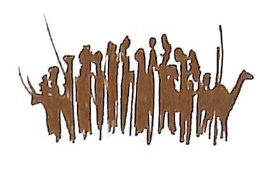
اكتشف الفن الإسلامي *في حوض المتوسط*

يأخذنا هذا الكتاب في رحلة فريدة ومختلفة عبر التاريخ « لاكتشاف الفن الإسلامي في حوض المتوسط » ، حيث تجتمع بين دفتيه ، بالصورة والنص والسرد التاريخي الموثق ، شواهد لا تحصى على روعة منجز التراث الفني للحضارة الإسلامية على مرّ العصور في حوض البحر المتوسط ، حيث شكّل الفن بمختلف أشكاله وتجلياته ، ولاسيما على صعيد العمارة والفن الزخرفي ، صورة زاهية عما مثلته وتمثله هذه الحضارة الغنية من قيم جمالية رفيعة ، قامت على استيعاب الحضارات السابقة والاستفادة منها ، في الوقت الذي شكّلت فيه هويتها الثقافية الخاصة ومفرداتها الجمالية التي برهنت قدرتها على تجاوز الأزمنة والمسافات والحدود الجغرافية والسياسية والدينية ، لتصبح ثقافة كونية بكل ما في الكلمة من معنى .

وإذ تشارك « هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث » في هذا الكتاب الرائد الصادر عن « متحف بلا حدود » فإدراكًا منها لتلك الكنوز الثقافية التي يحتويها ، والجديرة حقًا بأن تكون سفيرنا إلى العالم ، خصوصًا وأن أبو ظبي في طموحها ، وفي الجهد الذي تبذله ، لكي تكون مركزًا ثقافيًا في المنطقة العربية ، إنما تستلهم هذا الإرث المضيء ، وتسعى إلى أن تكون تجربتها الآخذة بالتفتح رويدًا رويدًا ، جزءًا من هذا الإرث واستمرارًا له . وذلك انطلاقًا من الرسالة التي تمثلها تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة ، كدولة حب وحوار وسلام وانفتاح وتعايش حضاري وثقافي .

وأمام ضخامة وموسوعية هذا المشروع ، لا بدّ لنا من أن نشكر جميع القائمين عليها في « متحف بلا حدود » من كتّاب وباحثين وعلماء وفنانين ومصممين بذلوا أقصى جهدهم لجمع مادة هذا الكتاب وتحريرها ، وتغطية كافة الجوانب المتعلقة بالفن الإسلامي في حوض المتوسط ، بما يجعل هذا الكتاب يوجد أكبر متحف في العالم : نمط جديد لمتحف افتراضي .. شأنه شأن كنوز الثقافة الإسلامية التي يعرضها ، جديرًا بالاكتشاف ، ليس فقط من قبل القارئ الغربي ، بل أيضًا من قبل القارئ العربي الذي ستساعده صفحات « اكتشف الفن الإسلامي » على تكوين صورة أوسع وأعمق عن مدى تعدد وعمق وجمال وفرادة التجربة الفنية في الإسلام .

هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث





الغلاف الأول
مدرسة ومسجد السلطان قايتباي
مشهد داخلي

مملوكي (877 هـ/1472 م)
القاهرة، مصر

الغلاف الأخير
اصطرلاب

أيوبي (683 هـ/1240–1241 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة

طبعة خاصة
بتصريح من:

« متحف بلا حدود »

هيئة أبوظبي للثقافة والتراث
المجمع الثقافي

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380 هاتف: 97126215300
publication@cultural.org.ae
www.adach.ae

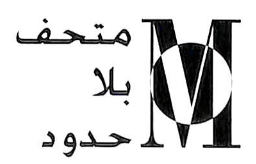
الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250 (00202)
فاكس: 23909618 (00202) - ص.ب: 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

(الطبعة العربية) الرقم الـ ISBN 977-427-105-X
deposit number 1754/2007

اكتشف الفن الإسلامي *في حوض المتوسط*

كتاب صادر عن «متحف بلا حدود»





الاتحاد الأوروبي



التراث الأوروبي - المتوسطي

نُشر هذا الكتاب ضمن مشروع «اكتشف الفن الإسلامي»،
المتحقّق بدعم الاتحاد الأوروبي بموجب برنامج التراث الأوروبي -
المتوسطي

بالتعاون مع:

الأردن
متحف الآثار الأردني، عمان

إسبانيا
متحف الآثار الوطني، مدريد

ألمانيا
متحف الفن الإسلامي في متحف بيرغامون، المتاحف الحكومية، برلين

إيطاليا
المتحف الوطني للفن المشرقي «غ. توتشي»، روما

البرتغال
موقع ومتحف ميترولا الأثريان، ميترولا

تركيا
متحف الفنون التركية والإسلامية، استانبول

تونس
المتحف الإسلامي في الرقّادة، القيروان

الجزائر
متحف الآثار والفنون الإسلامية الوطني، الجزائر العاصمة

السلطة الفلسطينية
المتحف الإسلامي في مكتبة الأقصى، الحرم الشريف، القدس

سورية
المتحف الوطني، دمشق

السويد
متحف الآثار القديمة المتوسطية والشرق أوسطية، ستوكهولم

مصر
متحف الفن الإسلامي، القاهرة

المغرب
متحف الآثار الوطني، الرباط

المملكة المتحدة
المتحف البريطاني، لندن
متاحف سكوتلندا الوطنية، أدنبره
متحف فكتوريا وألبرت، لندن
متاحف غلاسكو، غلاسكو

وبالتعاون أيضاً مع:

الأردن
وزارة السياحة، دائرة الآثار العامة
أصدقاء الآثار

تركيا
جامعة إيجة، إزمير

تونس
وزارة الثقافة، معهد التراث الثقافي الوطني

الجزائر
وزارة الثقافة

السلطة الفلسطينية
وزارة السياحة والآثار القديمة

سورية
وزارة الثقافة

مصر
وزارة الثقافة، المجلس الأعلى للآثار القديمة

المغرب
وزارة الثقافة

المملكة المتحدة
فنون زائرة

نتقدم بالشكر إلى مؤسسة كالوستي جولبنكيان، لشبونة،
والوكالة الإسبانية للتعاون الدولي في وزارة الخارجية الإسبانية،
على دعمهما للمشروع.

الفكرة والتنسيق الإجمالي:
إيفا شوبرت، بروكسل

التصميم
بيتر دولتون، سَفولك

الترجمات، والتحرير، والفهرسة

الطبعة العربية
مناف الضمّاد، دمشق (عن الإيطالية)
فاضل جتكر، دمشق (عن الإنجليزية)
حنان قصّاب حسن، دمشق (عن الفرنسية)
بشار إبراهيم، دمشق (تحرير)
فيرنا دايبر، دمشق/برلين (تنسيق)

الطبعة الإنجليزية
لورنس ناني، برشلونه (عن الفرنسية، والإيطالية، والإسبانية)
مونيكا آلن، لندن (تدقيق)
ماندي غوميز، لندن (تحرير، وتنسيق)
مَغ ديفيس (فهرسة)

الطبعة الفرنسية
جاك بوسيه، باريس (عن الإنجليزية)
مارغريتا بوزولي، آرلس (عن الإيطالية)
آن ماري لابيون، مارسيليا (عن الإسبانية، وتحرير، وتنسيق)

الطبعة الألمانية
هيرفيغ أنغلمان، برلين (عن الفرنسية)
أولريخ مولرشول، برلين/أديس أبيبا (عن الإيطالية)
أيمي كلاوليوي بروسر (التنضير) توري برونس، برلين (عن الإسبانية)
مارتن هاجر، برلين (تحرير، وتنسيق)
كلاوديوس بروسر (تدقيق)

الطبعة الإيطالية
سافيرو كابوزي، روما (عن الإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية)
بيير باولو راتشيوبي، روما (تحرير)

الطبعة البرتغالية
سانتياغو ماثياس، ميرتولا (عن الإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والإسبانية)
باولا فيانا، بورتو (تحرير)

الطبعة الإسبانية
أورورا كابا ليروغارثيا، مدريد (عن الفرنسية)
بايبزا مارتينيز، قرطبة (عن الفرنسية)
سكينة مسوم، مدريد (عن الفرنسية)
لوسيا رودريغيز كورال، مدريد (عن الإنجليزية)
روزاليا آلر، مدريد (تحرير)
ميغيل غارثيا، مدريد (عن الإيطالية، وتنسيق)

الطبعة التركية
آلبر طاشبنار، استانبول (عن الإنجليزية)
سعادت أوزن، استانبول (عن الفرنسية، والإسبانية)
إنجي تورك أوغلو، استانبول (تحرير، وتنسيق)

الإخراج التمهيدي

النسخ
بيتر دولتون (إنجليزي، فرنسي، ألماني)
كريستيان إيكارت، فيينا (إيطالي، برتغالي، إسباني)
أحمد بوراتاف، استانبول (تركي)
ترجمات أطلس، لندن (عربي)

الإخراج والطباعة

المراجعة والتدقيق
شركة غرافيك MRM المحدودة، بكنغهامشاير، المملكة المتحدة

طباعة جميع اللغات
كومباس للطباعة، لندن، المملكة المتحدة

تنسيق أعمال التحرير

بروكسل
إيفا شوبرت
ميمت قاهيا أوغلو

لندن
ماندي غوميز

التنسيق المحلي
غادة اليوسف (الأردن)
نعيمة الخطيب بوجبار (المغرب)
ميغويل غارثيا (إسبانيا)
إنجي كويولو إرصوي (تركيا)
سعد نمر (السلطة الفلسطينية)
بوسعد وادي (الجزائر)
إيرين ساليرنو (إيطاليا)
إنعام سليم (مصر)
زينة تقي الدين (سورية)
سلوى زانجار (تونس)

للاتصال: office@museumwnf.net

هذا الكتاب تمَّ بالتعاون مع:

الطبعة العربية:
الطبعة المشتركة، الناشرون المشتركون في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا (انظر في الأسفل)

الطبعة الإنجليزية:
كتب الفن الدولية، لندن، المملكة المتحدة
ISBN 978-1-874044-63-5

الطبعة الفرنسية:
منشورات إديسود، مقاطعة إيان، فرنسا
ISBN 978-2-7449-0682-4

الطبعة الألمانية:
منشورات واسموث، توبنغن، ألمانيا
ISBN 978-3-8030-4105-0

الطبعة الإيطالية:
ناشرين الفن دي لوكا، روما، إيطاليا
ISBN 978-88-8016-786-0

الطبعة البرتغالية:
ميدياليفروس-نشاطات النشر، لشبونه، البرتغال
ISBN 978-972-797-144-2
deposit number 252883/07

الطبعة الإسبانية:
متحف بلا حدود، بروكسل/فيينا

الطبعة التركية:
زيرو للانتاج/اغا يابنلاري، استانبول، تركيا
ISBN 975-807-155-6

الناشرون المشتركون في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا:

الجزائر:
INAS للطباعة، الجزائر
(الطبعة الفرنسية) ISBN 9961-762-17-7

مصر:
الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
(الطبعة العربية) الرقم الـ ISBN 977-427-105-X
deposit number 1754/2007
(الطبعة الإنجليزية) الرقم الـ ISBN 977-427-106-8
deposit number 1755/2007

الأردن:
المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، والفارس للنشر والتوزيع، عمَّان.
(الطبعة العربية) ISBN 9953-36-958-5
(الطبعة الإنجليزية) ISBN 9953-36-957-7

المغرب:
دار النشر الريشة الحرة، الرباط.
(الطبعة العربية) ISBN 9981-110-13-2
(الطبعة الفرنسية) ISBN 9981-110-12-4

سورية:
دار الفكر، دمشق
(الطبعة العربية) ISBN 1-59239-598-8
دار دمر للنشر، دمشق
اللغات الأجنبية

تونس:
الدار العربية للكتاب، تونس
(الطبعة الفرنسية) ISBN 978-9973-10-240-9

للحصرل على عناوين الناشرين والموزِّعين:
www.museumwnf-books.net
books@museumwnf.net

للحصول على المزيد من المعلومات، يُرجى زيارة موقع المتحف الافتراضي www.discoverislamicart.org

عائدية الصور

الصور المنشورة في هذا الكتاب، تعود للمصورين الواردة أسماؤهم، وحقوق الطبع عائدة للمؤسسات الواردة. أما حيث لا توجد إشارة إلى العائدية، فحقّ الطباعة يعود إلى «متحف بلا حدود».

يُرجى أن تلاحظوا، أيضاً، أن هناك إضافة إلى الأسماء، صوراً من المتاحف المختلفة المشاركة في متحف «اكتشف الفن الإسلامي» الافتراضي، أو المرتبطة به (انظروا إلى العناوين المنفردة)، كما من محفوظات صور «متحف بلا حدود».

الجزائر
علي لفير
ناصر قمر الدين مجقن

مصر
بولص اسحاق، القاهرة
شريف سنبل، القاهرة

ألمانيا
صور من متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية، برلين، يورغ - بي . أندرس، انغريد غسكه، يورغن ليبه، غورغ نيدرمايستر.

إيطاليا
من قسم الصور في المتحف الوطني للفن المشرقي «غ. توتشي»، روما
ساندرو سكاليا، باليرمو

الأردن
محمد نجار، عمان

المغرب
فؤاد بوست، الرباط
المكتبة الملكية، الرباط

السلطة الفلسطينية (الضفة الغربية وغزة)
عيسى فريج، القدس
روبرت غرافلن، رام الله
غارو نلبنديان، القدس

البرتغال
سانتياغو ماثياس، ميترولا

إسبانيا
من قسم الصور في متحف الآثار الوطني، مدريد
غويليرمو مايسترو كاسادا، مدريد
ميغويل رودريغيز مورنيو، غرناطة

السويد
صور من متحف الآثار القديمة المتوسطية والشرق أوسطية، ستوكهولم، أوفه كانبرغ وغوران شميدت
صور من دار السلحة الملكية، ستوكهولم، بعدسة غوران شميدت

سورية
محمد الرومي، باريس

تونس
أحمد غدّه، القيروان

تركيا
إرتان ضاش، ازمير
علي قونبالي، استانبول
ميمت قوشتوم أوغلو، ازمير
حسن أوتشار، ازمير

المملكة المتحدة
صور من المتحف البريطاني، لندن، بعدسة كيفن لفلوك وجون وليمز
صور من متحف فكتوريا وآلبرت، لندن، بعدسة ريتشارد ديفيس، مايك كنيكات، دانيال مكغراث، هو ساينسبري، كريستين سميث، يان ثوماس
صور من متاحف اسكوتلانوا الوطنية، إدنبره، تعدسة دانكان أندرسون، ويليسلي فلورنس، ونيل ماكلين، جويس سميث (بإذن من أمناء متاحف اسكوتلندا الوطنية)
صور من متاحف غلاسكو، غلاسكو، آلان برودفوت وإنيزو دي كوزيمو

صور إضافية جاءت من الجهات التالية، صاحبة حق الطبع، كيانات وأفراداً:

المكتبة القومية النمساوية، فيينا (ص. 234) مخطوطات فيندوبونينسيس، كود 8626، الصفحة 46
المكتبة البريطانية، لندن (ص. 62، المخطوط 16561، الصفحة ص . 60)
مؤسسة كلاوست غولبنكيان (ص 213، 217)
كورتيس دي آراغون، زاراغوزا (ص. 129)
مؤسسة مكسيميليانيوم، ميونيخ (ص. 62)
معهد المتاحف البرتغالي، (ص. 172)

جورجيو بيسرني، رافينا (ص. 25، 29)
انطونيو كونها، لشبونة (ص. 58، 132، 164، 167، 173)
ريتشارد إيتينجهاوزين (ص. 24، 42، 245)
صور سونيا هاليداي (ص. 162)
ريكاردو إزكويردو بنيتو، طليطلة (ص. 82)
ج. ل. نو (ص. 37، 52)
فر. ميشيل بيتشيريلو (ص. 26)
هنري شتيرلين، جنيفا (ص. 67)

أرشيف الصور أورونوز، مدريد (ص. 59، 64، 107، 113، 126)

تخطيطات للآثار والرسوم

الصفحة 32: تخطيط مسجد النبي (غرابار 1973)
الصفحة 38: تخطيط قبة الصخرة (بوركهاردت 1976)
الصفحة 45: قلعة عمان (الماغرو، أركي، .CHASM I, Suppl SHAJ VII, f.c.)
الصفحة 46: تخطيط قصر المشتّى (غرابار 1973)
الصفحة 64: تخطيط مدينة بغداد الدائرية، بناءً على خريطة مصطفى جواد وأحمد سوسة، أعاد تفصيلها سيرجيو فيجورا، مدريد
الصفحة 162: مقياس النيل، رسم رضعه محمد رشدي

فهرس المحتويات



الصفحة المقابلة
قصر العظم
عثماني 1163 هـ/50–1759 م
دمشق، سورية

مدخل

أيها القارئ العزيز،

ليس بيانُ استثنائيةِ، وأكاد أقول فرادة، هذا الكتاب يسيراً. فكتاب «اكتشف الفن الإسلامي في حوض المتوسط» ليس مجرد كتاب، بل هو نتاجٌ وشاهدُ تعاونٍ فريدٍ بين أشخاص عازمين على جعل «الفن» سفيراً سامياً لعدد من التجارب التاريخية المختلفة، ومؤمنين بقوة تعبير الفن، على صعيد التفاهم والاحترام المتبادلين.

فيما يلي سأبيِّن، بإيجاز، تجربتنا الاستثنائية، التي كانت مستحيلة، لولا دعم الاتحاد الأوروبي.

على امتداد نحو ثلاث سنوات، دأب 150 خبيراً، من 16 بلداً مختلفاً، متواصلين عبر 9 لغات متباينة، على العمل معاً، في سبيل إيجاد أكبر متحف في العالم: نمط جديد لمتحف افتراضي، يزاوج بين المواقع المادية والافتراضية، في متحف حقيقي بلا حدود، حيث تترابط معروضات المتاحف المختلفة، جنبًا إلى جنب مع الأوابد والمواقع الأثرية في البلدان المتباينة. إن التراث الفني للحضارة الإسلامية في حوض البحر المتوسط، هو موضوع المجموعة الدائمة الأولى لهذا المتحف، وهذا الكتاب هو البيان العرضي الأول الذي ينشره موقع متحف: www.discoverislamicart.org الافتراضي، في سلسلة مؤلفة من 18 متحفاً افتراضياً، يدعو الزائر إلى اكتشاف الفن الإسلامي، في حوض البحر المتوسط.

تسعة وثلاثون باحثاً، وأمينَ متحف، وخبيراً في التراث الثقافي، ممن تقاسموا تجربة إنشاء المتحف الافتراضي، هم مؤلفو الـ 22 فصلاً، والذين سيرافقون القارئ، عبر 13 قرناً من التاريخ، منذ زمن النبي محمد، وحتى نهاية السلطنة العثمانية (في 1341 هـ/1922 م). والسلالات الحاكمة الإسلامية الكبرى، في حوض البحر المتوسط، هي أبطال هذا الكتاب، جنباً إلى جنب مع تراثها الفني والثقافي المُبهر. من شأن مقدمة تاريخية موجزة في البداية أن تساعد على وضع صعود الإسلام في سياقه.

يبقى «اكتشف الفن الإسلامي في حوض المتوسط»، عملاً مشتركاً، كُتب لجميع أولئك الذين يتقاسمون معنا فكرة أن ليس هناك تاريخ واحد فقط، بل ثمة عدد من التواريخ يوازي، أقلّه، عدد الشعوب الموجودة. يتطلّع هذا الكتاب إلى فهم أدق، وبالتالي أصدق، للإسلام عبر تقديم وجهات نظر متباينة على صعيد تفسير التاريخ، والفن، والثقافة.

أخيراً، لعلكم تلاحظون أننا نستخدم الكتابة الصوتية البسيطة للتعابير العربية. أما فيما يخصُّ التواريخ ذات العلاقة بالتاريخ الإسلامي، فنورد التاريخين الهجري (الذي يبدأ بهجرة النبي من مكة إلى المدينة في 622 م، حسب السيرة الإسلامية)، جنبًا إلى جنب مع نظام التأريخ الميلادي (الغريغوري) الشائع، كليهما.

نرجو أن تستمتعوا باكتشاف عالم المسلمين في حوض البحر المتوسط، ونتطلّع بقدر كبير من الشوق، إلى الحصول على تغذيتكم الراجعة عبر موقع www.discoverislamicart.org العائد لمتحفنا الافتراضي.

إيفا شوبرت، تشرين الأول/أكتوبر 2006
الرئيسة والمديرة التنفيذية
«متحف بلا حدود»

مسلسل الأحداث التاريخية

إعداد: منيرة شابوتو-رمادي

	527–565 م	الإمبراطور جوستنيان يبدأ بإعادة اجتياح إيطاليا وإفريقيا.
	535 م	البيزنطيون أعادوا احتلال إفريقيا الفاندالية.
	نحو 570 م	عام الفيل. أبرهة ملك الحبشة يهاجم مكة بجيش على ظهور الفيلة. يُولد النبي محمد.
	589 م	مجلس طليطلة الثالث. اهتداء ملك الفيزيقوط ريكارد إلى المسيحية الرومانية.
	610–641 م	فترة حكم هرقل.
	610 م	بداية نزول القرآن.
10 هـ	622 م	يهاجر محمد من مكة إلى المدينة. العام الهجري الأول.
	632 م	وفاة النبي محمد.
11–13 هـ	632–634 م	فترة خلافة أبي بكر.
11–12 هـ	632–633 م	حروب الردة في الجزيرة العربية. أخمدها خالد بن الوليد.
28 جمادى الأولى 13 هـ	30 تموز يوليو 643 م	انتصار العرب على البيزنطيين في أجنادين. بقيادة خالد بن الوليد الذي عرف بلقب «سيف الله»؛ وهكذا تبدأ عملية فتح فلسطين باستثناء القدس وقيساريا.
12–13 هـ	634–644 م	فترة خلافة عمر بن الخطاب.
شعبان 14هـ	أيلول-تشرين أول 635 م	انتصار العرب على الفرس في البويب. حيث بدأ اجتياح الإمبراطورية الساسانية.
رجب 15 هـ	آب 636 م	معركة اليرموك. فتح سورية. ودمشق.
16 هـ	637 م	انتصار القادسية على الساسانيين. وفتح المدائن. عاصمة الإمبراطورية الساسانية القديمة.
16 هـ	637 م	انتصار العرب في جلولاء. واستكمال فتح العراق. تأسيس البصرة في جنوب العراق من قبل عتبة بن غزوان.
17 هـ	638 م	يختار عمر بن الخطاب التقويم القمري للدولة الإسلامية. ويحدد بداية التقويم الهجري بيوم 622/7/16 م.
17 هـ	638 م	اجتياح القدس (إليا) من قبل أبو عبيدة بن الجراح.
17 هـ	638 م	سعد بن أبي وقاص يؤسس الكوفة.
20 هـ	641 م	فتح بابل المصرية (حالياً القاهرة القديمة).
23 هـ	643 م	عمرو بن العاص يؤسس الفسطاط. عاصمة مصر الإسلامية الأولى.
26 ذو الحجة 23 هـ	3 تشرين الثاني 644 م	اغتيال عمر بن الخطاب.
23–35 هـ	644–656 م	فترة خلافة عثمان.
26 هـ	647 م	الحملة العربية الأولى في إفريقية. معركة صبيطلة.

18 ذو الحجة 35 هـ	17 حزيران 656 م	اغتيال عثمان، وبداية خلافة علي.
16 جمادى الآخرة 36 هـ	9 كانون الأول 656 م	«موقعة الجمل». هزيمة خصوم علي: عائشة، ومعاوية، وطلحة.
36-37 هـ	657 م	عصيان معاوية، والي سورية. الفتنة: انقسام الأمة الإسلامية.
8 صفر 37 هـ	تموز 657 م	«معركة صِفّين». بين معاوية وعلي: الحيلولة دون وقوع الحرب، قبول التحكيم من قبل علي ولكن الخوارج، إحدى الجماعات المؤيدة، ينسحبون من جيش علي.
38 هـ	658 م	علي يهزم الخوارج، عند النهروان العراقية.
40 هـ	661 م	أحد الخوارج يغتال علياً في الكوفة.
41-60 هـ	661-680 م	إعلان معاوية خليفة: يؤسس الدولة الأموية.
50 هـ	670 م	تأسيس القيروان من قبل عقبة بن نافع.
10 محرم 61 هـ	10 تشرين الأول 680 م	يوم عاشوراء: تاريخ مقتل الحسين بن علي، في موقعة كربلاء.
62 هـ	682 م	«زعيم بربري من قبيلة الأوربة يهزم عقبة بن نافع ويقتله عند بلدة تهودة» القريبة من بسكرة.
65-86 هـ	685-705 م	عبد الملك بن مروان يقوم بتعريب إدارة الدولة الإسلامية، ويضرب النقد الذهبي.
79 هـ	698 م	يقوم الحسن بن النعمان بطرد البيزنطيين من قرطاجة.
83 هـ	702 م	الحسن يهزم ملكة البربر كاهنة ويقتلها.
88-96 هـ	705-715 م	الخليفة الوليد الأول يأمر ببناء مسجدي الأموي في دمشق، والأقصى في القدس، ويعيد بناء مسجد المدينة.
92 هـ	711 م	بداية الفتح العربي الإسلامي للأندلس بقيادة موسى بن نصير ومعاونه طارق بن زياد. هزيمة الفيزيقوط والاستيلاء على قرطبة.
114 هـ	732 م	هزيمة العرب المسلمين في معركة بواتييه (بلاط الشهداء).
132 هـ	750 م	انتصار العباسيين واستيلاؤهم على السلطة بزعامة أبي العباس السفاح.
135 هـ	752 م	تأسيس «العسكر»، المدينة الثانية إلى شمال غرب الفسطاط من قبل والي مصر العباسي.
137-171 هـ	756-788 م	عبد الرحمن الداخل يؤسس إمارة قرطبة الأموية.
145 هـ	762 م	أبو جعفر المنصور (حكم 136-158 هـ/ 754-775 م) يؤسس بغداد عاصمة للعباسيين (تنتهي الدولة العباسية في 656 هـ/1258 م).
160-168 هـ	777-784 م	عبد الرحمن بن رستم يؤسس إمارة تاهرت في المغرب الأوسط: تدوم الإمارة حتى عام 296 هـ/ 909 م.
170-193 هـ	786-809 م	فترة خلافة هارون الرشيد.
181 و191 هـ	797 و807 م	سفراء شارلمان يزورون بغداد.
173 هـ	789 م	إدريس بن عبد الله يهرب من المغرب، ويؤسس مدينة فاس.
184-197 هـ	800-812 م	إبراهيم بن الأغلب يؤسس الدولة الأولى في إفريقية: تدوم دولة الأغالبة هذه إلى سنة 296 هـ/ 909 م.
185 هـ	801 م	تأسيس «العباسية» القريبة من القيروان.
201-223 هـ	817-838 م	زيادة الله يرمم مسجد القيروان.
212 هـ	827 م	أسد بن الفرات يستولي على صقلية.

254–270 هـ	868–883 م	أحمد بن طولون، والي مصر، يؤسس الدولة الطولونية (التي تنتهي سنة 293 هـ/905 م) والمسجد الذي يحمل اسمه في مدينة القطائع.
263 هـ	876 م	الرقادة عاصمة الأغالبة التي شيدت بالقرب من القيروان.
296–363 هـ	909–973 م	الدولة الفاطمية تحكم أفريقية (تونس).
305–308 هـ	917–921 م	يقوم عبد الله المهدي (الذي حكم 296–322 هـ/909–934 م) بتأسيس مدينة المهدية.
316 هـ	929 م	يعلن عبد الرحمن الثالث (الذي حكم 300–350 هـ/912–961 م) نفسه خليفة لقرطبة.
334–447 هـ	945–1055 م	دولة البويهيين الشيعية، «حامية الخلافة العباسية»، ترسخ أقدامها في بغداد.
335–336 هـ	947 م	موت أبي يزيد، زعيم آخر الثورات الخارجية الكبرى في المغرب.
336 هـ	948 م	تأسيس المنصورية بالقرب من القيروان.
359 هـ	969 م	القائد جوهر الصقلي يؤسس «القاهرة» لسيده المعز لدين الله.
363 هـ	973 م	المعز يترك إفريقية لمعاونيه الزيريين، ويؤسس دولة مصر الفاطمية التي تدوم حتى 567 هـ/1171 م.
398 هـ	1007 م	تأسيس القلعة من قبل بني حماد، أبناء عمومة الزيريين في المغرب الأوسط.
399 هـ	1009 م	تدمير كنيسة القيامة في القدس، بأمر الخليفة الفاطمي بمصر الحاكم الذي دام حكمه (386–411 هـ/996–1021 م).
422 هـ	1031 م	سقوط خلافة قرطبة الأموية، وظهور ممالك الطوائف.
448 هـ	1055 م	طغرل بك، مؤسس الدولة السلجوقية الكبرى، يدخل بغداد، يطيح بدولة البويهيين الشيعية، يستعيد نفوذ السنة، ويصبح حامي الخليفة العباسي.
453 هـ	1061 م	بداية الاجتياح النورمندي لصقلية بقيادة روجر الهوتفيلي.
460 هـ	1067 م	بنو حماد يؤسسون بجاية.
463 هـ	1070 م	المرابطون يؤسسون مراكش.
463 هـ	1071 م	هزيمة البيزنطيين في «معركة ملاذ كرد» تفتح بوابة آسيا الصغرى أمام الأتراك.
468–708 هـ	1075–1308 م	دولة الروم السلجوقية (الأناضول)، عاصمتها قونية.
477 هـ	1085 م	ألفونسو الرابع القشتالي يستولي على طليطلة.
478 هـ	1086 م	انتصار يوسف بن تاشفين المرابطي في الزلاقة بالأندلس.
		نهاية أولى ممالك الطوائف.
489 هـ	1095 م	البابا أوربان الثاني يدعو إلى شن حملة صليبية في مجلس كليرمونت.
493 هـ	1099 م	الصليبيون يحتلون القدس، تأسيس أربع إمارات صليبية: إمارة الرها أو أورفة، وإمارة أنطاكية، وإمارة طرابلس، ومملكة القدس.
524–48 هـ	1130–1154 م	ملك صقلية روجر الثاني يستقبل الجغرافي العظيم الإدريسي الذي يقدم له كتاب روجر.
540–541 هـ	1146 م	الحملة الصليبية الثانية بعد استيلاء عماد الدين زنكي على الرها.
541 هـ	1147 م	عبد المؤمن الموحدي يستولي على مراكش.
583–1187 هـ	1188–1192 م	الحملة الصليبية الثالثة.

583 هـ	1187 م	صلاح الدين المنتصر في حطين يستعيد القدس من الفرنجة.
591 هـ	1195 م	يعقوب المنصور (حفيد عبد المؤمن). يحقق الانتصار في الأراك. ويسيطر على الأندلس.
595 هـ	1199 م	تأسيس رباط الفتح (الرباط).
601 هـ	1204 م	تبدأ الحملة الصليبية الرابعة باجتياح الإمبراطورية البيزنطية 612/1212.
612 هـ	1212 م	هزيمة الموحدين في لاس نوفاس دي تولوسا (العقاب).
625 –647 هـ	1228– 1249 م	أبو زكريا يؤسس الدولة الحفصية في تونس.
627 هـ	1229 م	معاهدة يافا التي تمخضت عن تنازل الكامل محمد الملك الأيوبي عن القدس للإمبراطور فريدريك الثاني دون قتال.
629 هـ	1232 م	محمد بن ناصر يؤسس المملكة الناصرية في غرناطة.
642–869 هـ	1244–1465 م	الدولة المارينية البربرية في المغرب.
642–669 هـ	1244–1265 م	تسقط إشبيلية بيد القشتاليين.
646–652 هـ	1248–1254 م	يقوم لويس التاسع بشن الحملة الصليبية السابعة على منطقة دمياط. يقع في الأسر. ويتم افتداؤه بفدية كبيرة. يبقى أربع سنوات أخرى في عكا لإعادة تنظيم ما تبقى من الدول الإفرنجية.
648 هـ	1250 م	موت الإمبراطور فريدريك الثاني الهوهنستاوفني. ملك صقلية وملك القدس.
648–784 هـ	1250– 1382 م	شجرة الدر تدشن حكم المماليك البحرية في كل من مصر. وسورية. والحجاز.
656 هـ	1258 م	هولاكو المغولي ينهب بغداد. سقوط خلافة بغداد العباسية.
659 هـ	1260 م	المماليك يهزمون المغول في عين جالوت الفلسطينية.
659 – 676 هـ	1260–1277 م	فترة حكم السلطان بيبرس الذي يطرد الصليبيين من سورية وفلسطين. ويصد المغول.
669 هـ	1270 م	الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة: لويس التاسع ينزل بقرطاجة ويموت بمرض الديزانتريا.
679–724 هـ	1280–1324 م	يتولى عثمان حكم إحدى الإمارات في شمال غرب الأناضول.
691 هـ	1291 م	يستولي السلطان المملوكي الأشرف خليل على عكا واضعًا حدًا لوجود الفرنجة في سورية وفلسطين.
726 هـ	1326 م	تأسيس العاصمة العثمانية «بورصة».
734–755 هـ	1333–1354 م	الناصري يوسف الأول يؤسس قصر الحمراء في غرناطة.
741 هـ	1340 م	هزيمة المارينيين في ريو سالادو.
749–750 هـ	1348–1349 م	الطاعون ينتشر في بلدان حوض البحر المتوسط.
751–771 هـ	1350–1369 م	بدرو «الظالم». يُتوَّج ملكًا على قشتالة وليون.
الحكم الأول 784–791 هـ	1382–1389 م	قام السلطان برقوق بتأسيس الدولة المملوكية الشركسية (البرجية) التي دامت
الحكم الثاني 792–801 هـ	1390–1399 م	(784–923 هـ/1382–1517 م).
798 هـ	1396 م	انتصار عثماني على جيش صليبي في نيكوبوليس.
804 هـ	1401 م	دمشق تتعرض للنهب من قبل جيش تيمورلنك.
805 هـ	1402 م	معركة أنقرة. بايزيد يقع في أسر تيمورلنك. أدرنة تصبح العاصمة العثمانية الجديدة.

هـ	م	الحدث
809 هـ	1406 م	وفاة المؤرخ العظيم ابن خلدون في القاهرة. وُلد بتونس في 733 هـ/1332 م.
818 هـ	1415 م	البرتغاليون يصلون إلى سبتة.
823 هـ	1420 م	الوطاسيون يطيحون بالمارينيين في المغرب.
848 هـ	1444 م	العثمانيون يهزمون الهنغاريين في فارنا.
857 هـ	1453 م	محمد الفاتح العثماني يستولي على القسطنطينية.
876 هـ	1471 م	البرتغاليون يصلون إلى طنجة.
897 هـ	1492 م	تسقط غرناطة بأيدي الملوك الكاثوليك. الملوك الكاثوليك يجبرون اليهود على اعتناق المسيحية (ليصبحوا مهتدين) وإلا يتم ترحيلهم قسرًا.
902 هـ	1496 م	طرد اليهود والمسلمين من البرتغال.
906 هـ	1500 م	البرتغاليون يصلون إلى أغادير.
3 شعبان 907 هـ	11 شباط 1502 م	الملوك الكاثوليك يجبرون المسلمين على اعتناق الدين المسيحي (ليصبحوا مهتدين). وإلا فلا خيار أمامهم سوى النفي.
915 هـ	1509 م	الإسبانيون يستولون على أوران.
922 هـ	1516 م	انتصار مرج دابق: العثمانيون يحتلون سورية.
922 هـ	1516 م	قراصنة آروج العثمانيون يستولون على مدينة الجزائر.
923 هـ	1517 م	السلطان سليم الأول يحتل مصر المملوكية.
926 هـ	1520 م	تولي سليمان القانوني عرش السلطنة (توفي في 974 هـ/ 1566 م).
927 هـ	1521 م	العثمانيون يصلون إلى بلغراد.
936 هـ	1529 م	حصار فيينا الأول. خير الدين بربروسا الأروجي يفرض سيطرته على مدينة الجزائر.
942 هـ	1535 م	الأتراك وفرانسيس الأول يوقعون معاهدة الامتيازات.
94 هـ	1535 م	شارل الخامس يحتل تونس.
956–1069 هـ	1549–1559 م	السلالة السعدية تحكم المغرب.
979 هـ	1571 م	هزيمة الأسطول التركي في ليبانتو من قبل الإسبان والبنادقة.
982 هـ	1574 م	الأتراك يستولون على إفريقية (تونس) مطيحين بالحفصيين والإسبان على نحوٍ دائم.
986 هـ	1578 م	معركة الملوك الثلاثة في وادي المخازن (المغرب). هزيمة البرتغاليين.
995–996 هـ	1587 م	استحداث بيكويات الجزائر، وتونس، وطرابلس العثمانية. إفريقية تصبح تحت وصاية تونس.
1018 هـ	1609 م	الملك فيليب الثالث يصدر إرادة ملكية تقضي بطرد المغاربة (المسلمين الذين أجبروا على اعتناق الدين المسيحي) من الأراضي الإسبانية.
1021–1114 هـ	1612–1702 م	سلالة مراد بيك تحكم تونس.
1050–1075 هـ	1672–1664 م	مولاي الراشد يؤسس الدولة العلوية (ما زالت مستمرة).
1068 هـ	1657 م	وفاة الجغرافي التركي العظيم كاتب جلبي (1018–1068 هـ/1609–1657 م).
1078 هـ	1669 م	الاحتلال العثماني لجزيرة كريت.
1117–1377 هـ	1705–1957 م	سلالة حسين بيك تحكم تونس.
1183 هـ	1769 م	طرد البرتغاليين من مازاغان (المغرب).
1212–1215 هـ	1798–1801 م	حملة نابليون على مصر.
1220–1265 هـ	1805–1848 م	محمد علي حاكمًا لمصر.
1223–1358 هـ	1808–1939 م	السلطان محمود الثاني، بداية الإصلاحات العثمانية (فرمان التنظيمات).
1237 هـ	1821 م	المطبعة تعمل في مصر.

1245 هـ	1829 م	معاهدة أدرنة: حكم ذاتي لكل من اليونان، مولدافيا وفالاسيا.
1246 هـ	1830 م	استعمار فرنسا للجزائر. استقلال اليونان.
1255 هـ	1839 م	ارتقاء السلطان عبد المجيد العرش (توفي في 1278 هـ/1861 م). فرمان التنظيمات: برنامج إصلاحات للدولة العثمانية.
1257 هـ	1841 م	إلغاء الرق في تونس.
1264 هـ	1847 م	استسلام عبد القادر في الجزائر.
1273 هـ	1856 م	خطي هومايون: إعلان الحقوق المدنية الشاملة الصادر عن السلطان العثماني.
1274 هـ	1857 م	العقد الأساسي، الوزير الإصلاحي خير الدين، والإصلاحي والمؤرخ ابن أبي ضياف، ينشطان (تونس).
1286 هـ	1869 م	تدشين قناة السويس التي شقها فيرديناند دى ليسبس.
1293 هـ	1876 م	ارتقاء السلطان عبد الحميد الثاني العرش (توفي في 1327 هـ/1909 م)
1295 هـ	1878 م	مصير عدد من أقاليم السلطنة العثمانية بما فيها تونس يتحدد في مؤتمر برلين.
1299 هـ	1881 م	معاهدة باردو: تونس محمية فرنسية.
1325 هـ	1907 م	تأسيس جامعة القاهرة.
1326 هـ	1908 م	ثورة تركيا الفتاة تطيح بالسلطان (الذي يتنازل في 1327 هـ/1909 م).
1326 هـ	1908 م	استقلال بلغاريا.
1331 هـ	1912 م	المغرب محمية فرنسية.
1333–1337 هـ	1914–1918 م	اغتيال ولي العهد فرانز فيرديناند في سيراييفو، بداية الحرب العالمية الأولى، مصر محمية بريطانية (احتلال عسكري حتى سنة 1936 م).
1333 هـ	1914 م	روسيا، وبريطانيا العظمى، وفرنسا، في حرب مع السلطنة العثمانية.
1335 هـ	1916 م	معاهدة سايكس بيكو حول الشرق الأدنى. التمرد العربي على العثمانيين بقيادة الحسين، شريف مكة.
1339 هـ	1920 م	معاهدة سيفر.
4 شعبان 1338 هـ	23 نيسان 1920	تأسيس الجمعية الوطنية التركية، في 24 نيسان: يُنتخب مصطفى كمال (أتاتورك) رئيساً للمجلس.
1339 هـ	1920 م	الانتداب الفرنسي في سورية (إلى 1941) وفي لبنان (إلى 1943).



مقدمة

الفن الإسلامي في المتاحف — سفراء الحضارة
بقلم محمد عباس، محمد نجار، باري وود

مصباح مسجد

مملوكي (حوالي 740 هـ/1340 م)
متحف فكتوريا وألبرت
لندن، المملكة المتحدة

من إسبانيا إلى سوريا، ومن تركيا إلى تونس، فإن فنون المناطق الإسلامية في منطقة البحر المتوسط تقدم تنوعًا رائعًا وأصيلاً. وعندما توضع هذه الأعمال الفنية في أوساط المتاحف — أياً كان تواضعها — فإنها بطريقة ما تلعب دور السفراء الذين يمثلون ماضي الشعوب الذين تتهامس أصواتهم في آذان زوار المتحف محدثينه عن الطريقة التي عاشوا بها، وعما أبدعوه ليضفوا الزينة على عالمهم. إلا أنه عندما تؤخذ هذه الأعمال على حدة، وحتى عند عرضها في أحد المتاحف، تتناقص قدرة كل تحفة منها على التواصل بفعل قيود معينة، من بينها عدد التحف التي يمكن عرضها في أحد المعارض، وخبرة منظمي المعرض، والمساحة المخصصة للملصقات التعريفية، وما إلى ذلك.

والآن، ومع مشروع «اكتشف الفن الإسلامي»، فقد تم الجمع ما بين مجموعة مذهلة من الأعمال الفنية الإسلامية، وذلك في تشكيلة غير مسبوقة تدمجها جميعًا في متحف واحد متميز و«بلا حدود». يقدم المتحف 850 قطعة فنية من 42 متحفًا، و385 أثرًا من 11 بلداً تم جمعها معاً في كيان واحد متكامل لتنوير المشاهد المهتم.

ويمكن الآن للتحف التي جمعها التاريخ وفرق بينها المكان، والتحف التي سبق أن تم ابتكارها لترتبط بأثر معين، يمكنها الآن أن تحظى بالدراسة معًا، وبإشراف الخبراء من البلدان محل الدراسة. ويتيح ذلك لتلك التحف أن تتحدث عن مبتكريها وعمن استخدموها بصوت واحد أكثر وقعًا. إن ما سنستقيه من تلك الآثار سيساعدنا على تبني منظور جديد وهام حول تاريخ وثقافة منطقة البحر المتوسط.

من المهم أن ندرك مثلاً أن أعمق أصول الفن الإسلامي تقبع في أواخر فترة الفن العتيق لمنطقة المتوسط، وأنه حتى عناصر الفن «الإسلامي» الأصيل مثل الأرابيسك تنحدر في الأساس من مرحلة متأخرة من الزينات الرومانية. ولعله من غير المتوقع أن يؤدي استيعاب هذه الحقائق إلى الكشف عن العلاقة الوثيقة بين الفن الإسلامي والفن الغربي. إلا أنه من الحقيقي أيضاً أن الفن الإسلامي لم يكن مجرد استمرار لمرحلة متأخرة من الفن الروماني، وإنما مزيج مبتكر من الأشكال المحددة، والتي تم توظيفها بطرق جديدة ولأغراض اجتماعية وفكرية جديدة. وعلى مدار القرون، فقد تطورت تلك الأشكال مع تطور الحضارات التي أبدعتها، مما تمخض عنه نطاق عريض من البراعة الفنية التي تنتزع إعجابنا في المتاحف اليوم.

ومن المهم أيضًا التأكيد على حقيقة أن الفن «الإسلامي» ليس فنّا للدين، وإنما للثقافة. لم يكن الفن الإسلامي من البداية فنّا دينيّا، ولا كان فنّا قاصرًا على المسلمين. وإنما يشير اصطلاح «إسلامي» — في سياق الفن — ليس للإسلام، وإنما لثقافة الإسلام في فترات تاريخية معينة. وبصفته ظاهرة ثقافية، فقد تم ابتكاره وتطويره بمعرفة المسلمين وغير المسلمين، كما استفادت من نتاجه وتمتعت به مجتمعات داخل العالم الإسلامي وخارج حدوده.

وبالفعل، فعلى مدى القرون فقد أثبتت المعايير والأساليب الفنية التي تطورت في فن منطقة المتوسط الإسلامية قابليتها على الانتقال وتخطي الحدود الثقافية. ويبدو ذلك جليّا في الحماس الذي تلقى به الأوروبيون في العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث مصنوعات من جيرانهم المسلمين، سواءً كتحف فخمة، وكذلك كمصدر إلهام لتصميماتهم الخاصة. فعلى سبيل المثال تم تحويل أواني الصخور الكريستالية الفاطمية إلى حافظات للرفات وتم حفظها في خزائن الكنائس، كما تم تعليق الحرير الناصري كخلفيات لأعمال النحت، فيما تم تمجيد السجاجيد العثمانية كرمز للترف في لوحات كبار الفنانين مثل «هانز هولباين». إن الحيوية التي اكتسبتها التجارة عبر أنحاء المتوسط لهي تذكرة على مدى قوة الروابط بين الجزئين الأوروبي والإسلامي من المتوسط. إن قيمة الفن الإسلامي كوسيلة لاستيعاب تاريخ المتوسط — بشطريه الغربي والإسلامي — هي قيمة عظيمة بشكل واضح. كما أن تلك الأعمال التي تنم عن الرقي والجمال تمثل دليلاً قاطعاً على الروابط التي طالما ربطت ما بين بلدان المنطقة الثقافية الأوروبية المتوسطية. وبذلك فإنها لا تكتفي بتقديم المتعة الفنية فحسب، ولكنها أيضاً تقدير بليغ لشعوب وثقافات المنطقة التي نتشارك فيها.

حوض البحر الأبيض المتوسط قبل الفتوحات الإسلامية

عائشة بن عابد



صورة القدس
لوحة فسيفسائية في كنيسة القديس جورج

القرن السادس الميلادي
مادبا، الأردن

حوض البحر الأبيض المتوسط قبل الفتوحات الإسلامية

بعد الأزمة الكبيرة التي هزت الإمبراطورية الرومانية وأطرافها، في منتصف القرن الثالث ميلادي، تحت ضغط الشعوب البربرية، بدأ المشهد السياسي العسكري لحوض البحر الأبيض المتوسط يخضع لتغيرات عميقة ومستمرة.

وقد ازدادت هذه التغيرات البنيوية قوة في عام 324 م، عندما قام الإمبراطور قسطنطين بتحويل بيزنطة إلى القسطنطينية، معلناً بذلك رغبته بتحقيق توازن الإمبراطورية، عبر منحها مركز ثقل ثانٍ يقع في الشرق.

كذلك يتمُّ النظر إلى القرن الرابع الميلادي، كعصر إعادة هيكلة، فقد اعتُبرت المسيحية دينًا رسميًا للدولة منذ حكم قسطنطين، الذي أصدر "مرسوم ميلانو" في عام 313 م، فأعاد بذلك للكنيسة الثروات التي نُهبت منها، وأقرّ لها بحرية العبادة بشكل كامل. وهكذا صارت العقيدة المسيحية المرجعية الدينية للإمبراطورية الرومانية ("مرسوم تيسالونيك" في 380 م).

لكن يجب ملاحظة أن انتشار المسيحية في حوض المتوسط، بأكمله، لم يُلغ تمامًا بقايا الوثنية، التي عبّر عنها بشكل واضح حكم "جوليان المارق" (331-363 م)، الذي كان بإعلانه التسامح يرغب في إضعاف الطبقات الحاكمة، التي كانت قد تحوَّلت إلى المسيحية حديثًا.



آيا صوفيا

ابتناها الإمبراطور جوستنيان، وجرى قلبها لاحقاً إلى مسجد.

بيزنطة، 537 م

استانبول، تركيا

امرأة من قرطاجة (فسيفساء)

القرن الـ 6 م
متحف باردو، تونس

مدينة قرطاجة القديمة

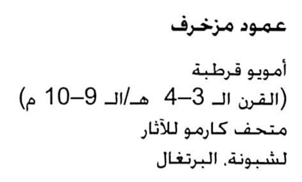
القرن الـ 6 م
بالقرب من العاصمة تونس، تونس



والواقع أن الوثنية لن تزول تمامًا من تلك المنطقة، وإنما ستظل مستمرة لفترة طويلة، على شكل مرجعيات ثقافية، تبرهن عليها المواضيع الميثولوجية في الفسيفساء، التي تمَّ الكشف عنها في سورية، كما في وسط تونس، والتي تعود إلى القرن السادس وحتى إلى القرن السابع الميلادي.

كان رجال الكنيسة طيلة القرن الرابع الميلادي يصيغون عقيدة المسيحية، ويحاولون تحديد قواعدها. وفي الواقع إن التحديات كانت هامة، طالما أن الأمر يتعلق بتنظيم مجموعة المؤمنين، وثروات الكنيسة.

في العام 381 م، قرَّر "مجمَّع القسطنطينية" أن يجعل من القسطنطينية المطرانية المسيحية الثانية بعد روما، في حين اكتفت مدينة القدس بأن تلعب دورًا روحيًا من الدرجة الأولى.



عمود مزخرف

أمويو قرطبة
(القرن الـ 3–4 هـ/الـ 9–10 م)
متحف كارمو للآثار
لشبونة، البرتغال



قبة الصخرة
زخرفة داخلية (تفصيل).

أموي (72 هـ/691 م)
القدس

ولقد سمحت العقيدة المسيحية، التي تتمحور حول إله واحد، بتحقيق وحدة حقيقية للإمبراطورية، وهذا ما كانت تحتاج إليه السلطة السياسية، بشكل كبير.

لقد كرّس القرن الخامس الميلادي أهمية الإمبراطورية الرومانية، التي أُعيد تنظيمها، وعرفت حكمًا ثنائيًا مع وجود عاصمتين لها: روما في الغرب، والقسطنطينية في الشرق، وذلك منذ أن استلم الحكم، في نهاية القرن الرابع الميلادي، ابنا تيودوس: آركاديوس، وهونوريوس.

وخلال هذا القرن أيضًا، عرف حوض البحر المتوسط حدثًا مؤلمًا، بشكل خاص، لكنه لعب دورًا أساسيًا في التطور المستقبلي للإمبراطورية نحو العصور الوسطى. هذا الحدث هو احتلال الشعوب البربرية للعواصم الكبيرة.

الراعي الصالح
فسيفساء في ضريح غالا بلاسيديا
بيزنطي (425–430 م)
رافينّا، إيطاليا



لكن الحدث الأكثر دلالة، بلا شك، هو الاستيلاء على روما، ونهبها، من قبل الملك القوطي آلاريك في عام 410 م. فقد ظلت هذه المدينة الخالدة، هذه الـ "Urbs"، كما كانت تُسمى، عرضة للحرق وسفك الدماء على يد الجنود القوطيين. وقد وضع ذلك حدًّا لأسطورة «روما التي لا تُقهر»، وكانت النهاية الحتمية لزمن بكامله، طالما أن سقوط روما قد هزَّ أركان العالم القديم.

بعد ذلك بثلاثين سنة، سقطت إسبانيا، ثم قرطاجة، أمام جحافل الفاندال في عام 439 م، وبالتالي ضعف الحوض الغربي للبحر المتوسط، بشكل عميق.

اعتبارًا من ذلك الوقت، صار مركز الإمبراطورية في الشرق، وبشكل أدقّ في القسطنطينية، التي غدت، بحكم ذلك، عاصمة الإمبراطورية. وهكذا صار البحر المتوسط تحت سيطرة جزئه الشرقي، الذي يتمحور حول آسيا الوسطى والشرق الأوسط. وفي حين كان الغرب الروماني يجابه الغزاة، قدر المُستطاع، عرفت الإمبراطورية الشرقية رخاءً نسبيًّا، في ظل سلطة مركزية قوية.

في هذا الإطار الجغرافي السياسي المتناقض، بدأت المسيحية المنتصرة تعرف فترة طويلة من الغليان، في الشرق كما في الغرب. وصار "علم اللاهوت" المجال الذي يمكن أن تتجلّى فيه كل التوجُّهات، وكل الصراعات الكامنة في المجتمع القديم. وهكذا بدأت منذ القرن الخامس الميلادي، في الشرق، صراعات بلا رحمة، ما بين أصحاب "الطبيعة الواحدة"، الذين يؤمنون بالجوهر الإلهي البحت للمسيح، وبين "النساطرة"، الذين يأخذون بعين الاعتبار أيضًا الطبيعة البشرية للمسيح.

وعلى الرغم من جهود السلطة السياسية من أجل إيجاد حلٍّ وسط بين التوجهين، ظلت هاتان العقيدتان مستمرتين حتى ما بعد الفتح العربي.

في إفريقيا، أخذت الصراعات شكل انشقاق مثَّلته "الدوناتية"، التي اكتسبت اسمها من الأسقف "دونات الأكبر". وهذا الانشقاق الذي سيظل، طيلة قرن كامل، يقسم الكنيسة الإفريقية، يقوم على تزمُّت البعض، ممن يرفضون مسامحة أولئك الذين تهاووا أمام الاضطهاد. وسرعان ما بدأت الدوناتية تكتسب طابعًا اجتماعيًّا يلفت نظر المؤرخين.

في الأسفل، في اليسار
فسيفساء من ماعن
قطعة من لوحة هشمها محطمو الأصنام، ذيل، ومخلبان، وقرنان مازالت مميزة؛ في حين أن الجزء الأكبر من الصورة جرى إبداله بشجيرة وجرَّة.

أموي (100–101 هـ/719–720 م)
حديقة مأدبا الأثرية
مأدبا، الأردن

أرضية فسيفسائية (تفصيل)
تصوير كاسرون مفعا (أم الرصاص الحالية) بكنيسة القديس اسطفان

أموي - عباسي
(99–138هـ/ 718–756 م)
أم الرصاص، الأردن

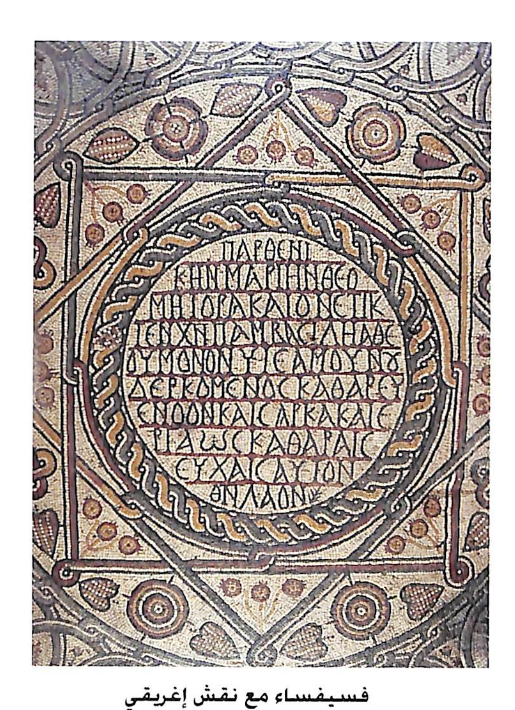


لوحة أرضية في قصر الحير الغربي
يُظَنُّ أن اللوحة تمثل غايا، الإلهة الأم في الميثولوجيا الرومانية

أموي (109 هـ/727 م)

المتحف الوطني

دمشق، سورية



فسيفساء مع نقش إغريقي
في كنيسة مريم العذراء،

بيزنطي، أموي، عباسي
(القرنان الـ 6 و7 م)؛ مُرمَّم في
(149 هـ/767 م)

مادبا، الأردن

مع مجيء الفاندال، وهم من المسيحيين الأريوسيين الهراطقة (من الأريوسية، التي تنص على أن الابن له طبيعة مشابهة، لكنها غير مساوية لطبيعة الأب والروح القدس. وقد وُصفت بالهرطقة من قبل مجمع نيقية، ثم مجمع القسطنطينية، في عام 381 م)، اندلع الشقاق بينهم وبين الكاثوليك. ولقد صار اضطهاد الكاثوليك، ومصادرة أموالهم، أمرًا منتظمًا، منذ احتلال قرطاجة.

وبالتوازي مع رغبة الفاندال في أن يفرضوا أنفسهم كمختلفين عن أهل روما، في المجال الديني، فإنهم لم يتوانوا عن اعتماد نمط حياة أبناء الأرستقراطية الإفريقية، الذين كانوا قد اكتسبوا عادات رومانية. لقد حاول الفاندال أن يشابهوا أولئك في الترف، وفي الجو المحيط، إلى درجة أنهم فقدوا معها مُثُلَهم الحربية.

أما وجود اليهودية خلال العصر القديم المتأخر، فهو بديهي في مجال الأدب والأركيولوجيا. ويمكن تقصي الآثار الأدبية، في النصوص التي كتبها الحاخامات، وفي الإرجاعات إلى اليهودية ضمن الأدب الإغريقي، والروماني، والسرياني. أما الآثار الأركيولوجية، فهي موجودة بشكل

خاص في أطلال معابد الكُنس، وفي المدافن، والمقابر، كما في الكتابات المنقوشة. وقد كانت الجماعات اليهودية الأساسية تقيم في المدن الشرقية الكبيرة.

لم تتوقّف الإمبراطورية البيزنطية عن محاولات احتلال الجزء الغربي من الإمبراطورية، طيلة القرن السادس الميلادي. وفي هذا السياق، تم النظر إلى استعادة قرطاجة في عام 533 م، على يد القائد البيزنطي بيليسير، كانتصار كبير للشرعية التاريخية، على استيلاء الفاندال على السلطة بغير حق.

في فترة لاحقة (ما بين عامي 535 و540 م)، استعادت جيوش جوستنيان جزءًا من إيطاليا من "الأستروغوط"، بل وتوصلت لأن تعيد الاستيلاء على جزء من إسبانيا "الفيسيغوطية". يندرج هذا الاسترداد البيزنطي في مشروع شمولي يهدف إعادة الحياة إلى الامبراطورية الرومانية، التي كانت الإمبراطورية البيزنطية تقدّم نفسها وريثًا شرعيًا، وامتدادًا لها.

في كل مكان، وضمن المدن التي تم الاستيلاء عليها، كان انتصار "الشرعية" هذا، والعودة إلى الينابيع الأولى، يترافقان مع حركة واسعة من بناء الصروح المخصصة للعبادة المسيحية. وكانت أبعاد هذه الأبنية، وزخارفها المترفة، خاصة تلك التي تأخذ شكل فسيفساء، تتبدّى بشكل واضح ضمن المشهد الصروحي الموجود. ولقد لاحظ علماء الآثار، مرات عديدة، رغبة في محو آثار المشيّدات السابقة لفترة الاسترداد، من أجل بناء مجمّعات معمارية دينية متميزة، لتمجيد نصر الفاتحين.

الجامع الأموي
فسيفساء على الواجهة
أموي (87–96 هـ/ 705–715 م)
دمشق، سورية





فسيفساء أرضي
أسد يهاجم ثوراً

أموي (101–105 هـ/720–724 م أو 125–126 هـ/733–734 م)
القسطل، الأردن

لوحة فسيفسائية تمثل الإمبراطورة
تيودروا، زوجة جوستنيان الأول
باسيليقا القديس فيتال

بيزنطي (527–548 م)
رافينّا، إيطاليا

هذه الصروحية. وهذا الغنى في العمارة الدينية. في القرن السادس الميلادي. كانا يتناقضان بشكل صارخ مع الفقر والإهمال الذي كان سمة المساكن العادية. والأبنية المدينية. ففي كثير من الأحيان. في مدن إفريقيا الشمالية. على سبيل المثال. كانت الأحياء السكنية فيما بين القرن السادس والسابع الميلادي. على درجة فائقة من الفقر والتهدم.

وحدها الكنائس كانت تُبرز التغني بانتصار الأباطرة البيزنطيين. من حُماة المسيحية. أما الأماكن العامة. مثل الساحات. أو الحمامات. فقد تمَّ تحويلها. في حال لم تُهجر. أو تُستخدم كتحصينات. إلى أماكن للحرف اليدوية. كمؤسسات صنع اللبّاد. أو الزيت. كذلك فإن المقابر. التي كانت في الماضي تقع خارج الأسوار. صار موقعها في قلب المدينة.

هذا الفقر الملحوظ في السمات الخارجية للمجتمع. خلال المرحلة القديمة المتأخرة. التي تتوافق مع القرن السادس والسابع الميلادي. كان يعبّر عن أزمة عميقة اقتصادية واجتماعية داخل المدن. ولقد بدت استعادة البيزنطيين للغرب مثل عمل يسير عكس التيار.

والواقع أن الإمبراطورية البيزنطية لم تكن لديها وسائل توازي طموحاتها. فقد كانت السلطة المركزية للقسطنطينية. وبسبب البعد الشاسع عن تلك الأصقاع الغربية. تجد صعوبات متزايدة في الوقوف بوجه الانقسامات. والثورات. التي كانت تتزايد في مقاطعات الإمبراطورية العديدة.

وهكذا. فإن الجيوش الإسلامية القادمة بفتوحاتها. والحاملة رسالة جديدة. لم تجد سوى مقاومة ضعيفة من السكان الذين أنهكتهم الفاقة. فاستسلموا بسهولة إلى الأمل الجديد الذي انفتح أمامهم.

الأعلام:

قسطنطين الأول: إمبراطور روماني (حكم ما بين عامي 306–337 م). لعب دورًا أساسيًا في تطور الإمبراطورية الرومانية. خلال العصر القديم المتأخر. وقد صارت المسيحية في فترة حكمه دين الدولة الرومانية (مرسوم ميلانو 313 م).

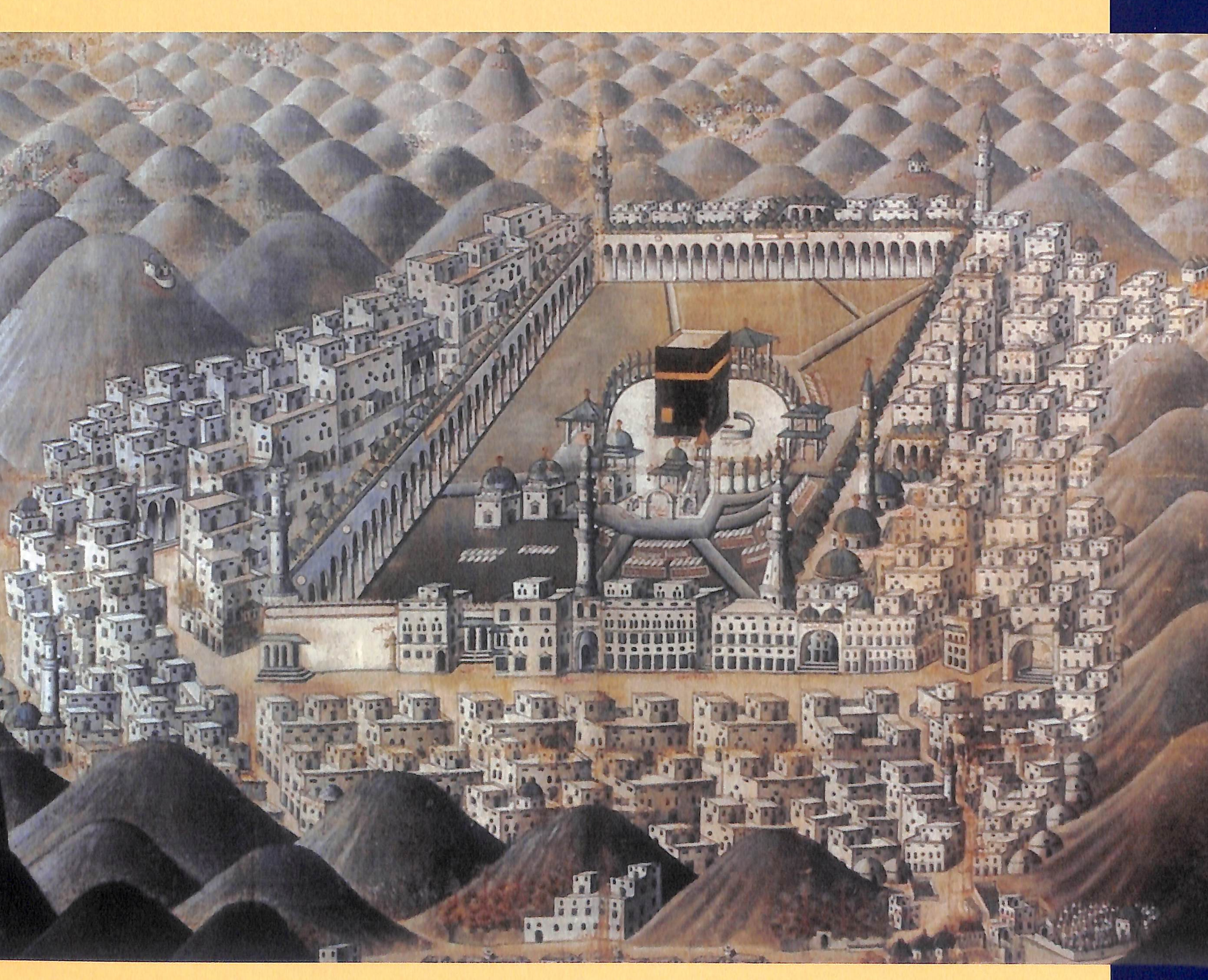
جوليان المارق (فلافيوس كلاوديوس جوليانوس): حكم الإمبراطورية الرومانية ما بين عامي 361 و363 م. وهو من أكثر الأباطرة إثارة للجدل في التاريخ. فقد اشتهر بسياسته الدينية التي عادت إلى المسيحية كدين للدولة. من جهة. كما شجعت العودة إلى الوثنية. من جهة أخرى.

ثيودوس الأكبر (فلافيوس ثيودوسوس): إمبراطور روماني في الفترة الواقعة ما بين عامي 379 و395 م. ما إن صدر مرسوم ثيسالونيك حتى أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للدولة في عهده (380 م)؛ أما بعد وفاته فقد تمزقت الإمبراطورية الرومانية وتقاسمها نجلاه أركاديوس (الذي أصبح إمبراطورًا للإمبراطورية الشرقية) وهونوريوس (الذي تولى حكم الإمبراطورية الغربية).

آلاريك: ملك القوطيين الغربيين. حاصر روما. ثم استطاع أن يخترقها. وأن ينهب المدينة خلال أيام عديدة.

النبي والخلفاء الراشدون

محمد الأسد، وينس كروغر



رسم

منظر للكعبة

عثمانى (بداية القرن 12هـ/ القرن 18م)

مكتبة جامعة أوبسالا

أوبسالا، السويد

الخلفاء الراشدون

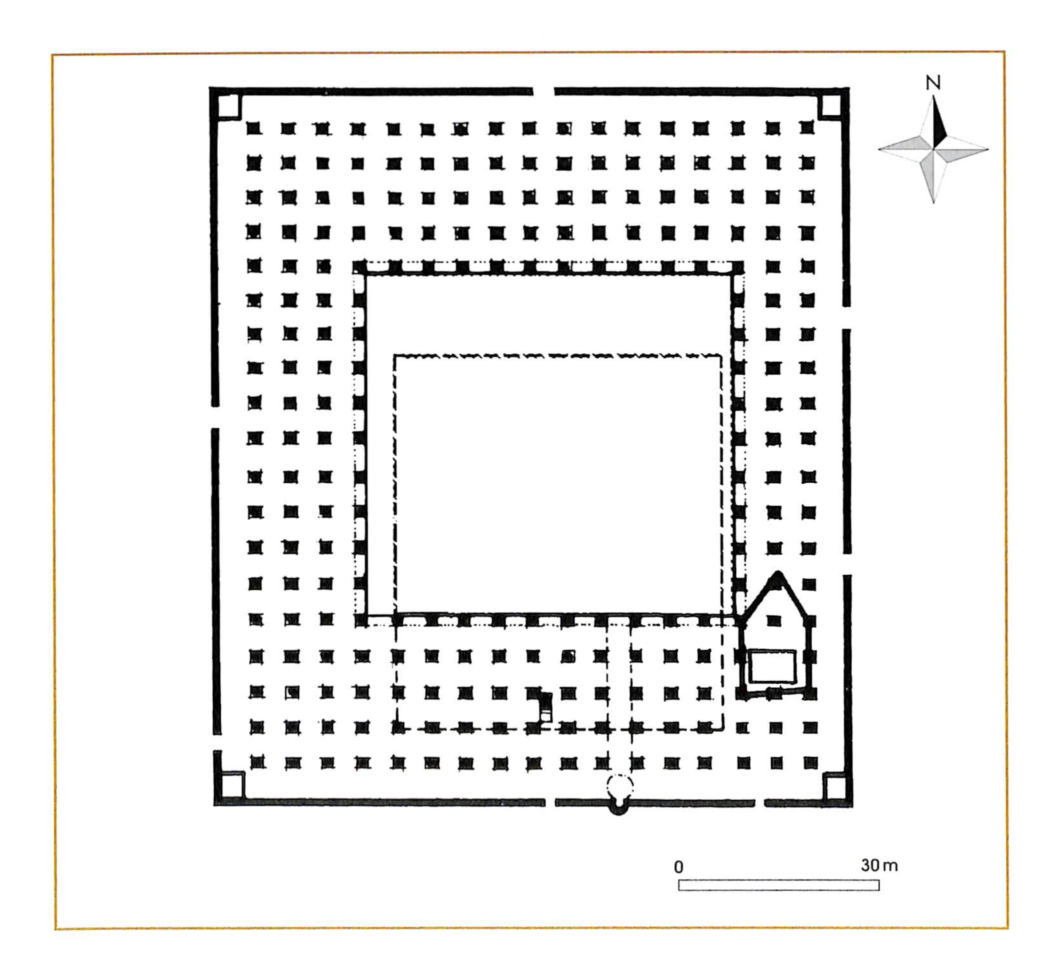
ظهر الدين الإسلامي نحو عام 610 م، في مكة، التي هي مدينة واقعة في منطقة الحجاز، في الجزء الغربي من شبه الجزيرة العربية. وحسب السيرة الإسلامية، فإن النبيَّ مُحمَّداً، ظلَّ على امتداد 23 سنة، يتلقى الوحي من الله، عبر الملاك "جبريل".

بدايةً، لم يتبع محمدًا إلا جماعة صغيرة جداً. بل بادر المكّيون، في الحقيقة، إلى اضطهاده جزئيًا، لأنهم كانوا يستفيدون كثيرًا من موقع المدينة، بوصفها مركز الوثنية العربية، وعدوا رسالة محمد القائمة على وحدانية الله، تهديدًا لنمط حياتهم، ولمصالحهم الاقتصادية.

أهل المدينة المنورة (يثرب)، الواقعة على مسافة نحو 400 كم إلى شمال شرق مكة، كانوا الجماعة ذات الشأن الأول التي قبلتْ بالنبي محمد، وبالدين الإسلامي. كانت المدينة تعاني من عداوات مستحكمة بين قبيلتيها العربيتين الرئيسيتين: الأوس والخزرج. ورأى الأهالي محمدًا رجل انضباط، قوة، استقامة وروحانية، مؤهلاً لجلب الوحدة إلى مدينتهم، ما دفعهم إلى القبول به زعيمًا روحيًا وسياسيًا. فدعوه إلى الانتقال إليهم من مكة. وعملية الانتقال التي تمَّت في عام 622 م، تُعرف باسم "الهجرة"، وتشكل بداية التقويم الإسلامي.

لوحة خزفية من الحرم الشريف
صورة مسجد محمد وآثار قدميه

عثماني (القرن الـ 11 هـ/الـ 18 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر



مخطط مسجد النبي محمد

بُني في (91 هـ/710 م) في باحة بيت النبي
المدينة، العربية السعودية

لم يكن أحد يعرف أن واحدة من أعظم قوى التاريخ العسكرية، السياسية، والثقافية، كانت ستخرج من رحم دولة المدينة الصغيرة هذه، وتحت راية الدين الإسلامي الجديد.

ومن المدينة نجح النبي، وأتباعُه، في نشر الإسلام عبر شبه الجزيرة العربية، وما لبث أن دخل مسقط رأسه مكة مظفراً (فتح مكة) في عام 8 هـ/630 م. ولدى وفاته في عام 11 هـ/632 م، كان شبُه الجزيرة العربية، كلُّه، قد خضع لحكم الإسلام.

أصبح مقر إقامة محمد في المدينة فضاء العبادة الأبدي، مشيراً إلى التوجُّه في الصلاة (القبلة) نحو الكعبة بمكة، ومؤكدًا حق منبره في تحديد مكان صلاة الجمعة. وبين عامي 87 و91 هـ/706 و710 م، خلال الفترة الأموية (41–661 هـ/132–750 م)، تمت في هذا المكان إقامة مسجد كبير (المسجد النبوي الشريف)، رُفع سقفه على أعمدة، ومجهز بمحراب عبادة.

مع وفاة النبي محمد، تعيَّن حلُّ مسألة انتخاب خَلَف يتولى قيادة المسلمين. بادر عدد من صحابته إلى مبايعة أبي بكر (الصدّيق)، وهو أقدم صحابة النبي، وأكثرهم تمتعًا بالثقة، أول خليفة للمسلمين، وقد اشتهر بدماثته وتواضعه.

كتاب الصلوات
صور لمكة والمدينة

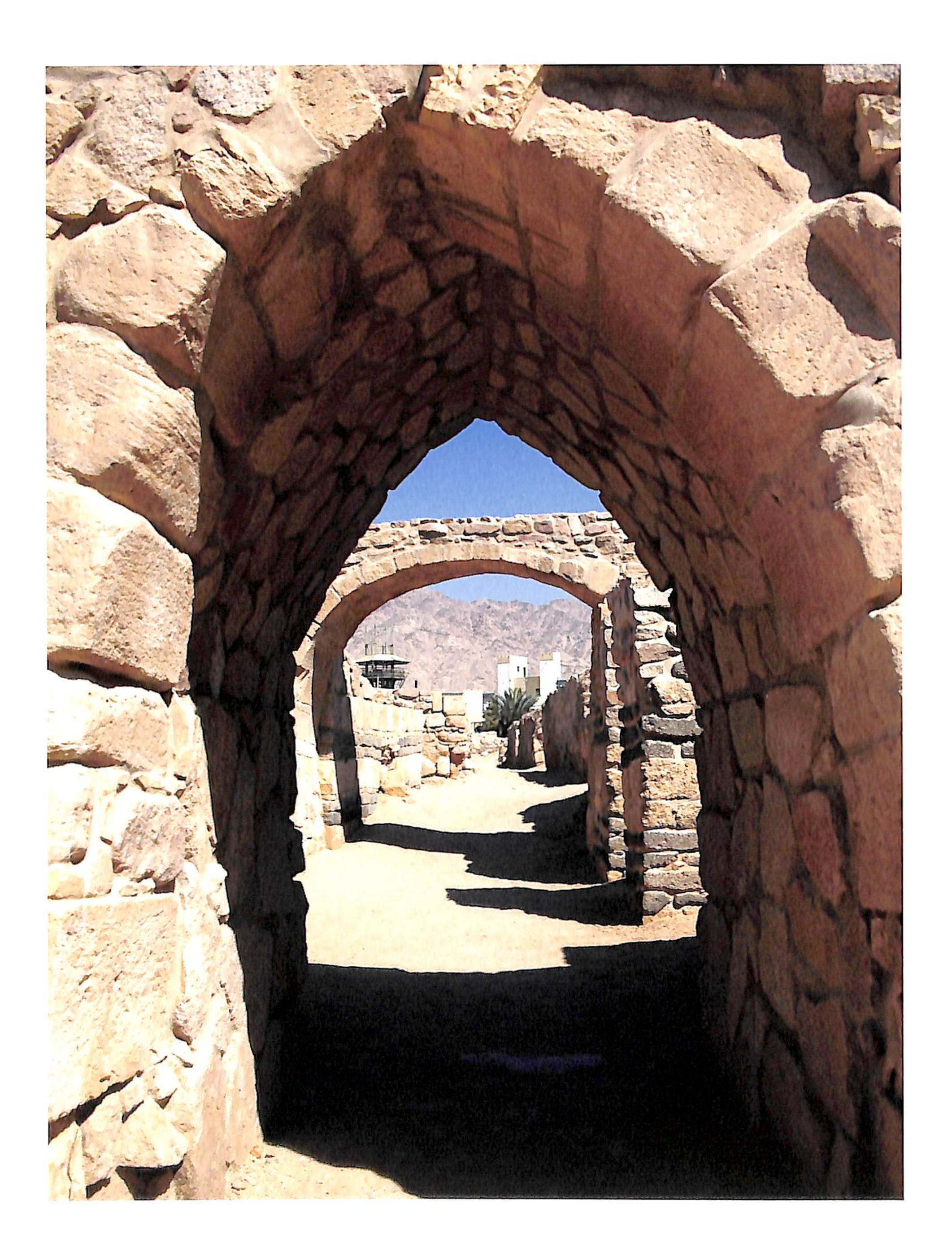
عثماني (القرن الـ 12 هـ/الـ 18 م)
متحف الآثار القديمة الشرق أوسطية والمتوسطية
ستوكهولم، السويد



وبوصفه خليفةً، برهن أيضًا على أنه كان قائدًا ناجحًا جدّا. بعض القبائل العربية كانت قد ارتدَّت عن ولائها للإسلام بعد وفاة النبي، غير أن أبا بكر تمكّن من فرض السلطة على هذه القبائل (حروب الردَّة) مانعًا بذلك التفكك المبكر للدولة الإسلامية.

يُضاف إلى ذلك، أن قوات المسلمين بدأت، خلال عهده الذي دام عامين، تتوغل في المناطق السورية التابعة للإمبراطورية البيزنطية، والمناطق العراقية التابعة للإمبراطورية الساسانية. وقبيل وفاته في عام 12 هـ/634 م، قام أبو بكر بتسمية عمر بن الخطاب، وهو صحابي آخر للنبي، ليخلفه؛ وجميع قادة المسلمين في المدينة وافقوا على تسمية عمر بالإجماع.

عُرف عمر الذي أثبت أنه كان حاكماً استثنائي الكفاءة، بوَرَعه، وبساطته، وبعدله. وخلال حكمه الذي دام عشر سنوات، تواصلت عملية التوسع الإسلامي خارج الجزيرة. بدأ فتح إيران، ومع استيلاء القوات الإسلامية المتقدمة على كل من سورية، ومصر، أُصيبت الإمبراطورية البيزنطية بضعفٍ شديد.



مدينة أيلة الإسلامية
بوابة المدينة المفضية إلى السوق والجناح المركزي.

إسلامي، سابق للأمويين
(القرن الـ 1 هـ/منتصف القرن الـ 7 م)
العقبة، الأردن



قرآن
قيل إن عثمان كان عاكفاً على تلاوة القرآن عند اغتياله في عام 35 هـ/ 656 م.

متحف قصر توب قابي (جناح الخرقة والأمانات المقدسة)
استانبول، تركيا



أثر قدم محمد على حجر سماقي أخضر متحف قصر توب قابي (جناح الخرقة والأمانات المقدسة)

استانبول، تركيا

يُضاف إلى ذلك، أن عُمَرَ أرسى قواعد نظام إداري فعَّال، مكَّن المسلمين العرب من حكم مجتمعات عالية التطور، باتت خاضعة لحكمهم. وبموجب هذا النظام فإن المسيحيين، اليهود، والمجوس، في كنف هذه المجتمعات، مُنحوا قدرًا ذا شأن من الحرية في إدارة شؤونهم الخاصة، ولكن شَرُطَ أن يسددوا جزية سنوية لبيت المال.

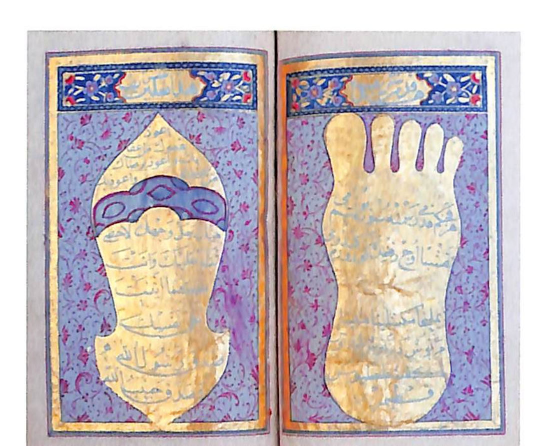
وفي الحقيقة، فإن انتقال السلطة من البيزنطيين والساسانيين قد كان، عمومًا، انتقالاً ميسَّرًا.

اغتيل عمر في عام 24 هـ/644 م، وقام مجلس لقادة الأمة (شورى) بانتخاب صحابي وصهر للنبي، هو عثمان بن عفان، خليفةً.

خلال أعوام حكمه الاثني عشر، زالت الإمبراطورية الساسانية من الوجود، وتواصلت الفتوحات الإسلامية في المناطق البيزنطية بقوة.

عُرف عثمان بالدماثة والوَرَع، غير أنه لم يكن قادرًا على صيانة وحدة النخبة العربية المسلمة. بعضُهم اتهمه بمحاباة أقربائه، وما لبثت التوتّرات التي نشأت حول حكمه أن أفضت إلى قتله في عام 35 هـ/656 م. وتمثل إنجازه الرئيسي بتدوين النص المحقق للقرآن (مصحف عثمان)، الذي تمَّ أيضًا توزيع نسخ منه على مختلف أمصار الدولة الإسلامية.

بُويع علي بن أبي طالب لخلافة عثمان. كان علي هذا مسلمًا ورعًا متمتعًا بقدر كبير من الاحترام، إضافةً إلى كونه ابن عم النبي وصهره. ولأنه كذلك، كانت أقلية مسلمة باتت تُعرف باسم الشيعة (شيعة علي) قد فضَّلَتْه على غيره، لخلافة النبي مباشرة. غير أن توتّرات بين صفوف النخبة العربية الإسلامية، شبيهة بنظيرتها أيام عثمان، تواصلت خلال فترة حكمه، من البداية إلى النهاية.



كتاب الصلوات

صور آثار قدم وصندل النبي

عثماني (القرن الـ 12 هـ/الـ 18 م)
متحف الآثار القديمة المتوسطية والشرق أوسطية
ستوكهولم، السويد

انتقده منافسوه السياسيون على عدم معاقبة المسؤولين عن مقتل عثمان، مع مبادرة بعضهم إلى تحدي خلافته. جاء التحدي الأكثر جديةً، والأخطر، لعلي من معاوية بن أبي سفيان، والي الشام، وأحد أبناء العائلة الأموية، وهي عائلة مكية غنية كان عثمان منتميًا إليها.

رفض معاوية الاعتراف بسلطة علي. وفي عام 37 هـ/657 م، اشتبك الطرفان في معركة صفين، على الفرات، انتهت دون حسم. ولم يتوقف الصراع إلا باغتيال علي في عام 41 هـ/661 م بيد أَحَد الخوارج، الذين هم طائفة إسلامية دينية طُهْرية، وشديدة الكفاحية، عارضت كُلًّا من علي ومعاوية.

قَبِلَ الحسنُ، ابن علي الأكبر، بتسميته خليفة دون حماسة، كما جرى إعلان معاوية، هو الآخر، خليفة. توصل الأخير إلى اتفاق مع الحسن على التخلي طوعاً عن لقب الخليفة، فأُعلن معاوية خليفة أوحد، في احتفال أقيم في عام 41 هـ/661 م بالقدس.

وقع اختيار معاوية على دمشق عاصمة له (كان علي قد نقل عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة إلى الكوفة في جنوب العراق). وكانت النتيجة انبثاق الدولة الأموية.

يرى المسلمون عهود حكم الخلفاء الراشدين الأربعة: أبي بكر، عمر، عثمان، وعلي، على أنها عصر الإسلام الذهبي. جميعًا كانوا من صحابة النبي، واشتهروا بالورع. كذلك كانوا قد اختيروا لمواقعهم من قبل قادة المجتمع المسلم. أما معاوية فلم يبادر، بالمقابل، إلى اعتناق الإسلام إلا بعد فتح مكة (الطلقاء) في عام 8 هـ/630 م، ولم يلبث أن اختزل نظام الانتخاب الذي ترسخ في ظل الخلفاء الراشدين، ذلك النظام الذي اتسم ببعض النزاعات الديمقراطية، إلى نظام قائم على الوراثة.

باتت الدولة الإسلامية الواسعة، ومعها الأمة المسلمة، متوفِّرةً، في ظل حكم الخلفاء الراشدين، على نظام إداري جديد؛ نظام نجح في إخضاع جملة تفاعلات الدولة الإسلامية الاجتماعية، الثقافية، والفنية، الهائلة مع عدد كبير من الموروثات الحضارية المختلفة، لرعاية واحدة.



سيف النبي محمد
المقبض مرصع بالياقوت والفيروز المثبتين على الذهب

متحف قصر توب قابي
(جناح الخرقة والأمانات المقدسة)
استانبول، تركيا

الأمويون: العاصمة الأولى دمشق

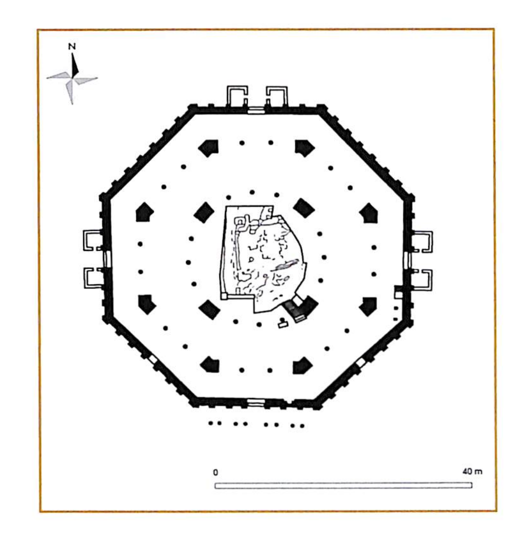
غازي بيشه



مشهد استحمام
فسيفساء في قصيّر عمرة

أموي (أوائل القرن الـ 2هـ/ الربع الثاني من الـ 8 م)
الأزرق، الأردن

الأمويون: العاصمة الأولى دمشق



مخطط قبة الصخرة
أموي (72 هـ/691 م)
القدس

دامت الخلافة الراشدة القائمة على الانتخاب نحو ثلاثين سنة، من تاريخ وفاة النبي محمد وولاية أبي بكر الصديق، في عام 11 هـ/632 م، إلى مقتل الإمام علي بن أبي طالب، ومبايعة معاوية بن أبي سفيان، خليفة بلا منازع، سنة 41 هـ/661 م.

غير أن معاوية، المنتمي إلى أحد فروع قُريش (قبيلة النبي محمد في مكة)، كان قبل ذلك واليًا على سورية منذ عشرين سنة، دون انقطاع، متوفرًا بالتالي على فرصة بناء قاعدة نفوذه في الإقليم.

يُروى أن معاوية بادر، لدى قيام الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب (دام حكمه من 13 إلى 23 هـ/من 634 إلى 644 م) بزيارته في سورية، إلى استقباله على رأس موكب مُحاطاً بالحرّاس؛ وهذا مما لم يعجب الخليفة المتقشِّف، الذي وبَّخ معاوية على تصرُّفه مثل إمبراطور الساسانيين كسرى. تمثَّل ردُّ معاوية بأن للعدو البيزنطي جواسيس في سورية، ومن المهم أن يبدوَ الحاكمُ العربي شبيهًا بالإمبراطور البيزنطي.

كان الوضع لدى تولّي معاوية، مثقلاً بعدد كبير من المصاعب؛ كانت إدارة الكيان السياسي الناشئ، مثلاً، في فوضى، إضافةً إلى أن مسألة الخلافة لم تكن قد حُلَّت بعد. وللتغلب على هذه الصعوبات اتخذ معاوية عددًا غير قليل من الخطوات:

قام أولاً بنقل مقر الحكم إلى سورية، جاعلاً دمشق العاصمة. أما خطوته الثانية فكانت موجَّهة نحو حل مسألة الخلافة الحادة؛ وعلى هذا الصعيد سمّى ابنه يزيدَ وليًا للعهد، وأقنع أعيان العرب بالموافقة على قراره. وبهذا فإن معاوية أطلق سيرورة صارت الخلافة بموجبها وراثية، محصورة في أسرة واحدة. وفيما بعد، سيتهمه المؤرخون وكُتّاب السيرة بقلب الخلافة من شورى إلى ملكية.

وتضيف المصادر أن معاوية كان يمشي وبيده رمح، ويجلس على سرير (عرش)، فيما الناس عند قدميه. غير أن هذه التقارير قد تكون منطوية على مفارقات تاريخية، فهذه العناصر تعود إلى فترات لاحقة، رغم أنها ابتكارات أموية.

ثمة روايات أخرى، تشير إلى أن حكم معاوية كان سمحًا، بعيدًا عن الرسميات، وخاليًا من تعقيدات الفترة الأموية اللاحقة.

جرى تكريس العقد الذي أعقب وفاة معاوية في عام 60 هـ/680 م، على إلحاق الهزيمة بمدَّعي الحق بالخلافة، ومحاربة النزعات الانفصالية في العديد من الأقاليم، مثل العراق والحجاز.

قبة الصخرة

أموي (72 هـ/691 م)

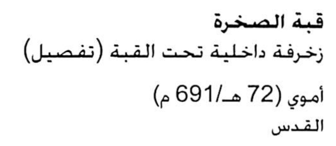
القدس



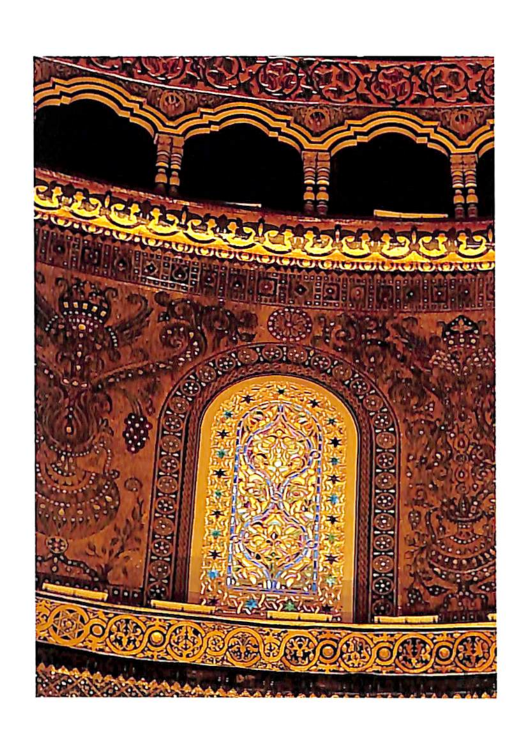
في سورية نفسها، نشب صراع مكشوف بين أنصار بني أمية من القبائل اليمانية (الجنوبية) من جهة، وخصوم بني أمية من القبائل القيسية (الشمالية) من الجهة المقابلة، ما لبث أن انتهى بانتصار مؤيدي الأمويين. وقد بويع العجوز مروان بن الحكم (دام حكمه من عام 64 إلى 65 هـ/684 إلى 685 م)، وهو من فرع آخر من البيت الأموي، خليفة، مع سيطرة فعلية على سورية ومصر. وقبل موته نجح في ترتيب خلافة ابنه عبد الملك بن مروان (الذي دام حكمه من عام 65 إلى 86 هـ/685 إلى 705 م).

وفي السنوات الأولى من حكمه، بقي عبد الملك مشغولاً باستعادة النظام، وتسوية أمور الدولة. هاتان المهمتان أُنجزتا بقدرٍ كبير من النجاح، إلى درجة أنه يُعد، بجدارة، المؤسس الثاني للعهد الأموي.

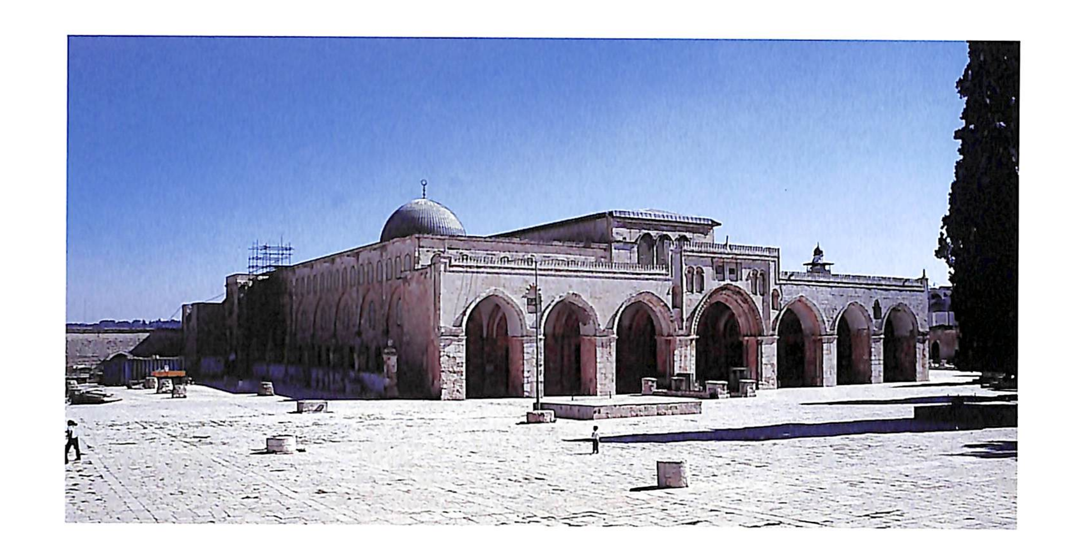
وبعد أن بات الأمويون أكثر رسوخًا، يبدو أن انطلاقة مفاجئة للموهبة والإبداع قد تبعت؛ انطلاقة انعكست على إنشاء الآبدة الإسلامية الرئيسية الأولى في القدس: قبة الصخرة الجليلة.



قبة الصخرة
زخرفة داخلية تحت القبة (تفصيل)
أموي (72 هـ/691 م)
القدس



قبة الصخرة
مشهد داخلي
أموي (72 هـ/691 م)
القدس



المسجد الأقصى

أموي (65–96 هـ/685–715 م)؛ تجديدات مختلفة لاحقة
القدس

الجامع الأموي

أموي (87–96 هـ/706–715 م)
دمشق، سورية

وهو بناء ثُماني، مسقوف بقبة، تعود أصولها الرسمية إلى المباني التذكارية للحقبة البيزنطية، مثل كنيسة القيامة، في القدس.

كذلك بادر عبد الملك إلى اعتماد سياسة مَرْكَزية إدارية وسياسية، تتوَّجَتْ بالإصلاح النقدي التاريخي، الذي تميز بسك قطع نقدية لا تحمل إلا الكتابات المنقوشة، لتحل محل الإصدارات المقلِّدة لنظيرتها الساسانية، التي بقيت متداولة إلى ذلك التاريخ، في خطوة جاءت متجاوِبة مع اقتصاد سوق متوسع، ومواكِبة لعملية تعريب لغة الإدارة، حيث حلَّت العربية محل اليونانية والبهلوية لغة بلاد فارس الساسانية.

والبرنامج المعماري، الذي بدأه عبد الملك، استُؤنف وجرى التوسُّع فيه، من قبل ابنه وخَلَفه الوليد (الذي حكم من عام 86 إلى 95 هـ/705 إلى 715 م)، والذي أمر ببناء المساجد الكبرى في دمشق (المسجد الأموي)، القدس (المسجد الأقصى) والمدينة (المسجد النبوي الشريف)؛ وقد اكتسب المسجد شكله الأكثر تميزًا، والذي ظل سائدًا على امتداد ما لا يقل عن أربعة قرون، أثناء خلافة الوليد.

ونمط المسجد هذا، الذي يصح أن يطلق عليه اسم «المسجد ذو الرواق»، متميز بدعائمه، التي هي إما أعمدة منفردة، وإما مندمجة. ومساجد هذا النمط، واضحة المرونة، وقابلة للتوسيع في أي اتجاه، عن طريق مضاعفة الركائز ببساطة.



دينار
إحدى أولى القطع النقدية الذهبية، ذات النقوش المخطوطة، المبينة للإيمان بالعقيدة الإسلامية.

أموي (77 هـ/796–797 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة

لوحة فسيفسائية في خربة المفجِّر
أنموذج لانتعاش الفن الكلاسيكي

أموي (القرن الـ 1 هـ/النصف الأول من القرن الـ 8 م)
أريحا، السلطة الفلسطينية

لدى مناقشة السمات الطاغية للخلفاء الأمويين. يحدثنا المؤرخ العربي الثعالبي (توفي في عام 429 هـ/1038 م) عن أن الوليد كان مولعًا بالبناء، بإعادة بناء شبكات الري والمشروعات الأخرى، وبحيازة الأراضي والأطيان. فخلال حكمه كان الناس يتحدثون عن فنون البناء، يحضون الآخرين على إرساء الأسس، ويحرصون على مراكمة الأطيان والممتلكات.

إن فسيفساء كل من قبة الصخرة ومسجد دمشق الكبير، هو أبكر الزخارف الأموية الباقية يخلو من الكائنات الحية، ويعتمد بدلاً من ذلك على موضوعات غير تصويرية، مستمدة من المدرستين البيزنطية والساسانية.

في مسجد دمشق الكبير نرى أن الجدران مزينة بلوحات فسيفساء زجاجية تصوِّر النهر، الأشجار، وموضوعات معمارية. والمؤرخ المقدسي، المومأ إليه أعلاه، يفيدنا بأن قبة الصخرة ومسجد دمشق الكبير، شُيِّدا لمنافسة الكنائس البيزنطية الفاخرة، في سورية وفلسطين، ولتقليد الأنموذج الإمبراطوري الملكي.

كذلك واصل عهد الوليد توسيع الرقعة الجغرافية للدولة الأموية، الممتدة من شبه الجزيرة الآيبيرية في الغرب، إلى ما وراء النهر في الشرق. وفي العقود اللاحقة دأب الأمويون على دَرْز البوادي، في كل من سورية والأردن، بعدد من القصور السكنية الفاخرة، التي كانت

أرضية فسيفسائية

أموي (القرن الـ 2 هـ/ القرن الـ 8 م)
القسطل، الأردن



دواخلها مزينة بالفسيفساء الملون، اللوحات الجصية، والإكساءات الجصية أو الرخامية المنقوشة.

هذه المباني، لا تلك الموجودة في المراكز الحضرية الرئيسية، هي التي تعطينا فكرة عن الفن الإسلامي، في مراحل نشوئه. عموماً تتألف هذه القصور من سلسلة عناصر منفصلة مشتملة على مسجد صغير، حمام، قاعة اجتماع، ويكون بعضها مصحوباً بمرافق مائية كالصهاريج، السدود، والقنوات. فقصر الحير الشرقي، وقصر الحير الغربي، وكلاهما في سورية، وخربة المفجِّر، القريبة من أريحا، تكشف عما يشير إلى وجود شبكات ري واسعة النطاق، أقيمت لخدمة الأراضي الزراعية المحيطة بالقصر، بما يجعلها قابلة للمقارنة مع المنتجعات الريفية الرومانية.

وفي تزيين هذه القصور، يتّضح أن حسّ الجمال والذوق اللذين كانا يتحكمان بإبداعه، أقل وضوحًا من حيث اتصافهما بالصفة الإسلامية، من نظيريهما بالنسبة إلى المسجد. قد نفاجأ



لوحة جصية في قُصيِّر عمرة

تجسيد الحساب (في اليسار)، والتاريخ (اليمين)

أموي (بعد 92 هـ/710 م)

الزرقاء، الأردن

لوحة جصية في قُصيِّر عمرة

أموي (بعد 92 هـ/710 م)

الأزرق، الأردن

حين نرى امرأة عارية، أو شبه عارية، بل ومشاهد ماجنة أحياناً، في الزخارف.

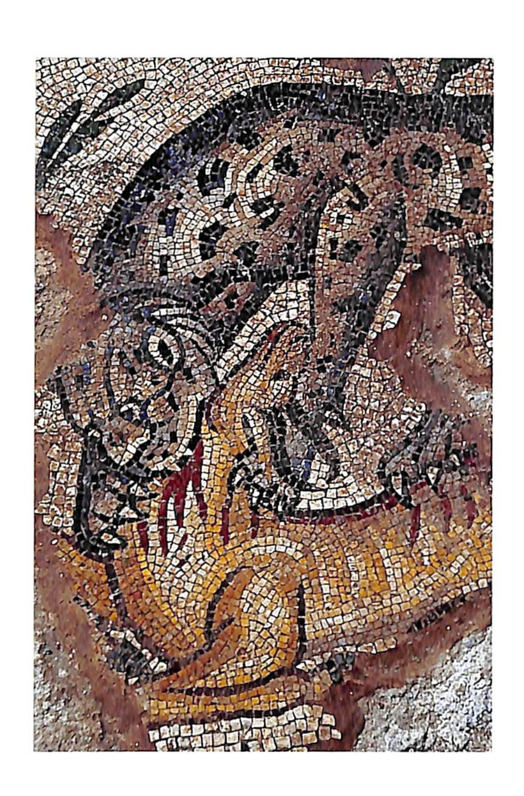
تتوفر في قُصيِّر عمرة بالأردن، وخربة المفجّر القريبة من أريحا، وقصر الحير الغربي في سورية، مثلاً، على لوحات تصويرية موسَّعة تعرض عازفي موسيقى، راقصين ومقدمات هدايا؛ موضوعات باتت جزءًا لا يتجزأ من التمثيل التصويري لحياة البلاط الأموي، وتقدم لمحة عن مزاج الأرستقراطية الحاكمة، ونزوعها إلى الانغماس في متع الحياة.

وبرأي الأستاذ الجامعي أولغ غرابار، فإن موضوعات الراقصات، والقنص، والموسيقى، لم تكن مجرد تصوير لنشاطات لاهية، بل كانت، بالأحرى، انعكاسات لأسباب متعة البلاط الملكي ولهوه في ما كان يعرف باسم "مجلس اللهو"، حيث كان يجري التعبير عن حياة الأمير عبر ربطه بالقنص، الولائم والرقص التي كانت جميعًا أسباب لهو سائدة في البلاط الساساني، والتي ساهمت في تمجيد الأمير والإشادة بعظمته.

أرضية فسيفسائية (تفصيل)

أموي (قبل 744 م)

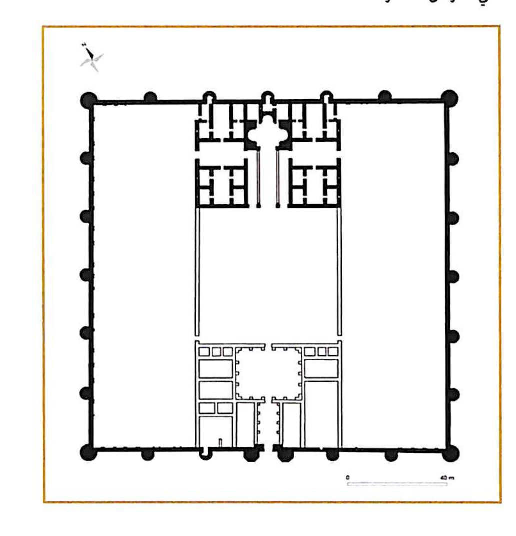
القسطل، الأردن



قلعة عمان

مخطط المجمَّع الأموي

أموي (نحو 110 هـ/728 م)



مخطط قصر المشتى

أموي (ربما نحو 125–126 هـ/743–744 م)
عمان، الأردن

واجهة قصر المشتى

أموي (ربما نحو 125–126 هـ/743–744 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية
برلين، ألمانيا

تمخض الفتح العربي الإسلامي السريع للجهات الشمالية الشرقية بين عقدي ثلاثينيات وأربعينيات القرن السابع الميلادي عن إزالة الحواجز بين إيران وما بين النهرين من ناحية، وعالم البحر الأبيض المتوسط من ناحيةٍ ثانية، متيحًا فرصة الجمع بين موارد حضارتين متباينتين (الإغريقية الرومانية، والساسانية)، وراعيًا نوعًا حساسًا ودقيقًا من التعايش بين الشرق والغرب.

غير أن قيام الدولة الأموية في سورية (وهي مقاطعة كانت قد تهَلْيَنَت تمامًا وكليًا خلال الألفية السابقة متخذة من دمشق عاصمة لها) كان يعني أن التأثيرات الفنية الطاغية كانت كلاسيكية أو بعبارة أدق، كلاسيكية معدلة، تحت تأثير تقاليد مشرقية إقليمية، حيث جرى إضفاء مسحة جديدة ومعنى جديد على الموضوعات الكلاسيكية.

ثمة، مثلاً، لوحات قوس قزح الفسيفسائية، الأسد الذي يلتهم ظبيًا في خربة المفجّر والأسد المنقض لتوه على ظهر ثور، والساعي إلى بطحه أرضًا، جنبًا إلى جنب مع الفهد العاكف على تمزيق عنق غزال في القسطل، تشير إلى انبثاق الأسلوب الكلاسيكي الذي يمكن أيضًا أن نراه في رسوم قُصيِّر عمرة الأردني، المرحة والمبهرجة.

ثمة ديونيسوس، أفروديت، نايك، غريس، وحشد من الملائكة مع تجسيدات للتاريخ، وللشعر، وللبحث (بعناوين يونانية) مرسومة على جدران المبنى. أما المشاهد الحسية داخل سلسلة من القناطر الدائرية أو الجملونية (المدببة) على مجمر برونزي عثر عليه في الفدين الأردني فقد تكون طبعة شرقية لموضوعات ديونيسية.

إن موضوع القنطرة يرمز إلى الهندسة المعمارية للفردوس، بدليل ظهوره على النواويس (التوابيت الحجرية) والمعاظم (الأوعية التي تُحفظ فيها عظام الموتى). قد ترمز المشاهد الحسية على المجمر إلى الأمل لدى أهل التقوى في أن المشاركين في أسرار ديونيسوس

قد ينعمون بحياة أخرى لاحقة زاخرة بالفرح والحبور الأبديين؛ إنها رمزية مفعمة بالمعاني بالنسبة إلى أي مسلم وَرِع.

كذلك يظهر موضوع القناطر في كوة العرش في قاعة اجتماعات قُصيِّر عمرة، وعلى قاعدة صابون حجري كروية، عائدة إلى أحد المصابيح. أحيانًا تَعَرَّضَ الأنموذجُ الكلاسيكي لقدرٍ ملحوظ من التغير والتحول، وهذا واضح تمامًا في شوك الأقنثا على تاج العمود الكورنثي الذي ترك مكانه لأسلوب خيالي غريب قائم على نقوش كتابات عربية، كما يُرى على تاج عمود من المُوَقَّر.

بعد الحصار الأموي غير الناجح الأخير للقسطنطينية في عام 99 هـ/717 م، زاد الأمويون من تحويل أنظارهم نحو الشرق. وما لبث هذا التحويل أن أفضى إلى قدرٍ أكبر من التماهي مع إيران. تماهيًا انعكس على الفن، العمارة ومراسم البلاط قبل كل شيءٍ. وما تردد صداه في خطة وأنموذج قصر المشتى، ودار الإمارة الأموية، على قلعة عمان. والبناءان كلاهما يؤكدان المحور المركزي الشمالي الجنوبي مع بوابة في أحد الطرفين وقاعة اجتماعات بعدها حجرة العرش في الطرف الآخر.

في زخرفة قصور الإقامة الأموية، يتجلى تجاوز الموضوعات الشرقية والغربية؛ ثمة، مثلاً، في واجهة المشتى الشهيرة المتمتعة بنمنمة دقيقة في نحت السطوح الحجرية، تعرف مؤرخو الفن على تأثيرات إغريقية رومانية، وساسانية، وقبطية؛ وفي قصر الحير الغربي، ثمة تماثيل حكام جالسين على العرش مقلِّدة لنماذج بيزنطية وساسانية.

ومن لوحتين أرضيتين كبيرتين في القصر نفسه، واحدة مرسومة بأسلوب كلاسيكي خالص (إلهة الأرض الإغريقية: غايا)، في حين تتبع الثانية (مشهد صيد) الأنموذج الساساني.



قاعدة سراج من الحجر الصابوني

أموي (القرن الـ 2 هـ/ الـ 8 م)
متحف الآثار الأردني
عمان، الأردن

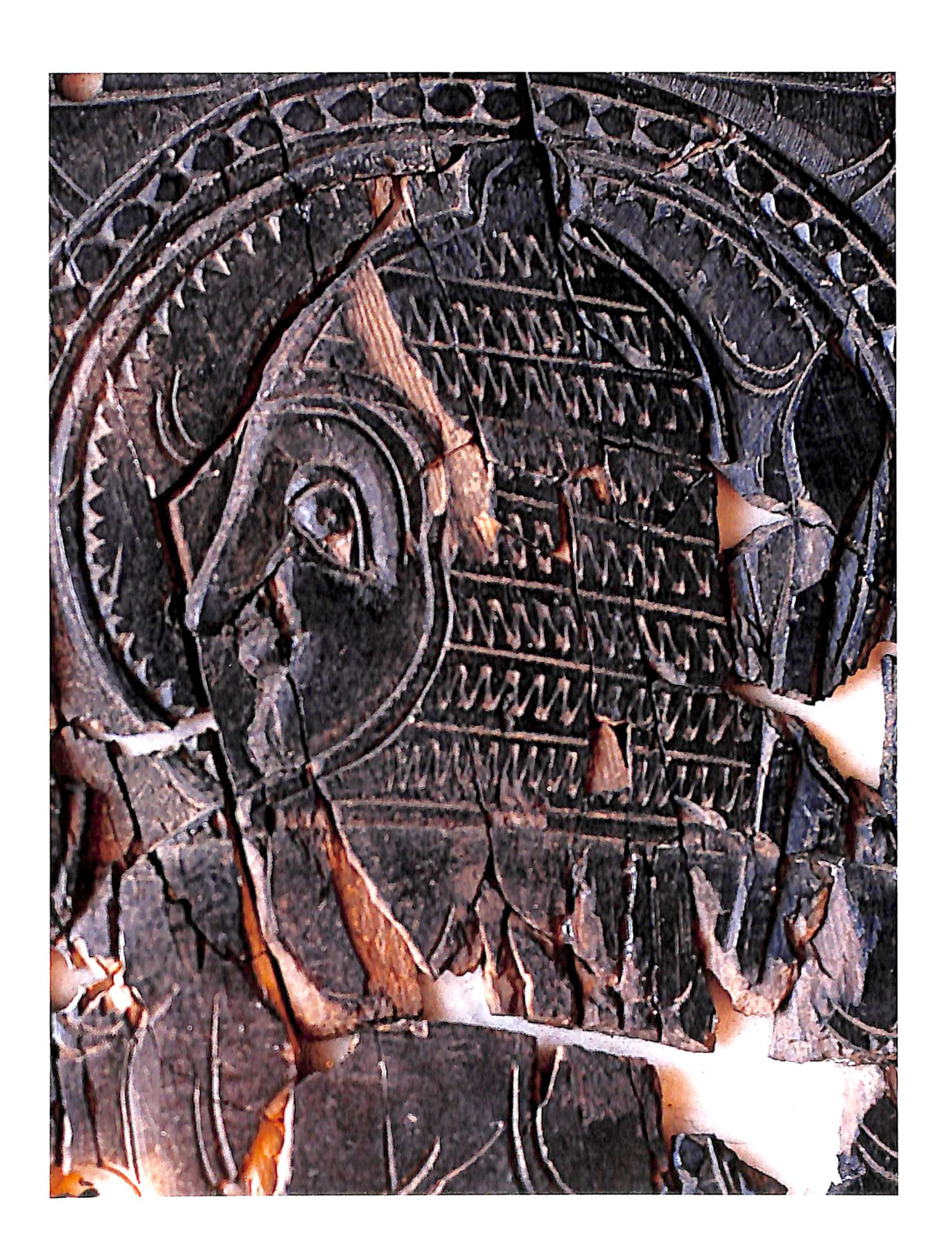
قصر المشتى
مشهد قاعة أشبه بالباسيليقا
مقابل غرفة العرش

أموي (ربما نحو 125–126 هـ/ 743–744 م)
عمان، الأردن

وفي خربة المفجّر تم تحري تأثيرات من آسيا الوسطى لرسم صور نساء شبه عاريات يحملن وردًا بإحدى اليدين. وتأثير مشابه يمكن تحريه في لوح عاجي من الحميمة الواقعة في جنوب الأردن حُفرت عليه صورة جندي يرتدي درعًا ويعتمر خوذة.

إن هذه الأمثلة القليلة تبين أن التقاليد الثقافية للبلاد المفتوحة وَفَّرَتْ جزءًا كبيرًا من الأساس الذي استند إليه فن الإمبراطورية العربية الإسلامية الجديدة. في مرحلة التشكل هذه لا يستطيع المرء أن يتحدث عن فن إسلامي كامل الأوصاف، لأن هذا الفن الانتقائي مختلف عن نظيره الذي تطور بعد 150 عامًا، حين بدأ الفن الإسلامي يبدي ولعًا بالتصاميم المجردة، واللانهائية، التي ما لبثت أن أصبحت سمة مميزة لأساليب لاحقة.

تشكل وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك (الذي حكم من عام 105 إلى 125 هـ/من 724 إلى 743 م) بداية مرحلة مضطربة انتهت بإطاحة الخلافة الأموية بأيدي الثوريين العباسيين في عام 132 هـ/750 م، وشهدت نقل مقر الحكم إلى العراق.

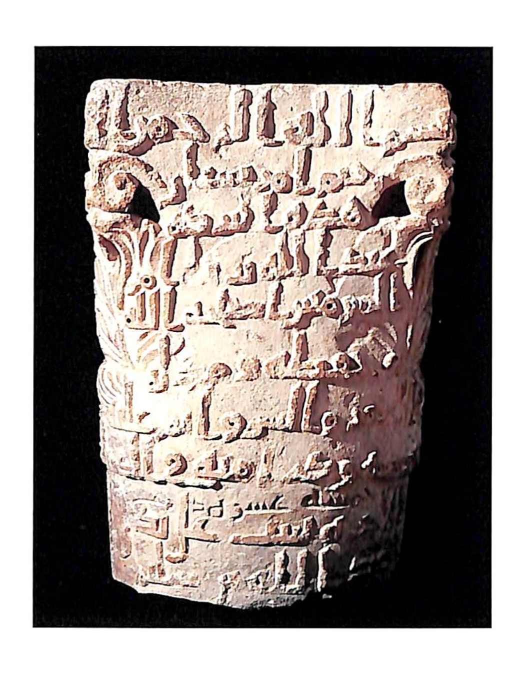


لوحة عاجية
صورة جندي عُثر عليها في الحميمة

أموي (النصف الأول من القرن الـ 2 هـ/ النصف الأول من القرن الـ 8 م)
متحف العقبة للآثار
العقبة، الأردن

شجرة نسب محمد والأمويين

- قريش
  - عبد مناف
    - هاشم
      - عبد المطلب
        - حمزة
        - العباس
        - عبدالله + آمنة
          - محمد
        - أبو لهب
        - أبو طالب
        - الحارث
    - عبد شمس
      - أمية
        - حرب
          - أبو سفيان
            - معاوية
        - أبو العاص
          - عفان
            - عثمان
          - الحكم
            - مروان



تاج عمود

من خزان ماء القصر الأموي في الموقّر
أموي (101–105 هـ/720–724 م)
متحف الآثار الأردني
عمان، الأردن



لوحة أرضية من قصر الحير الغربي

صياد بزي ساساني
أموي (109 هـ/727 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية

منقل
مناقل نحاسية كانت تدفئ غرفة الخليفة. غير أنها كانت تستخدم أيضاً مجامر للبخور في القصر.
أموي (القرن 2 هـ/ الـ 8 م)

متحف الآثار الأردني
عمان، الأردن

الأعلام:

كان **معاوية بن أبي سفيان** (الذي دام حكمه من عام 41 إلى 60 هـ/من 661 إلى 680 م) مؤسس الدولة الأموية. وقبل إعلانه خليفة، كان هذا واليًا على سورية على امتداد ما يقرب من العقدين. وهذه المعايشة الطويلة مكنته من بناء قاعدة نفوذه، ومن تحقيق الوحدة والتماسك بين أتباعه السوريين.
في الأيام الأخيرة من حياته كان معاوية قد نجح في انتزاع بيعة الولاء لنجله يزيد، خلفًا له، مما جعل الأجيال اللاحقة تراه الزعيم الذي أفسد الخلافة بتحويلها إلى ملكية.
ويعد معاوية حاكمًا حصيفًا، كان يحصل على ما يريده بالإقناع بدلاً من الإكراه. يُروى أنه قال ما معناه: لا أستخدم سيفي حين يكون سوطي كافيًا؛ ولا سوطي حين يكون لساني كافيًا، ولو كان بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت، لأرخيتها حين يشدون وشددتها حين يرخون.

اضطر **عبد الملك بن مروان** (وقد حكم من عام 65 إلى 86 هـ/من 685 إلى 705 م) الذي كانت سنواته السبع الأولى في الحكم صعبة بسبب تصاعد فعالية الحركات الانفصالية في كل من العراق والحجاز التي كان لابد من التغلب عليها. إضافةً إلى التصدي في الوقت نفسه للبيزنطيين الذين كانوا يثيرون مشاكل كثيرة على الثغور. غير أن عبد الملك أثبت أنه كان على مستوى المهمة، وما لبث أن نجح في استعادة وحدة العرب تحت قيادته.
وفي عام 72 هـ/691 م، بدأت عمليات بناء "قبة الصخرة" الفخمة في القدس بأمر منه. صارت اللغة العربية لغة الإدارة الرسمية بعد أن حلت محل اليونانية في سورية، القبطية في مصر، والبهلوية في العراق. كذلك ظهرت تغييرات في سك النقد الذي أصبح نقشيًا خالصًا حاملاً شعارات دينية إسلامية على الوجهين كليهما.

كان عهد **الوليد بن عبد الملك** (وقد دام حكمه من عام 86 إلى 96 هـ/من 705 إلى 715 م) أوجَ القوة الأموية : إذ شهد فتوحات إقليمية ذات شأن في الشرق (في بلاد ما وراء النهر بآسيا الوسطى) والغرب (في شبه الجزيرة الآيبيرية).
استحدث الوليد نظامًا للإغاثة والإحسان العام. وقد عكف كل من الوليد وأبيه عبد الملك على السعي إلى اجتراح نمط إمبراطوري قادر على منافسة الكنائس البيزنطية في سورية. باشر بناء المسجد الكبير في دمشق، أنجز إنشاء المسجد الأقصى في القدس، وقام بتجديد مسجد النبي في المدينة وتوسيعه.

يبدو أن **يزيد الثاني بن عبد الملك** (الذي حكم من عام 101 إلى 105 هـ/من 720 إلى 724 م). بدَّد الجزء الأكبر من فترة حكمه في أطيانه ومزارعه في المُوَقَّر والقسطل الأردنيين.
تُصوِّره المصادر المعاصرة عَبْدًا تافهًا لأهوائه، ولاسيما لمطربتيه المفضلتين حبّابة وسلّامة.
يُعزى إليه (وإن كان الأمر مثيرًا للشك) فَضْلُ إصدار مرسوم رافض للأوثان، قضى بتحطيم جميع صور البشر والحيوانات، في طول أراضي الخلافة وعرضها، في خطوة شكلت سابقة لمسلك الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث في العراق، الغارق في الفوضى. قام يزيد الثاني بإعادة بناء قوات سورية، وكان ميالاً إلى التعويل على قبائل مضر في مواجهة اليمانيين، محدثًا نوعًا من الخلل في التوازن الدقيق بين التكتلات القبلية المختلفة.

شكل عهد **هشام بن عبد الملك** (105–125 هـ/ 723–743 م) فترة الازدهار الأخيرة في الخلافة الأموية. وتصفه المراجع إداريًا صارمًا: تحلى بالعقل والاقتصاد. أوعز بترجمة عدد من الكتب التاريخية والسياسية الساسانية.
اشتُهر هشام بحيازة وتطوير ممتلكات زراعية هائلة كان يجني منها ثروات طائلة. سلسلة من القصور تعود بتواريخها إلى عهده منها: قصر الحير الشرقي، وقصر الحير الغربي، في سورية، لكل منهما شبكة ري متطورة، وخربة المفجِّر القريبة من أريحا، وقصر الرصافة شمال شرق سورية.

الزخرفة بالرسوم

ينس كروغر، ومحمد نجار



صحن

مدجَّن (أواخر القرن الـ 9ــ أوائل القرن الـ 10 هـ/ أواخر القرن الـ 15ــ أوائل القرن الـ 16 م)
مجموعة بورل، متاحف غلاسكو
غلاسكو، المملكة المتحدة

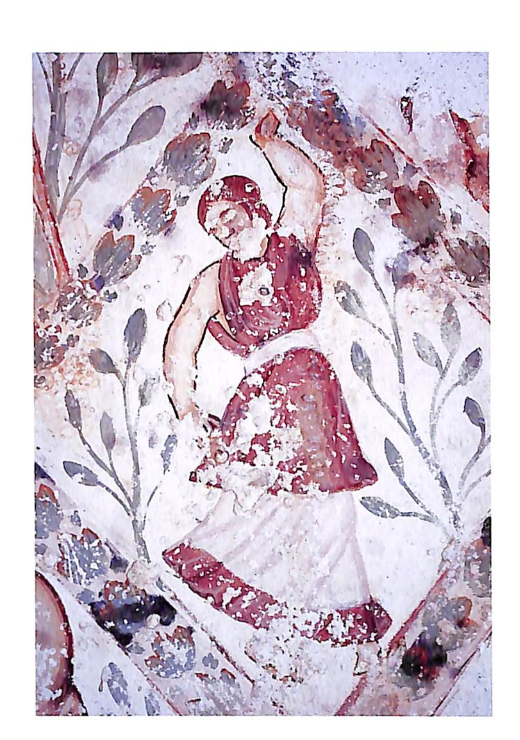
الزخرفة بالرسوم

يبقى الفن الإسلامي ظاهرة ثقافية أبدعها مسلمون، وغير مسلمين، لسائر الجماعات المختلفة في العالم الإسلامي. ولعدم كونه فنّا دينيّا مثل الفن المسيحي، فإن أيَّ مهارةِ إنتاجِ أيقونات لم تتطور؛ فمنذ البداية دأب الفن الإسلامي على تطوير مفرداته بوصفه فنّا دنيويّا ملبيًا لحاجات كلٍّ من البلاط والناس العاديين على حدٍّ سواء. وقد ازدهر فن التصوير، ولقي قبولاً، بوصفه شكلاً من أشكال التعبير الفني في القاموسين كليهما.

لعل أحد التصورات الخاطئة بالنسبة إلى الفن الإسلامي، هو الزعم بأن تمثيل الشكل الإنساني لم يكن مسموحًا به، بالاستناد إلى أفعال النبي محمد وأقواله. غير أن الخيال التصويري لا يحظره القرآن بصرامة، مع أن تصوير الله، وعبادة الصور والأوثان، كانا ممنوعين منذ البدايات الأولى. وهكذا فإن الخيال التصويري كان مسموحاً به، في حدود معينة.

ثمة مواقف أكثر تشدداً من الصورة ما لبثت أن تطورت في تاريخ لاحق، ولكنها لم تُفْرَض كاملة في أي من الأوقات. قامت السلالة الحاكمة الأولى في التاريخ الإسلامي، وهي العائلة الأموية (41–132 هـ/661–750 م) بوضع المعيار. فالإصلاح النقدي على يد الخليفة عبد الملك بن مروان، عام 77 هـ/696–697 م، أفضى إلى استبدال الصور المستخدمة من قبْلُ رموزاً للدولة بالنقوش. ومنذ ذلك التاريخ دأبت أكثرية السلالات الحاكمة التالية على الاكتفاء، من حيث المبدأ، بإصدار قطع نقدية منقوشة.

ومنذ الفترة الأموية وصاعدًا لم تظهر الصور الرمزية في هندسة المباني الدينية مثل الجوامع، الأضرحة، والمدارس الدينية. غير أن الوضع في هندسة القصور كان مختلفًا



لوحة جصية في قصيِّر عمرة

أموي (الثلث الأول من القرن الـ 2 هـ/النصف الأول من القرن الـ 8 م)
الزرقاء، الأردن



علبة من العاج (تفصيل)

أمويو الأندلس
(390–410 هـ/1000–1020 م)
متحف فكتوريا وآلبرت
لندن، المملكة المتحدة

تمامًا، لأن الخلفاء الأمويين كانوا يرون أنفسهم وَرَثَة الحكام البيزنطيين والساسانيين جميعًا. والحضارتان، كلتاهما، كانتا قد صاغتا أيقونات وَجَدتْ عناصر منها مكانًا لها في الأيقنة الأموية للسلطة الحاكمة. وهذا التطور تمخض عن تنوع لافت للتصوير الرمزي في الفن الأموي بما فيه التماثيل في الحلبة.

كميات كبيرة من الأيقونات الملكية تبنتها، أو عَدَّلَتْها، السلالات الحاكمة اللاحقة، لأن أعدادًا كبيرة من الرسومات الآدمية كانت ترمز إلى سلطة الإمارة، وتضفي المشروعية على الملك. أما الرسومات الآدمية لحياة البلاط، كالصيد، أو صور حاكم على العرش، فكانت تؤكد موقع من هم في السلطة، مع مكانة الحاشية الأميرية، وربما بدت أيضًا في حالات معينة، كما لو كانت مشاهد من الحياة الخالدة في الفردوس.

يبدو النقش حاملاً اسم أحد حكام مصر فاطمي (القرن الـ 5–6 هـ/ الـ 11–12 م) متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية برلين، ألمانيا



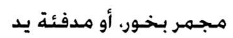
وهذا الموقف الذي طوّره الأمويون. استمر خلال الفترة العباسية (132ــ750 هـ/656ــ1258 م). وقد طور أمويو الأندلس رصيدًا غنيًا من الصور الرمزية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين/العاشر والحادي عشر الميلاديين، التي ظلت متجلية خصوصًا على الآثار المصنوعة من العاج.

وخلال الفترة الفاطمية (297ــ567 هـ/909ــ1171 م) في مصر، شهد التصوير الرمزي مزيدًا من التطور، ولعب دورًا مهمًا في فن البلاط، الذي قام على رسم مسلسلات تصور صيادين، عازفي موسيقى وراقصين. هذه الموضوعات ظلت مستخدمة من قبل السلالات اللاحقة. وخلال الفترة الفاطمية ظهر العديد من صور مشاهد الحياة اليومية للمرة الأولى في الفن الإسلامي.

صحن
صورة امرأة جالسة، تعزف على آلة وترية

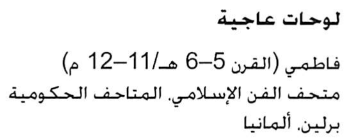
فاطمي (القرن الـ 5 هـ/ الـ 11 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر





مجمر بخور، أو مدفئة يد

أيوبي (الربع الثالث من القرن الـ 7 هـ/ الربع الثالث من القرن الـ 13 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية برلين، ألمانيا



لوحات عاجية

فاطمي (القرن 5–6 هـ/11–12 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية برلين، ألمانيا





خلال الفترة الأيوبية (من 564 إلى آخر القرن السابع الهجري/من 1169 إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي)، وهي فترة شهدت تواصلاً وثيقًا مع أوروبا، ثمة تطور جديد في تصوير الفرسان، إضافةً إلى المسيحيين، بات واضحًا. وهذا التوجُّه استمر خلال الفترة المملوكية التي لعبت فيها مشاهد المعارك، أو مشاهد اللهو، وشَغْل أوقات الفراغ، مثل الألعاب التي كانت الأرستقراطية تستمتع بها، دورًا مهمًا. غير أن تغييرًا ما لبث أن طرأ مع بداية القرن الثامن الهجري/القرن الرابع عشر الميلادي، على ما كان مقبولاً في الفن المملوكي، مع صيرورة الموقف من الصور الرمزية أكثر تشددًا.

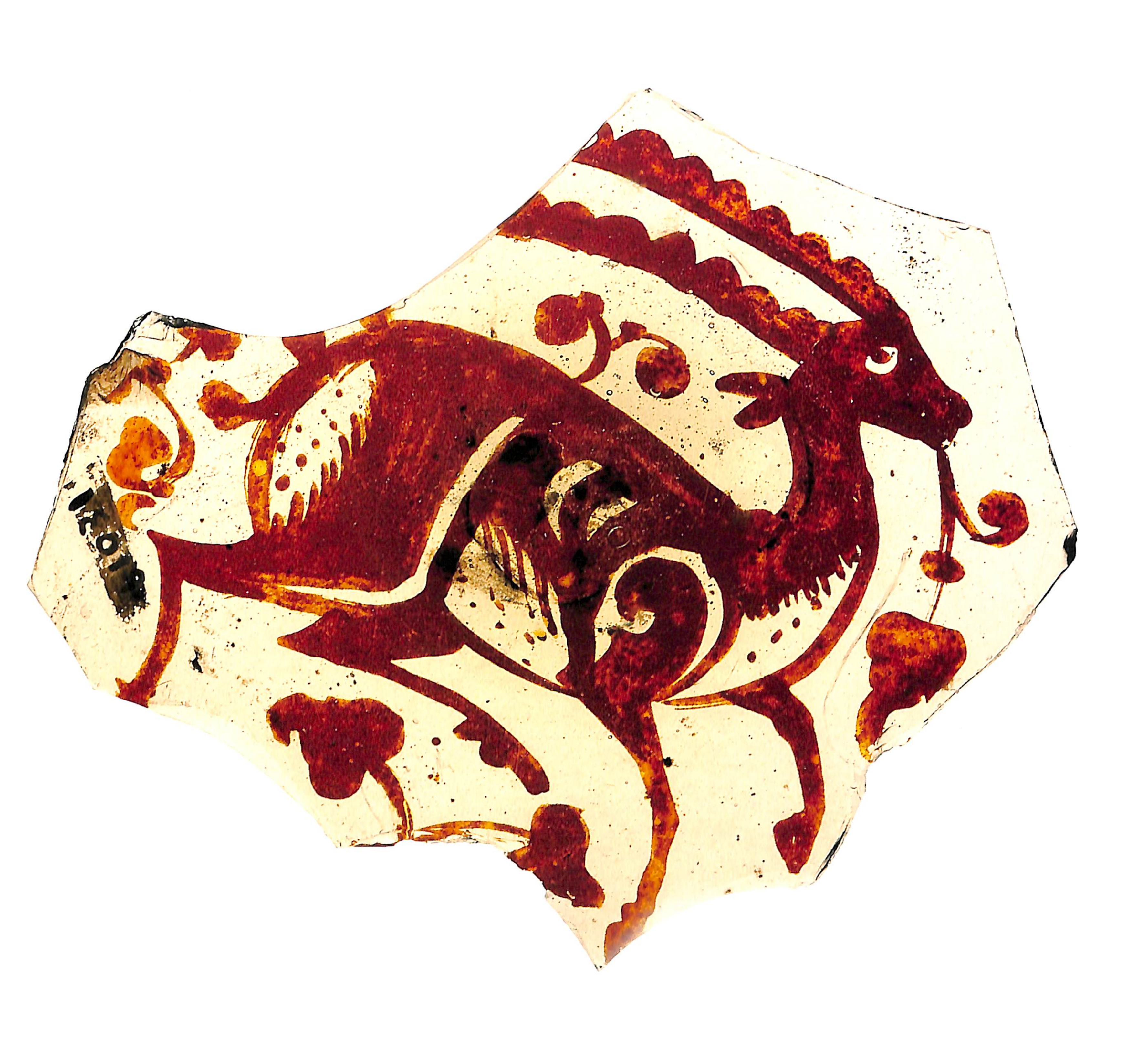
تمثال امرأة نصف عارية، في قصر المشتى

أموي (النصف الأول من القرن الـ 2 هـ/ النصف الأول من القرن الـ 8 م)
متحف الآثار الأردني
عمان، الأردن



تمثال عازف عود نافر

سلاجقة الروم (سلاجقة الأناضول) (أوائل القرن الـ 7 هـ/ أوائل القرن الـ 12 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية
برلين، ألمانيا





«مزهرية تافيرا»
ربما تمثل الخطيفة الشعائرية قبل حفل الزفاف.
الحيوانات ترمز إلى السعد.

مرابطي (أواخر القرن الـ 5 أو أوائل القرن الـ 6 هـ/ أواخر القرن الـ 11 أو أوائل القرن الـ 12 م)
متحف البلدية
تافيرا، البرتغال

قام سلاجقة الأناضول (468-708 هـ/1075-1308 م) بتطوير فن رسم أيقونات لصور رمزية شملت بشرًا وحيوانات على حدٍّ سواء بالارتباط مع ملكوت الأرض؛ وبعض هذه الموضوعات كانت مدينة لأسلافها في آسيا الوسطى.

إن الاحتكاك الوثيق مع كلٍّ من أوروبا في الغرب، وإيران في الشرق، كان يعني قيام العثمانيين (699-1340 هـ/1299-1922 م) بتطوير أشكال جديدة من الفن التصويري. فصور الحكام في مشاهد الأنساب، كما في اللوحات الزيتية ذات الطراز الأوروبي تخدم مشروعية الملوك. كذلك قام فنانون عثمانيون برسم حياة النبي ورحلته الليلية المعجزة إلى القدس (الإسراء)، حاجبين وجه محمد، لقداسته المبجَّلة.

العباسيون: الدولة الإسلامية الأولى

نورة الكيلاني ومنيرة شابوتو-رمادي



رباط سوسة
منظر من الفناء

الأغالبة (206 هـ/821 م)
سوسة، تونس

العباسيون: الدولة الإسلامية الأولى

بناة المدن في الشرق الأوسط
نورة الكيلاني

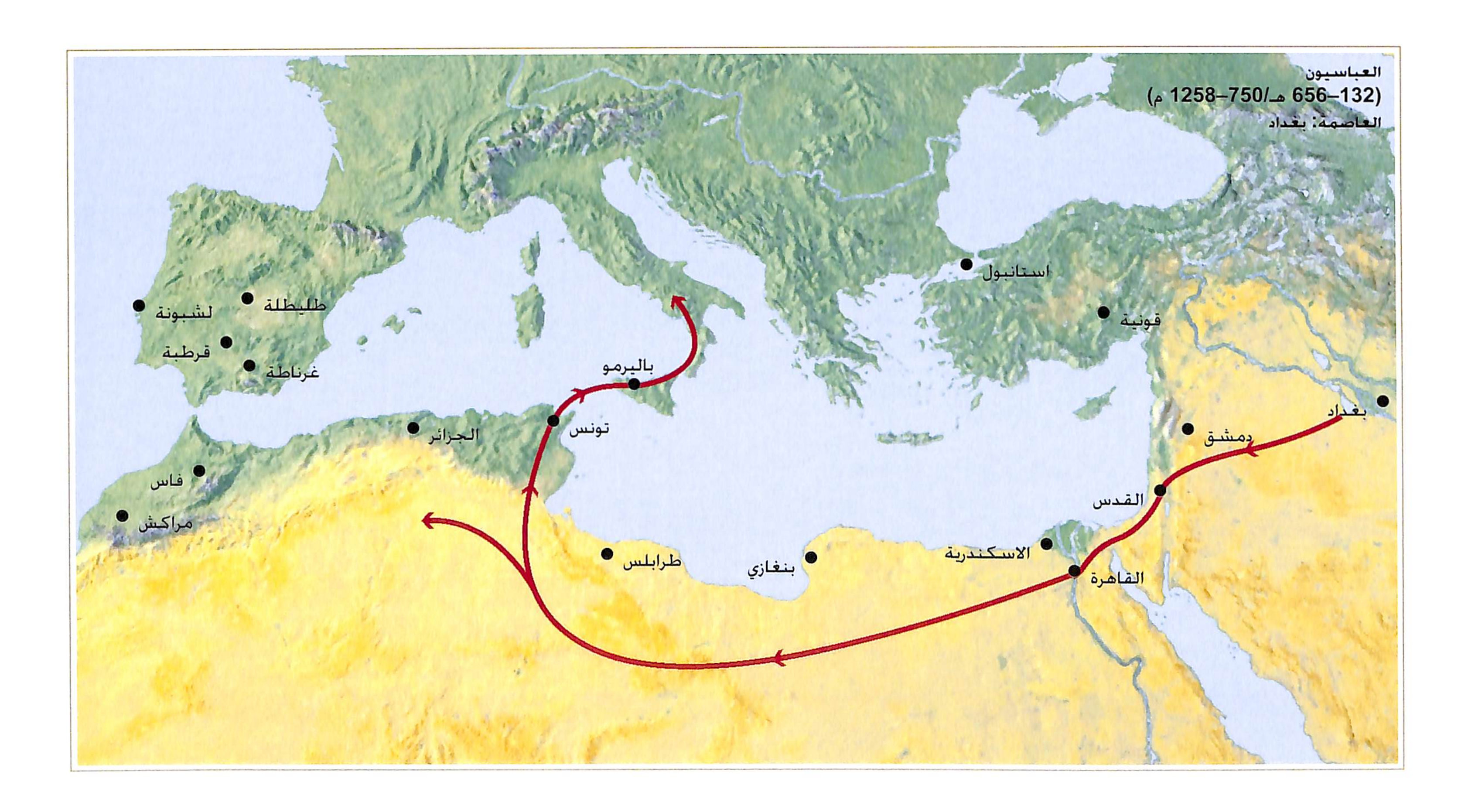
إلى الجنوب من البحر الميت مباشرة، في قريةٍ صغيرة تُعرف باسم الحميمة، بدأت جماعة من فروع بني هاشم المنتسبين إلى قبيلة قريش المكية (قبيلة النبي محمد) بالتخطيط لاستعادة السلطة من الأسرة الحاكمة الأموية المغتصبة.

كان العباسيون، وهم جزء من بني هاشم، مرشحين لأن يصبحوا الأطول عمرًا بين الأسر الحاكمة العربية الإسلامية، حاكمين من عام 132 إلى 656 هـ/من 750 إلى 1258 م. ولقد بلغت الحضارة الإسلامية أوجها في الحقبة العباسية، منفتحة ثقافيًا، ومتفوقة في العلوم، الفنون والآداب.

خلال السنوات الأخيرة من العهد الأموي (41–132 هـ/661–750 م) واجهت منطقة الشرق الأوسط قدرًا كبيرًا من الضغوط السياسية. فقد كان ثمة صراعات مدمرة، عميقة الجذور، موروثة

الصفحة المقابلة
موقع القصر في الحميمة

عباسي، خلال الخلافة الأموية (النصف الأول من القرن الـ 2 هـ/ النصف الأول من القرن الـ 8 م)
الحميمة، الأردن





مما قبل الإسلام، بين القبائل اليمانية (الجنوبية) والقبائل القيسية (الشمالية) المعادية للأمويين. صراعات انّجر إليها، على مضض، خلفاء بني أمية والإدارة الأموية. وهناك كان الصراع الطائفي مع شيعة الإمام علي، الذين كانوا يطالبون باستعادة الخلافة وجعلها بأيدي ورثتها الشرعيين: ذرية علي. وإضافة إلى هذا كله، كان الأمويون دائبين على الغوص أكثر في نمط حياة التحلل والانحطاط، مع تكرر الصراعات الداخلية، ودسائس البلاط حول الخلافة.

بدءاً بالعقد الثاني من القرن الثاني الهجري/العقد الرابع من القرن الثامن الميلادي، قاد العباسيون مع أتباعهم، وبدعم من الطائفة الشيعية، نضالاً فعالاً ضد الأمويين. استولوا على السلطة في عام 132 هـ/750 م، فورثوا إمبراطورية مترامية الأطراف، ممتدة من شمال أفريقية (تونس)، إلى آسيا الوسطى. وهذه الثورة أفضت إلى انتقال السلطة والنفوذ من مركز السلطة والثقافة التقليدي في الشرق الأوسط، منذ العصور الهلينية: سورية، إلى العراق والأقاليم الشرقية من العالم الإسلامي.

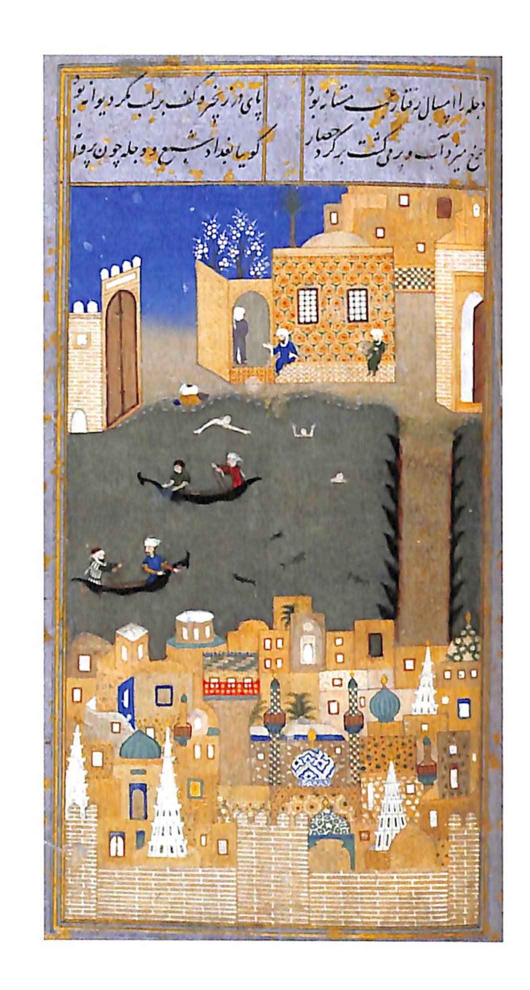
أدى التنوع العرقي للدولة العباسية، مشفوعًا بالتحركات السكانية الكبيرة عبرها، إلى اختزال أهمية الانتماء العربي عرقيًا. صار حرس الخليفة وجيوشه من أقوام القفقاس، خراسان، وآسيا الوسطى. صار غير العرب يتولُّون أمور الإدارة، ويشغلون مناصب سياسية خطيرة: وزراء، ولاة، وحكامًا. وهذا مما شجَّع في انتشار الإسلام.

كان أبو العباس السفاح (وقد حكم من عام 132 إلى 136 هـ/من 749 إلى 753 م)، العباسي الأول الذي بويع خليفةً في مسجد الكوفة الكبير بالعراق. ومنذ ذلك التاريخ استعيدت الخلافة إلى نوع من الجمع بين القيادة الدينية والإدارة السياسية.

طغت على سنوات حكم السفاح الأربع، عملية استئصال المعارضة للعباسيين. كان السفاح متشددًا مع الشيعة الساخطين، الذين كانوا يتطلعون إلى إعادة الخلافة لسلالة علي. على الرغم من أن العباسيين أيضًا كانوا يرون أنفسهم جديرين بالخلافة. وبعد فترة قصيرة في الكوفة، التمس السفاح عاصمة جديدة بعيدًا عن الشيعة. انتقل شمالاً إلى الأنبار على الفرات في عام 134 هـ/752 م، وبنى مدينة جديدة بجانب البلدة القديمة.

ما لبث أبو جعفر المنصور (الذي حكم من عام 136 إلى 158 هـ/من 754 إلى 775 م) أن خلف أخاه السفاح، ليصبح أحد أدهى الخلفاء العباسيين. عكف المنصور على تنظيم أجهزة الدولة الإدارية، تشدد مع حركات التمرُّد الداخلية، واهتم بمحاربة الروم (الإمبراطورية البيزنطية).

ومثل أخيه، أسس المنصور عددًا من المدن الجديدة. فبعد بناء "الهاشمية" على الفرات في



رسم منمنم
مشهد نهر دجلة ببغداد قبل التدمير المغولي
(نحو 873 هـ/1468 م)
المكتبة البريطانية
لندن، المملكة المتحدة
بانتظار الاستكمال..



هارون الرشيد يستقبل وفداً يمثل شارلمان

بريشة الرسام الألماني جوليوس كوكرت (1827–1918)، زيتي على الخام 1864.
مؤسسة مكسيميليانيوم
ميونيخ، ألمانيا

عام 145 هـ/762 م، بدأ يبحث عن موقع آخر لبناء عاصمة أكثر ملاءمة لإدارة الإمبراطورية. وقع اختياره على موقع "بغداد" الاستراتيجي؛ بلدة قديمة على دجلة وسط العراق، وأمر بإنشاء مدينة دائرية على الضفة الغربية.

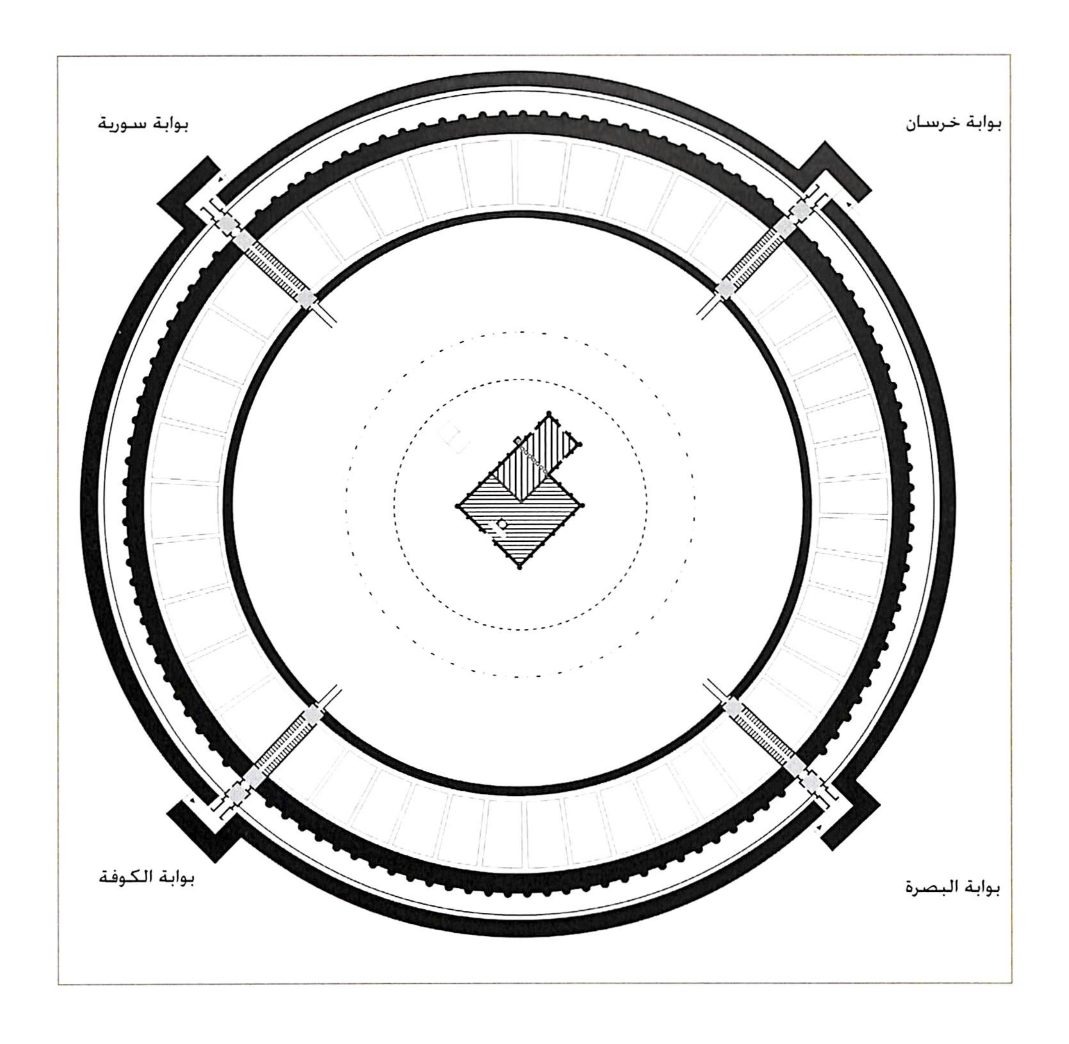
ومدينة بغداد الدائرية التي أُنجزت في عام 148 هـ/766 م، وسُميت «مدينة السلام» كلفت نحو 500 مليون من الدراهم الفضية، وانشغل بها مئة ألف شخص من المهندسين، البنائين، والحرفيين، المستقدمين من سائر أرجاء العالم الإسلامي.

وبما يشبه مدينة «بيجينغ» المحظورة، من حيث الوظيفة، قام في الوسط قصر الخليفة ومسجده، مُحاطيْن ببيوت سكنية لأبناء الخليفة، بمكاتب حكومية، وبثكنات للجيش، مطوقة جميعًا بأسوار محصنة.

تاج عمود من الرقة

عباسي (القرن الـ 3 هـ/9 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية
برلين، ألمانيا





مخطط مدينة بغداد الدائرية، في عهد الخليفة المنصور (137–159 هـ/754–775 م)

قصر البوابة الذهبية أو قصر القبة الخضراء

جامع المنصور

أسوار بلدة الرافقة (الرقة)

عباسي (155–158 هـ/771–775 م)؛ إضافات (180–192 هـ/796–809 م) تجديد في القرن الـ 5 هـ/11 م.

الرقة، سورية

بوحي من المدينة الدائرية، قرر المنصور في عام 152–153 هـ/770–771 م، بناء مدينة ملكية قريبة من بلدة الرقة القديمة على الفرات في سورية. تميز المكان بموقع استراتيجي مناسب على الطريق بين أقاليم الإمبراطورية الشرقية والغربية، من ناحية، وقريبًا من الجبهة مع الروم، من ناحية ثانية.

وحين تزايدت الاضطرابات الاجتماعية والسياسية في العراق، خلال عهد الخليفة هارون الرشيد بين عامي 180 و193 هـ/796 و809 م، حلت الرقة (الرافقة) محل العاصمة بغداد، كمعسكر في مواجهة البيزنطيين.

في أثناء حكم المعتصم (الذي دام من 217 إلى 227 هـ/من 833 إلى 842 م) أُضيف إلى الرقة حيٌّ كاملٌ، مستوحى من "سامراء"، المدينة الجديدة التي أُنشئت في عام 221 هـ/ 836 م بالعراق، كذلك برعاية المعتصم.

حين تولى المعتصم الخلافة، كانت الخصومة بين الجيش الملكي التركي، وأهالي بغداد، قد بلغت نقطة حرجة، ما دفع المعتصم إلى البحث عن عاصمة جديدة، وبناء مدينة سامراء شمالاً على الضفة الغربية لدجلة.

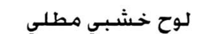
وكما قيل، فإن سامراء أصبحت العاصمة، ومقر إقامة سبعة خلفاء عباسيين لاحقين، بين عامي 221 و270 هـ/836 و884 م. وبرعاية الخليفة المتوكل (الذي حكم من عام 232 إلى 246 هـ/من 847 إلى 861 م)، الذي اشتهر بحبِّ العمارة، تمَّ بناء مسجد سامراء الكبير، بمئذنته اللولبية.



قطعة من زبدية خزفية

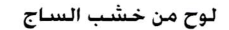
عباسي (136–158 هـ/754–775 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية





لوح خشبي مطلي

عباسي (218–227 هـ/833–842 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية



لوح من خشب الساج

عباسي (القرن الـ 3 هـ/9 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة



إن هندسة عمارة سامراء، وأساليب زخرفتها، أثّرت كثيرًا في الفن الإسلامي اللاحق. فثمة مدن مثل: الرقة، والفسطاط، والقاهرة، مدينة لها بأشياء كثيرة، على صعيد الاستلهام المعماري.

امتد العصر الذهبي للعباسيين بين عامي 158 و232 هـ/775 و847 م، وشهد عهود سبعة خلفاء بعد المنصور. نجح هارون الرشيد الشهير (الذي دام من عام 170 إلى 193 هـ/من 786 إلى 809 م) في تحقيق السلام مع بيزنطة، وتبادل السفراء مع إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، شارلمان.

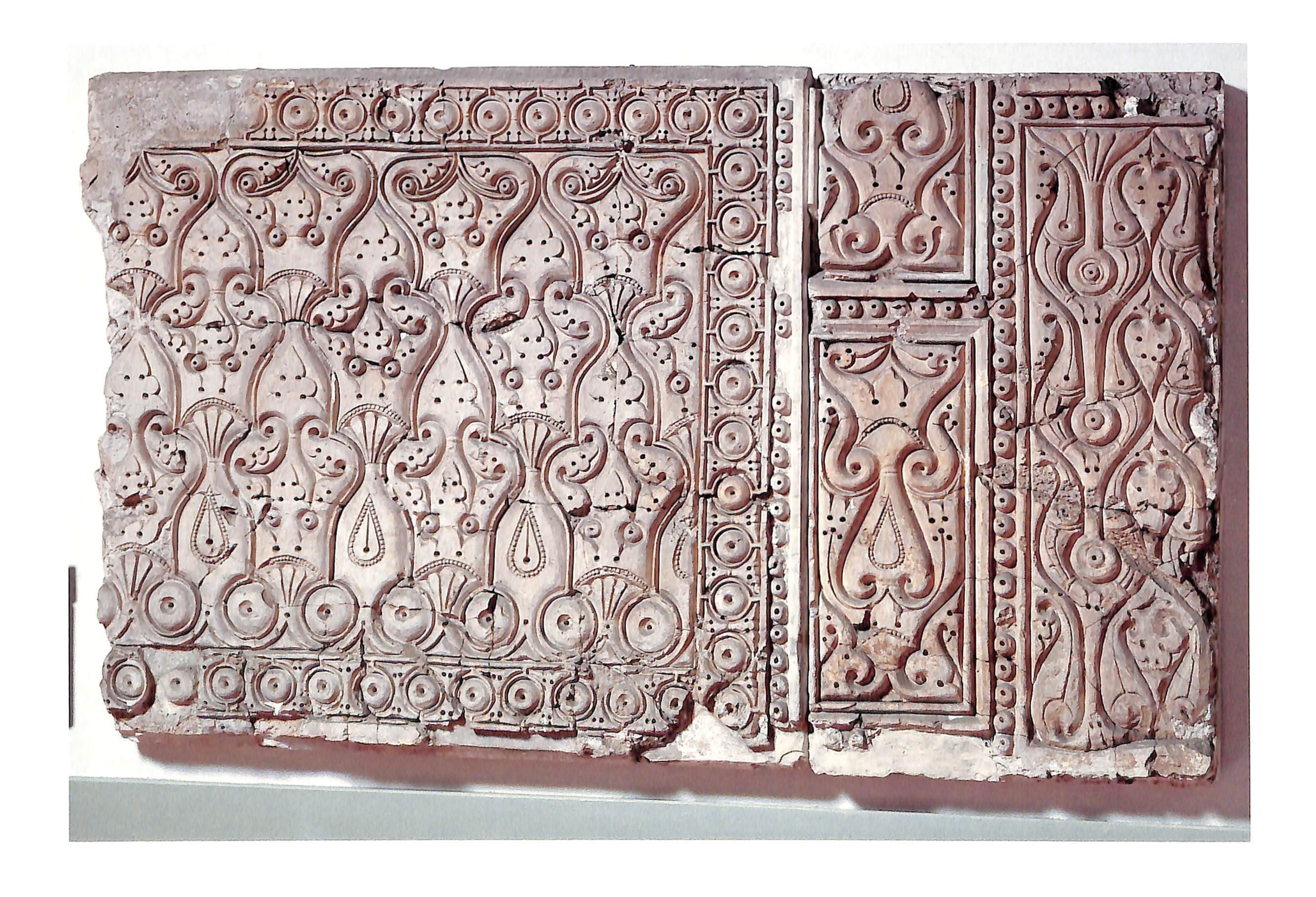
أما عهد المأمون (الذي دام من عام 197 إلى217 هـ/من 813 إلى 833 م) فقد شهد فترة رعاية مكثفة للعلوم والفنون. أسس المأمون «بيت الحكمة» في بغداد، البيت الذي كان يضم مكتبة، ومركزاً للترجمة، ومدرسة.

ومن خلال ذلك، تمَّ ترجمة نصوص علمية وفلسفية رئيسية، من اليونان، وفارس، والهند، ما اجتذب علماء وفلاسفة مرموقين إلى بغداد، بمن فيهم الكندي الذي كتب عن فلسفة الموسيقى، والفارابي الذي أسّس للمنطق بوصفه علمًا حقيقيًا، والخوارزمي الذي أحدث ثورة في الرياضيات بالجبر. يُضاف إلى ذلك أن مؤلفات الرازي وابن سينا الطبية أرست قواعد التعليم الطبي العلمي.

جاء تدهور النفوذ العباسي متدرِّجًا. بدأ التدهور خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، حين أقدمت أجزاء مختلفة من الدولة على الاستقلال. بادر الفاطميون (وقد دامت دولتهم من عام 292 إلى 566 هـ/من 909 إلى 1171 م) إلى إقامة خلافة منافسة في مصر

زخارف جصّية داخلية
من أحد بيوت سامراء،

عباسي (القرن الـ 3 هـ/9 م)
متحف الفن الإسلامي
برلين، ألمانيا



وسورية؛ في حين أقدم عام 447 هـ/1055 م، قائد عسكري عباسي تركي يُدعى «طغرل بيك» على التحكم الشخصي بالبلاط العباسي في بغداد.

ومع أن عددًا من المحاولات غير الناجحة قد بُذلت لاستعادة ولاية العباسيين، فإن الضربة القاضية جاءت مع نجاح المغول في اجتياح واستباحة بغداد في عام 656 هـ/1258 م، مطيحين بالأسرة الحاكمة العباسية.

سياسة العباسيين في البحر المتوسط

منيرة شابوتو-رمادي

سورية ومصر: درعا المملكة

هذان البلدان كانا يحميان العراق العباسي جزئيًا، على الأقل من الهجمات الآتية من البحر. وقد لعبا دورًا هامًا في استراتيجيات الخلفاء، لدرجة أن هؤلاء غالبًا ما كانوا يعهدون بحكم هذين البلدين لأقاربهم، أو لورثتهم المحتملين، وفي آخر الأمر «لخدم مخلصين» من الأتراك.

في سورية، حافظ العبّاسيون على التقسيمات الإدارية للبلاد إلى ولايات، واهتموا بشكل خاص بدعم الحدود مع بيزنطة. تحولت دمشق التي كانت العاصمة القديمة للأمويين، إلى

مسجد المتوكل الكبير
المئذنة اللولبية.
عباسي (243–238 هـ/848–852 م)
سامراء، العراق



مجرد عاصمة ولاية في زمنهم. ولقد واجه الحكّام العبّاسيون معارضة مبطنة، لكنها دائمة. عهدوا بحكم سورية ومصر إلى بني علي، أعمام الخلفاء، ثم لحكّام من الفرس، ثم من الأتراك اعتبارًا من حكم الواثق (228–233 هـ/842–847 م). وقد أقام المأمون لفترة في دمشق، وشيّد لنفسه قصرًا بالقرب من المدينة. كما أن المتوكل فكّر بأن ينقل عاصمته إلى دمشق، لكن ثورة من حرسه الأتراك، أجبرته على أن يعود إلى سامراء.

في الشرق، استمرت بيزنطة في دورها كسلطة تثير الخشية في البر وفي البحر، ولذلك اضطر الخليفة لدعم حدود سورية. ولقد أسس المنصور في عام 155 هـ/771–772 م، بالقرب من الرقة على نهر الفرات مدينة «الرافقة» لكي يدعم الحدود. وقد أقام فيها هارون الرشيد العظيم ما بين عامي 179–192 هـ/796 و808 م. وكان الخلفاء يجتازون سورية بانتظام، كي يذهبوا إلى الحج، أو ليقوموا بالحرب ضد بيزنطة.

أما مصر فكانت منطقة غنية للغاية، تغذي المملكة بواردات ضريبية هامة. وقد تتابع الحكام فيها بإيقاع سريع، لأن الخلفاء كانوا يخافون من تزايد قوّتهم. وهكذا تم تعيين 42 حاكمًا



كأس من الرقة
تُنسب إلى الخليفة المعتصم.

عباسي (218–227 هـ/33–841 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية



قدح زجاجي
يقول النقش: «اشرب واطرب»

عباسي (القرن الـ 3 هـ/9 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية

لوح خشبي
طولوني (القرن الـ 3 هـ/9 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر



الصفحة المقابلة
زبدية ذات زخرفات شعاعية
أحد أقدم نماذج تقليد الخزف الصيني.

عباسي (النصف الثاني من القرن الـ 3 هـ/
النصف الثاني من القرن الـ 9 م)
المتحف الوطني للفنون الشرقية
روما، إيطاليا



ما بين عامي 133–194 هـ/750 و809 م. كذلك فإن بعض الثورات اندلعت في مصر، وكادت تمتد إلى حدٍّ أن تقطع طريق الحج.

اعتبارًا من حكم المعتصم، بدأ الضباط الأتراك يديرون شؤون البلاد، ومن بينهم «أفشين» ثم «كيدر». تناوب على مصر ما بين عامي 243–255 هـ/857 و868 م، أربعة حكام، قبل أن يُعهد بها إلى أحمد بن طولون، الذي أسس سلالة حاكمة، على مثال الأغالبة. وقد حكمت عائلته 38 سنة في مصر، وأعادت الهدوء إلى هذه البلاد. كذلك فإن أسرته (255–293 هـ/868–905 م)، ثم أسرة الأخشيديين التي تلتها (324–359 هـ/935 م–969 م)، استطاعتا السيطرة على سورية، وانتزاعها من العباسيين.

إفريقيا والغرب الإسلامي: ملجأ المناهضين للعباسيين

كانت هناك حركات انفصالية قد هزت أركان المقاطعات الواقعة في أطراف المملكة. وقد ضاعت الأندلس من المملكة، عندما وصل آخر الأمويين عبد الرحمن الداخل، الذي نجا بنفسه، إلى تلك المقاطعة، وأعلن فيها إمارة مستقلة في 139 هـ/756 م.

وفي المغرب الأوسط، قام أحد الخوارج، وهو عبد الرحمن بن رستم، بتأسيس إمارة في تاهرت في عام 144 هـ/761 م، صارت إمارة مستقلة «الدولة الرستمية» في عام 161 هـ/777 م. وإذا ما ذهبنا أبعد باتجاه الغرب، نجد أحد الهاربين الذين ينحدرون من سلالة الخليفة علي، عبر ابنه الحسن، وهو إدريس بن عبد الله، يؤسس أسرة «الأدارسة» الحاكمة، ويختار موقع «فاس» كعاصمة له.

كانت الصعوبات الأكثر إلحاحًا، وتحتاج إلى حلّ، تتعلق بإفريقيا. فأمام خطر الثورات أرسل العباسيون حاكم مصر إلى إفريقيا مع 40000 رجل، فاستطاع أن يمسك بزمام الأمور. بعده حاول الحكام المهلّبيون، بلا جدوى، أن يجدوا لهم مكانًا. وعندها، أرسل هارون الرشيد إلى إبراهيم بن أغلب (184–197 هـ/800–812 م)، وعهد له بالإمارة ليورثها لأبنائه. وكان عليه مقابل ذلك أن يدفع تعويضًا سنويًا قدره 40000 دينار للخزينة في بغداد. وقد أسس الأغالبة حكومة مستقلة، مرتبطة اسميًا ببغداد، لكنهم حافظوا على صلات اقتصادية وثقافية قوية معها. وقد غزوا صقلية في 212 هـ/827 م، فاحتلوا بذلك موقعًا محوريًا في مركز البحر المتوسط.

طبق معالج ببريق معدني

أغالبي (أواخر القرن الـ 3– أوائل القرن الـ 4 هـ/9–10 م)
متحف الفن الإسلامي، الرّقادة
القيروان، تونس





صفحة من القرآن

أغالبي (أواخر القرن الـ 2– أوائل القرن الـ 3 هـ/ أواخر القرن 9– أوائل القرن الـ 9 م)
متحف الفن الإسلامي، الرّقادة
القيروان، تونس

دينار
هذا الدينار الأغالبي يعكس مدى استقلال الأسرة الحاكمة الجديدة، التي بدأت تورد اسم الأمير الحاكم.

أغالبي (192 هـ/808 م)
متحف الفن الإسلامي، الرّقادة
القيروان، تونس



في عام 181 هـ/797 م، ثم في عام 192 هـ/807 م، قام شارلمان بإرسال سفراء إلى هارون الرشيد، في بغداد، الذي قَبِلَ أن يعترف بالإمبراطور كحامي للقدس وللمسيحيين، وأرسل له هدايا، من بينها ساعة وفيل. كان السفراء الفرنجة يمرون عبر القيروان، لأن اللاتينية كانت لغة الكلام فيها، وكان الرسل من الأغالبة يقومون بالترجمة. بعد ذلك، في عام 294 هـ/906 م، أرسل بيرت حاكم توسكانيا سفيرًا إلى الخليفة المكتفي (290–296 هـ/ 902–908 م)، وكان رسوله خادمًا سابقًا لزيادة الله الثالث (291–297 هـ/903–909 م).

بقيت إفريقيا في اهتمامات العباسيين، وثمة كتابة تحت قبة مسجد الزيتونة، في تونس، تبين أن ذلك القسم قد بُني في عام 249–052/468 م بناء على أمر الخليفة المستعين (248–252 هـ/ 862–866 م).

كانت أسرة الأغالبة أول من حكم إفريقيا. وقد سادت حتى 297 هـ/909 م، عندما تمَّ القضاء عليها من قبل عائلة منافسة للعباسيين، كانت تزعم أنها تنحدر من الخليفة علي، وقد أسست الخلافة الفاطمية الشيعية، التي ستقوم لاحقًا بغزو مصر، أيضًا.

مسجد أحمد بن طولون

طولوني، خلال الخلافة العباسية (265 هـ/ 879 م)
القاهرة، مصر



العلويون، وهم جزء هام في عائلة النبي محمد، خُدعوا بالدعاية العباسية. لكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى ثوراتهم، وقدموا سلسلة من الشهداء، ستلعب دورها في تاريخ الشيعة. لاحقهم العباسيون إلى أبعد أمكنة يمكن أن يصلوا إليها، وقتلوا منهم بقدر ما يستطيعون. وهكذا تمت ملاحقة عبيد الله من سورية إلى سجلماسة في المغرب الأقصى، حيث أوقف بناء على أمر من الخليفة المعتضد (حكم ما بين عامي 279–290 هـ/892–902 م). وقد أنقذه رسول الملك أبو عبد الله، الذي استطاع أن يدخل في الإسلام البربر من بني قطامة، في منطقة القبائل.

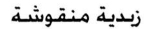
كانت نهاية النظام الأغلبي مؤلمة. فقد كان إبراهيم الثاني مجنونًا ودمويًا، كما أن زيادة الله الثالث هرب بدل أن يقاتل. ولم يستطع الإخشيديون أن يحافظوا على السلطة في مصر، وبالتالي سادت خلافة شيعية معادية في «مكان وسيط من البحر المتوسط» يجمع ما بين إفريقيا والمغرب الأوسط وصقلية (296هـ/909 م)، ومصر وسورية (358 هـ/969 م).

وهكذا أضاع العباسيون مقاطعاتهم المتوسطية. ولكن فيما يتجاوز السيطرة السياسية، التي لم



قطعة خشبية محفورة
أقدم منبر في العالم الإسلامي، عائد إلى مسجد القيروان الكبير

أغالبي (242–249 هـ/856–863 م)
متحف الفن الإسلامي، الرّقادة
القيروان، تونس





زبدية منقوشة
في الوسط أربعة أسطر من الكتابة الكوفية، بالبريق المعدني البني، لكلمة «الملك»، مكتوبة مرتين.

أغالبي (أواخر القرن الـ 3 هـ/ أواخر القرن الـ 9 م)
متحف الفن الإسلامي، الرّقادة
القيروان، تونس

الصفحة المقابلة
مسجد القيروان الكبير
مشهد للمحراب

أموي، عباسي (221 هـ/836 م)
القيروان، تونس



الصفحة المقابلة
قطعة قماش ذات زخارف رسوم ديكة

عباسي (القرن الـ 4–5 هـ/11–12 م)
المتحف الملكي، متاحف سكوتلندا الوطنية
أدنبره، المملكة المتحدة

رباط سوسة
مشهد خارجي

أغالبي (206 هـ/821 م)
القيروان، تونس

تكن دائمًا فعلية، ولا ثابتة. فإن العباسيين مارسوا على كل بلاد العالم الإسلامي تأثيرًا متعدد الأشكال. ولا شك في أنهم كانوا نموذجًا. وبالتالي تم تقليدهم في أمور عديدة.

انتشار النموذج العباسي في بلاد المتوسط التابعة للمملكة

كان العباسيون الأوائل بناة حواضر مليئة بالقصور. ولقد صارت بغداد، ثم سامراء، والمدن الأخرى، نماذج تم تقليدها لمرات عديدة من حكام مصر وإفريقيا، وحتى من منافسيهم أمويي الأندلس، والفاطميين في إفريقيا ومصر، دون أن ننسى الأدارسة في فاس.

بنى الأغالبة بالقرب من القيروان في 285 هـ/801 م، مدينة العباسية، ثم الرقّادة في عام 262 هـ/876 م. بعد ذلك قام الفاطميون بتأسيس المهدية (305–308 هـ/917–920 م)، وصبرة المنصورية (337 هـ/948 م) والقاهرة في (359 هـ/969 م).

كانت العاصمة المصرية مدينة متعددة المراكز. ففي الشمال الغربي للفسطاط، تم تأسيس مدينة العسكر في 135 هـ/752 م. ثم قام ابن طولون بتأسيس القطائع باتجاه الشرق في





257 هـ/870 م. ثم في 969 م. وباتجاه الشمال، تأسست القاهرة على يد جوهر الصقلي. بعدها كان للقلعة الأيوبية التي بناها صلاح الدين في 567 هـ/1171 م في موقع متقدم من المقطَّم، أن تهيمن على ما سبقها من مشيّدات.

وإذا ما ذهبنا غربًا، نجد مدينة فاس التي عرفت نفس التطور: فبعد أن أسسها في 177 هـ/789 م. إدريس الأول، قام ابنه إدريس الثاني بتأسيس مدينة العليا في عام 193 هـ/809 م. وفي عام 675 هـ/1276 م. قام بنو مرين بتأسيس فاس الجديدة (الدار البيضاء).

بالقرب من قرطبة، لم يكتف عبد الرحمن الثالث بإعلان مركز خلافة ثالث، معاد للعباسيين وللفاطميين، وإنما قام أيضًا بتأسيس مدينة الزهراء (329-330 هـ/940-941 م). كما أن حاجبه القوي المنصور بن أبي عمير قام بدوره بتأسيس الزاهرة (368 هـ/978 م).

وبالإضافة إلى خصائصها المميزة، حاولت قرطبة الأموية، والقيروان، والقاهرة الفاطمية، أن تقلد النموذج البغدادي، الذي تحيط فيه مدن الأمراء بالمركز.



تمثال راقصة
دمية حسب أقوى الاحتمالات

عباسي (القرن الـ 3 هـ/9 م)
متحف الرباط
المنستير، تونس





تنّورة وتفصيل تطريزها
الكتابة المطرزة بالأحرف الكوفية بخيط من الحرير: «نعم دائمة [..] السيادة لله».

عباسي (القرن الـ 3-4 هـ/9-10 م)
متحف باردو
تونس، العاصمة تونس

يمثل المسجد الكبير في القيروان تشابهًا مع مخططات وأبعاد مساجد سامراء، وأبي دلف، في حين أن مسجد ابن طولون كانت له مأذنة مستوحاة بشكل واضح من مئذنة سامراء، وتذكر بالصروح القديمة في بلاد الرافدين، أي بالزقّورات.

في حوالي عام 248 هـ/862 م، تمت إعادة بناء المحراب في مسجد القيروان الكبير باستيراد مربعات من الرخام، ومربعات من الخزف ذي البريق المعدني. أما المنبر المصنوع من خشب الساج، فأُتي به من بغداد. وقد تطورت تقنيات الثريا المعدنية في الرقادة، وفي صبرة المنصورية، ثم انتشرت في بقية الغرب الإسلامي. وقد وصلت هذه التقنية إلى إفريقيا في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وإلى الأندلس في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

ترك العباسيون أثرًا عميقًا على حضارة عصرهم. وكان الشغف بهم قويًا، بحيث يتبدى في كثير من الملامح الثقافية والفنية، وكأن كل البلاد كانت تريد أن تقلد ما وصلت إليه بغداد.

زبدية
تبدو الزخرفة إحدى صيغ شجرة الحياة المؤلفة من غصينات أشبه بالأجنحة

عباسي (النصف الثاني من القرن الـ 3 هـ/ النصف الثاني من القرن الـ 9 م)
المتحف الوطني للفن الشرقي
روما، إيطاليا





قطعة قماش
منسوجة بالأسلوب المعتمد لدى النساجين الأقباط منذ قرون

عباسي (القرن الـ 3 هـ/9 م)
متحف الرباط
المنستير، تونس

الأعلام:

وُلد **المنصور، عبد الله أبو جعفر** (الذي عاش من عام 101 إلى 158 هـ/من 718 إلى 775 م) وترعرع في الحميمة، الواقعة إلى الجنوب من البحر الميت، ثم انتقل مع أخيه الخليفة أبو العباس إلى الكوفة بالعراق.
شارك المنصور في الثورة على الأمويين، وعينه أخوه السفاح أميرًا للحج. وقد أصبح المنصور خليفة في عام 136 هـ/754 م، وبقي على العرش حتى وفاته.
من إنجازاته بناء نظام الدولة العباسية وجهازها الإداري، مكرّسًا منصب الوزير نائب الخليفة، ومستحدثًا ديوان الحسبة، المشرف على الخدمة المدنية والتجارة.
درج المنصور على شن حملات عسكرية صيفية سنوية ضد بيزنطة، عُرفت باسم «الصوائف». جيوشه وصلت إلى باكو في القفقاس، وإلى قندهار في أفغانستان، وإلى كشمير في شمال الهند. أسطوله الحربي البحري وصل إلى مصب نهر السند على الساحل الهندي.
قام ببناء عدد غير قليل من المدن في العراق، بما فيها الهاشمية على الفرات، مدينة بغداد الدائرية (الدورة)، والرصافة على الضفة الأخرى من نهر دجلة. كما بنى الرافقة المجاورة للرقة على الفرات في سورية. قضى نحبه وهو في الحج بمكة، حيث دُفن.

هارون الرشيد (الذي عاش من عام 145 إلى 194 هـ/من 763 إلى 809 م) هو ابن الخليفة المهدي، وحفيد الخليفة المنصور. ولد بمدينة الري الواقعة في قلب إيران. شغل العديد من المناصب قبل تولي الخلافة، إذ قاد حملتين صيفيتين ضد بيزنطة، في عامي 163 و165 هـ/779 و781 م. واضطلع بمهام إدارة النصف الغربي من الإمبراطورية العباسية، من الأنبار الواقعة في غرب العراق، إلى (تونس) في شمال إفريقية.
وفي عام 170 هـ/786 م، صار الرشيد خليفة، وبقي في المنصب إلى وفاته. تعامل مع عدد من التهديدات التي واجهت سلطته ودولته من داخل الإمبراطورية: قام الأدارسة بفصل المغرب، ونجح الخليفة الأموي عبد الرحمن بن معاوية (الذي حكم من عام 60 إلى 64 هـ/ من 680 إلى 683 م) في تأسيس دولة منافسة في الأندلس. وقد تعين على الرشيد أيضًا أن يتعامل مع عدد من حركات التمرد والعصيان في جنوب العراق وشمال شرق إيران.
ومهما يكن، فإنه حكم خلال الفترة الأبهى من حياة الدولة العباسية، حيث كانت سيول غزيرة من موارد الخراج السخية تتدفق على العاصمة. كان مولعًا بالشعر، الموسيقى والغناء، فأجزل العطاء لممارسيها. رعى فن العمارة والحرف، إذ استقدم حرفيين من سائر أرجاء الإمبراطورية إلى بغداد. حج إلى مكة تسع مرات.
تنبع شهرته في المقام الأول من حملاته العسكرية ضد البيزنطيين، ولاسيما من استيلائه على مدينتي هرقلة والطيانة، كما من معاهدة السلام التي أبرمها مع الإمبراطور البيزنطي نقفور. تبادل السفارات والهدايا مع الإمبراطور الروماني شارلمان، وأشرف على تدشين المستشفى والمرصد الأولين في بغداد.
وافته المنية وهو في الطريق إلى معالجة بعض الاضطرابات الاجتماعية في خراسان، ودفن في مدينة طوس الإيرانية.

ولد **المعتصم، محمد أبو إسحاق** (الذي عاش من عام 178 إلى 227 هـ/من 793 إلى 842 م) في بغداد، وهو ثالث أبناء هارون الرشيد، فتولى الخلافة بعد أخويه الأمين والمأمون، ونظرًا لعدم توقع ولايته للعهد، فقد نشأ وترعرع في الجيش، وأصبح فارسًا عربيًا نموذجيًا.
ساهم المعتصم في إعادة بناء جيش قوي، بعد وضع حدٍّ للصراع على السلطة بين الأمين والمأمون. في عام 213 هـ/828 م، وُلّي على بلاد الشام ومصر. كانت جيوشه مؤلفة بأكثريتها من أتراك آسيا الوسطى، وهي الجيوش التي تولى قيادتها في عدد غير قليل من الحملات العسكرية ضد البيزنطيين، وغيرهم من المعتدين.
في عام 218 هـ/833 م، تولّى المعتصم الخلافة، وبعد قضاء ما يقل عن سنة في بغداد، قرر بناء عاصمة جديدة، وثكنة عسكرية، لجيشه التركي المؤلف من 4000 جندي، هذا الجيش الذي كان مصدر إزعاج لأهالي بغداد.
ابتنى سامراء في عام 221 هـ/836 م، على الضفة الشرقية لنهر دجلة، إلى الشمال من وسط العراق، على بعد 125 كيلومترًا إلى الشمال من بغداد، ولدى وفاته دُفن في هذه المدينة التي كان قد أنشأها.

عمد الخليفة هارون الرشيد إلى تنصيب **إبراهيم بن الأغلب** (الذي دامت ولايته من عام 184 إلى 197 هـ/ من 800 إلى 812 م)، وهو عربي من خراسان في جيش الخليفة، واليًا ووراثيًا لحكم إفريقية (تونس). ولقد ظل الأغالبة أتباعًا للعباسيين في إفريقية (تونس)، خلال الفترة الممتدة من عام 184 إلى 296 هـ/800 إلى 909 م. وقاموا بإعادة بناء عدد كبير من المدن، وأقاموا العديد من التحصينات العسكرية على امتداد الساحل التونسي في وجه البيزنطيين، كذلك نجحوا في تنظيم الشؤون المدنية، وتطوير طرق المواصلات، والاتصالات، بين شمال إفريقيا والشرق الأوسط.

أحمد بن طولون ولد في بغداد في عام 835 م، وكان أبوه مملوكًا (عبدًا) تركيًا. نشأ في سامراء، ودرس العلوم الدينية بالتوازي مع تدرّبه على حمل السلاح. بعد أن أقام لفترة في الواسط، تم تعيينه حاكمًا لمصر في عام 868 م. وقد أسس حاضرة من القصور في «القطائع»، تحتوي على مجمّع معماري فيه قصر ومسجد ومستشفى وأقنية لجمع مياه النيل، كما أنه أدخل الخصائص المعمارية الزخرفية العراقية إلى مصر.

تم إيفاد **أحمد بن طولون** (الذي دامت ولايته من عام 254 إلى 270 هـ/من 868 إلى 884 م)، وهو جندي تركي في الثالثة والثلاثين من العمر، في الجيش العباسي المتمركز بسامراء، إلى مصر، نائبًا للوالي في عام 254 هـ/868 م.
وقد نجح ابن طولون في تحقيق الاستقرار في المنطقة، ضامنًا تدفق الخراج. وما إن رُفّع إلى مرتبة ولاية مصر في عام 256 هـ/870 م، حتى بدأ يحتجز موارد الخراج، ويعيد توظيفها في الإصلاحات الزراعية والصناعة. وقام بتجديد مقياس النيل، وبناء محلة القطائع (تقليدًا لأنموذج سامراء)، لإيواء جيشه وحكومته، وبناء مسجد باسمه في المركز (مسجد ابن طولون). وزاد ابن طولون من استقلاليته، إذ سك نقده الخاص، ووسّع رقعة إدارته لتشمل سورية وفلسطين.

اجتياح الغرب: عاصمة الأمويين في الأندلس

محمد مزين



مسجد قرطبة الكبير

أموي أندلسي، فترات الإمارة والخلافة
(169–377 هـ/386–988 م)
قرطبة، إسبانيا

اجتياح الغرب: عاصمة الأمويين في الأندلس

إن تاريخ العالم العربي الإسلامي، في الفترة التي تمتد على ما يقارب أربعة قرون، من عام 41 هـ/661 م، إلى عام 422 هـ/1031 م، هو تاريخ يروي قصة بناء إمبراطورية.

فعند مجيء الخليفة الأموي الأول، معاوية الأول (حكم ما بين عامي 41–60 هـ/661–680 م)، كانت الخلافة تضم إلى جانب سورية وبلاد الرافدين، مصر التي كانت مصدر ثروات ومجال تميز، بالإضافة إلى انفتاحها على إفريقيا والبحر المتوسط. ومع ذلك فلكي تتمَّ حماية مصر، كان لابد في البداية من ضمان مناطق الغرب في برقة وطرابلس (ليبيا الحالية). كذلك كان لابدَّ، للتحكُّم بتجارة القوافل، من ضمّ فزّان، وهي منطقة غنية، تلتقي فيها الطرق التجارية ما بين الصحراء، من جهة، والبحر المتوسط والشرق الأدنى، من جهة ثانية. ولقد تمَّ ذلك ممهدًا الطريق أمام فتح شمال إفريقيا.

ومن الأعمال التي أعطت صدى كبيرًا لتلك السياسة، الحملة التي أوصلت الأمويين حتى سوسة، ثم بنزرت، وصولاً إلى جزيرة جربة. وبعد أربع سنين من ذلك أي في العام 49 هـ/ 670 م، استطاع عقبة بن نافع أن يضمَّ بشكل نهائي تلك الأراضي إلى المملكة الأموية، وأسَّس فيها مدينة القيروان، فدشّن بذلك أول مقاطعة مسلمة في إفريقيا الشمالية.

تتحدث النصوص التاريخية عن بناء هذه المدينة (القيروان)، لكنها تذكر أيضًا المعجزات التي قام بها عقبة، الذي صار بعد موته أول أولياء الإسلام في إفريقيا: إذ تذكر الروايات أن السماء دلّته على اتجاه مكة، لكي يحدّد وجهة مسجده. وطلبت من كل الأفاعي والحيوانات الأخرى أن ترحل عن المكان، ففعلت.

دينار
الكتابتان العربية واللاتينية مستخدمتان معًا، لنشر العقيدة الإسلامية

أموي (98 هـ/715–716 م)
متحف القطع النقدية والميداليات في بنك المغرب
الدار البيضاء، المغرب





وزن معياري

أموي شرقي (127 هـ/745 م)
متحف الآثار القديمة والفنون الإسلامية الوطني
الجزائر العاصمة، الجزائر



مسجد القيروان الكبير

أموي ـ عباسي (221 هـ/836 م)
القيروان، تونس

في هذه الفترة كان البربر يسكنون المغرب الأوسط. وكان قائدهم القوي «كسيلة» ينتمي إلى قبيلة الأوربة، وهي جزء من عشيرة صنهاجة، من البربر، والتي كانت تمتد على مجمل المغرب الأوسط.

كان «كسيلة» أميرًا حقيقيًا، تناقلت الأجيال اللاحقة اسمه الأسطوري. وقد تحالف مع الأمويين، هو وقبائل الأوربة بأسرها، في عام 59 هـ/678 م. فأحلّ بذلك السلام، وأعاد التجارة إلى المنطقة، وفي تلك الفترة تم ترميم مسجد عقبة، في القيروان، والمدينة بأكملها أيضًا.

استغرق إحلال السلام في إفريقيا أكثر من عشرين سنة، وانتهى في عام 82 هـ/701 م، مع تأسيس مرفأ تونس. ولقد ساهم آلاف الأقباط، المختصين في فن تشييد المرافئ، بصياغة المخططات. تم تدشين هذا المرفأ في عام 83 هـ/702 م، قبل أن يتحول بعد ما يقارب من ثلاثين سنة إلى مدينة حقيقية كبيرة: وهكذا ولدت مدينة تونس. ولقد تم توسيع مسجدها الكبير (المسجد الجامع)، وهو «مسجد الزيتونة» الشهير، أحد مراكز العبادة في العالم الإسلامي، وواحد من المراكز الأولى للثقافة العربية الإسلامية في الغرب.

استمر زحف الأمويين إلى الغرب باتجاه تيارت، ثم تلمسان، في المغرب الأوسط. وقد بدأ بناء المساجد، في كل مكان تقريبًا، مثل مسجد أغمات غيلان (في جنوب مراكش الحالية)، الذي نجد فيه منبرًا منذ عام 85 هـ/704 م. ومن الشخصيات التي لعبت دورًا في تاريخ تلك الفترة: موسى بن نصير، وطارق بن زياد.

كان موسى بن نصير كهلاً في الستين، غريب الأطوار، حسبما يروي الناس الذين عرفوه عن كثب. كانت له حظوة عند حاكم مصر، بالإضافة لكونه محاربًا مليئًا بالطموح. إلا أنه لم يستطع أن يظهر موهبته العسكرية، بشكل فعلي، إلا حين دعم طارق بن زياد أثناء فتحه شبه الجزيرة الإيبرية.

كان طارق ابن واحد من أعيان البربر، وكان يدعم جهود الفتح الأموي. وبحكم موقعه كحاكم لطنجة اتخذ المبادرة لاجتياز المضيق في عام 92 هـ/711 م، على رأس 17000 رجل، ونجح

حجر تزييني
مع نباتات مدادة، وأشجار رمان مؤسلبة
أموي (86–96 هـ/705–706 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية
برلين، ألمانيا



مسجد سيدي عقبة
أموي غربي (68 هـ/686 م)
بسكرة، الجزائر



في الاستيلاء على المدن الكبيرة في جنوب إسبانيا حتى طليطلة. بعد ذلك، وبرفقة موسى بن نصير، تقدم نحو جبال البيرينيه، فاتحًا شبه الجزيرة (بلاد الأندلس) أمام حضارة وثقافة جديدتين.

وبالفعل، حمل مجيء الأمويين إلى إسبانيا آلاف البربر إلى شبه الجزيرة. ولقد استقر عدد كبير منهم في الأندلس، حيث تزوجوا من عربيات، أو من رومانيات إيبيريات، وصاروا أندلسيين مسلمين.

وهكذا بدأت تتشكل، خلال أربعين سنة، سلطة سياسية محلية، في حين بدأت النخبة

علبة جواهر

أموي أندلسي، ربما بُعيد عام 350 هـ/961 م

متحف فكتوريا وآلبرت

لندن، المملكة المتحدة







علبة جواهر

أموي أندلسي، ربما بعيد 350 هـ/961 م

متحف فكتوريا وآلبرت

لندن، المملكة المتحدة

أعلى يمين

مشاهد من بلدة فاسكوس

أموي أندلسي (318–399 هـ/930–950 م)

طليطلة، إسبانيا



قلعة مدريد

أموي أندلسي (220 هـ/835 م)

باداجوز، إسبانيا

زبدية

أموي أندلسي
(324–336 هـ/936–976 م)
مدريد، إسبانيا

زبدية

أموي (القرن الـ 2–3 هـ/8–9 م)
متحف البلدية للآثار
سيلفس، البرتغال







صنبور نافورة

أموي أندلسي (339–390هـ/950–1000 م)
متحف الآثار الوطني
مدريد، إسبانيا

زبدية

أموي أندلسي
(324–366 هـ/936–976 م)
متحف الآثار الوطني
مدريد، إسبانيا



السياسية والثقافية، التي تباعدت علاقاتها بالتدريج مع دمشق، تحضّر لاستقلال الأندلس. وساهم في تسارع الأحداث مجيءُ العباسيين إلى السلطة في بغداد.

في عام 138 هـ/756 م، قام أحد الأمراء الأمويين: عبد الرحمن الأول (عبد الرحمن الداخل: صقر قريش)، باللجوء إلى إسبانيا، التي جعل منها إمارة مستقلة (حكم ما بين عامي 138–171 هـ/756–788 م). ولقد أقام في قرطبة، وبنى فيها مسجده الشهير، الذي قام خلفاؤه بتوسيعه.

وخلال تلك الفترة، وصل إلى المغرب مولاي إدريس الأول (حكم ما بين 172–175 هـ/ 789–791 م)، بعدما نجا من بطش العبّاسيين. ولقد أسَّس بعد وصوله إلى المغرب، عام 172 هـ/789 م، أسرة حاكمة جديدة، هي أسرة «الأدارسة». وستظل خلال قرن من الزمن تقيم علاقات مع أمويي الأندلس.

في عام 316 هـ/929 م، اتخذ عبد الرحمن الثالث (حكم ما بين عامي 316–350 هـ/ 929–961 م) لنفسه لقب خليفة. واستمرت الخلافة الأموية الأندلسية حتى عام 422 هـ/ 1031 م، تدعمها مؤسسات مدروسة بشكل كبير، وإدارة مركزية، وتشريعات قانونية ومالية، تتناقض مع التمزق الإقطاعي للدول المسيحية. بالإضافة إلى أنها أمّنت للخلافة رخاء اقتصاديًا كبيرًا. وقد ساد أسطولها في البحر المتوسط، وتطورت نُظُم الري فيها، وأُدخلت إليها زراعات جديدة، مثل قصب السكر والتوت، وتطورت فيها صناعات حرفية مدينية هامة (الحرير، الجلد، المعادن).

في المغرب، حيث بُنيت في الفترة نفسها مدينة فاس، كان تأثير أمويي الأندلس ملحوظًا.

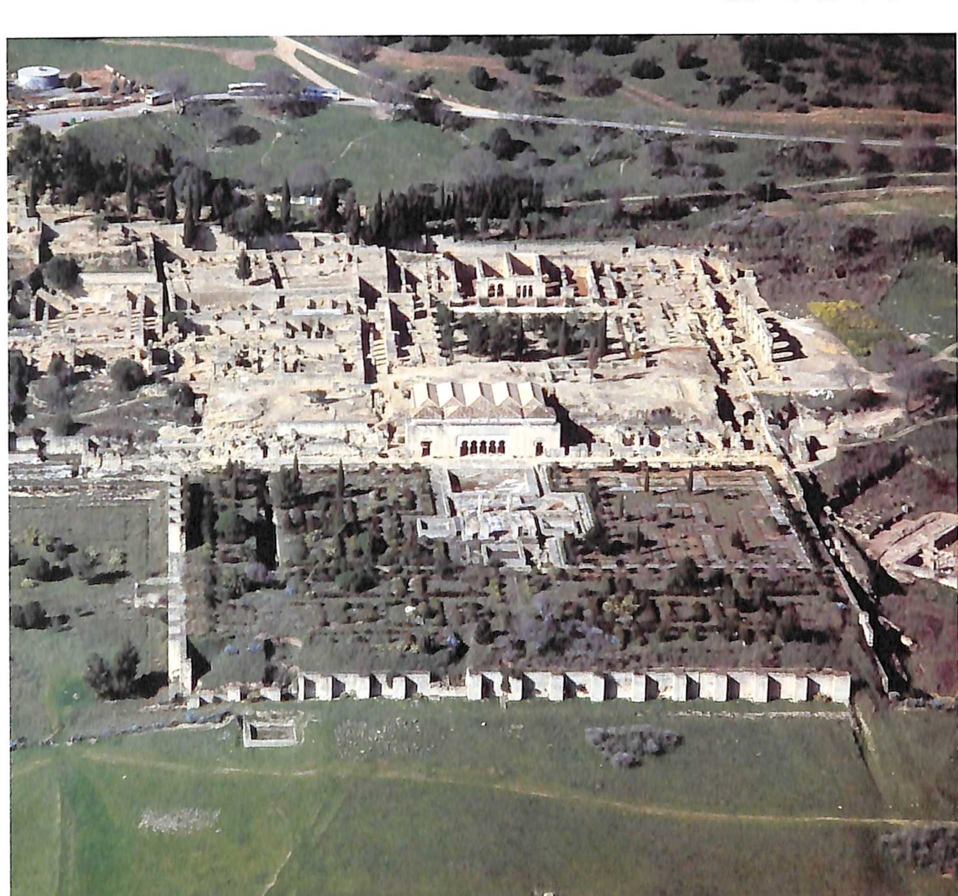
كانت خلافة قرطبة، في الوقت ذاته، مركزًا ثقافيًا وفنيًا لامعًا، يفخر بمدارسه العديدة، وبمكتبته الهامة، وكانت الجامعات الإسلامية تُدرِّس في هذه المدينة الطب والرياضيات والفلسفة والأدب، بالإضافة إلى أعمال أرسطو، التي انتشرت فيها قبل أن تكتشفها أوروبا المسيحية بزمن طويل.



إناء من زامورا

أموي أندلسي (353 هـ/964 م)

مدريد، إسبانيا



مدينة الزاهرة

أموي أندلسي
(324–365 هـ/936–976 م)

قرطبة، إسبانيا

الصفحة المقابلة

اصطرلاب

أقدم اصطرلاب معروف، صُنع في أوروبا

أموي أندلسي (417 هـ/1026–1027 م)

المتحف الملكي، متاحف سكوتلندا الوطنية
أدنبره، المملكة المتحدة



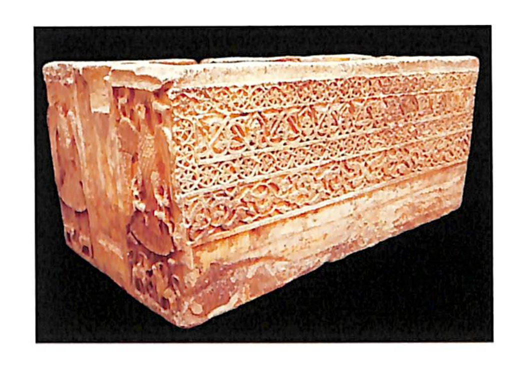
صارت قرطبة أهم مركز للفلسفة العربية. ولن يلبث بعد قرن أن يبرز فيها ابن رشد (595-520 هـ/1126-1198 م). وابن ميمون (529-600 هـ/1135-1204 م). اللذان كانا نتاج هذه الحضارة. وقد وصل الفن الإسباني المغربي إلى قمة ازدهاره فيها.

في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. انقسمت إسبانيا المسلمة إلى عدد من الممالك المستقلة هي «ممالك الطوائف». في حين استقرت أسرة حاكمة جديدة على الضفة الثانية من البحر. في مدينة مراكش. هي سلالة «المرابطين» الذين كانت علاقاتهم مع الأندلس صعبة في بعض الأحيان.



طست المنصور
لمصلحة قصر الزاهرة الملكي. في قرطبة

أموي أندلسي (377 هـ/988 م)
متحف الآثار الوطني
مدريد. إسبانيا



طست وضوء
مُنتج في ورشة مدينة الزاهرة بقرطبة

خلافة الأندلس الأموية (381-398 هـ/991-1008 م)
متحف دار سي سعيد
مراكش. المغرب

الأعلام:

معاوية (حكم ما بين عامي 41—60 هـ/661—680 م)
معاوية بن أبي سفيان. هو أول خليفة أموي. ومؤسس الأسرة الحاكمة الأموية. وقد نجح في أن يفرض نفسه خلال الصراع الذي ثار خلال اثنتي عشرة سنة بينه وبين الخليفة عثمان بن عفان (حكم ما بين عامي 24—36 هـ/ 644—656 م) والخليفة علي بن أبي طالب (حكم ما بين عامي 36—41 هـ/656—661 م). ومعاوية هو الذي نقل مقر السلطة إلى دمشق.

عقبة بن نافع (توفي عام 64 هـ/683 م)
تمت تسميته قائدًا أعلى في عام 50 هـ/670 م. وقد عبر كل إفريقيا الشمالية حتى صافي. مُلحقًا كل الأراضي التي اجتازها بالدولة للأموية. عزله معاوية بن أبي سفيان عام 56 هـ/675 م. ثم أعاد له الاعتبار يزيد بن معاوية في عام 61 هـ/680 م. يعتبر مؤسس مدينة القيروان. وقد تحول ضريحه (سيدي عقبة) إلى مكان للزيارة بعد استشهاده عام 65 هـ/683 م.

كسيلة (توفي عام 67 هـ/686 م)
بربري من قبيلة الأوربة. التي تنتمي إلى عشائر صنهاجة. نجح في جمع قبائل البربر. من المغرب الأوسط. ضد الفاتحين العرب. ثم انتهى به الأمر إلى أن يعتنق الإسلام. وأن ينضم إلى جانب الأمويين في عام 59 هـ/678 م. وقد صار حاكم القيروان في عام 63 هـ/683 م. قتل عقبة بن نافع في كمين عام 64 هـ/683 م. ومن ثم قُتل في معركة أخرى على يد زهير بن قيس البلوي عام 67 هـ/686 م.

موسى بن نصير (توفي 99 هـ/714 م)
أهم مخطط عسكري للأمويين في هجومهم على المغرب: تم تعيينه حاكمًا على المنطقة في عام 85 هـ/704 م. وقد أنهى فتح المغرب. وأرسل طارق بن زياد من أجل فتح الأندلس عام 92 هـ/711 م.

طارق بن زياد (توفي عام 102 هـ/720 م)
ابن عبدالله بن ولغو. اعتنق الإسلام في فترة عقبة. كان طارق حاكم طنجة (أو المغرب الأقصى). وهو الذي أدار فتح إسبانيا في عام 92 هـ/711 م. وقد أُطلق اسمه على «مضيق جبل طارق».

عبد الرحمن الأول (حكم ما بين عامي 138—171 هـ/ 756—788 م)
هو عبد الرحمن الداخل. صقر قريش. عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. وصل إلى السلطة في قرطبة بعد انتصاره على واليها يوسف بن عبد الرحمن الفهري في عام 138 هـ/756 م. استمر حكمه 32 سنة. ويعتبر مؤسس السلالة الأموية في الأندلس.

إدريس الأول (حكم ما بين 172—175 هـ/789—791 م)
مولاي إدريس الأول. هو إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وبالتالي فهو ينتمي إلى سلالة الرسول. من خلال علي بن أبي طالب. هرب مولاي إدريس الأول من العبّاسيين إلى المغرب. بعد فشل ثورة العلويين في المدينة المنورة ضدهم. واستقرّ في مدينة وليلي. وأسّس مدينة فاس. وأقام عام 172 هـ/789 م. دولة "الأدارسة" التي دامت قرابة 203 سنة. يُعتبر ضريحه اليوم مكانًا للحج.

عبد الرحمن الثالث: (حكم ما بين عامي 316-350 هـ/ 929-961 م)
هو الناصر لدين الله. عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الأول (الداخل). وأسمي عبد الرحمن الثالث لأنه جاء بعد عبد الرحمن الأوسط. الذي هو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن الأول (الداخل).
نصّب عبد الرحمن الثالث نفسه أميرًا للمؤمنين. وخليفة. وأعلن استقلال مقاطعة الأندلس عن وصاية بغداد. وإليه يعود الفضل في بناء مدينة الزهراء.

ابن رشد (520—595 هـ/1126—1198 م)
طبيب وفيلسوف وعالم رياضيات عربي. عاش في إشبيلية. وفي قرطبة. تمت ترجمة أعماله إلى اللاتينية والعبرية. وكان لها تأثير كبير على الفكر المسيحي والفلسفي في أوروبا الغربية.

ابن ميمون (موشيه ابن ميمون) (529—600 هـ/ 1135—1204 م)
ويُطلق عليه أيضًا اسم «رمبام». وهو مختص باللاهوت. فيلسوف وطبيب يهودي إسباني. ثقافته عربية. عاش في قرطبة. ثم في الفسطاط في مصر. كان طبيب صلاح الدين الأيوبي. ورجل قانون. وما زال يبجّله حتى اليوم مثقفو العالم بأسره.

الخط: أسمى فنون المسلمين

شوله آقصوي، وخضر سلامة



قرآن

مملوكي (رمضان 713 هـ/ كانون الأول 1313 م)
متحف الفنون التركية والإسلامية
استانبول. تركيا

الخط: أسمى فنون المسلمين

لعل تطوُّر الخط الإسلامي على امتداد أربعة عشر قرنًا من الزمن هو إحدى الظواهر المدهشة في الحضارة الإسلامية. فالعرب، والفرس، والأتراك، كانوا بين أولئك الذين ساهموا في تطوير هذه الحضارة على صعيدي: الأدب، وإتقان أساليب الخط.

تتمثَّل أولى واجبات أي مسلم في نشر كلمة الله، ولم ينشأ الخط، بداية، في القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، إلا انطلاقًا من هذا الواجب.

في البدء تمَّ الاكتفاء بمجرد حفظ آيات الوحي المُنزَّلة على النبي، عن ظهر قلب. غير أن المسؤولية الخطيرة للحفظ الدقيق للكلام المقدس سرعان ما قادت إلى محاولات أولى لتأبيده في قالب مادي.

إن نتف الكتابات الأولى من القرآن، بأساليب عربية موصولة، بدائية بعض الشيء، وباقية على مواد متباينة، تباين الرق، والجلد، بل وحتى العظم، إلا أن هذه النقوش غير المتقنة ما لبثت، مع حلول أواخر القرن السابع الميلادي، وأوائل القرن الثامن الميلادي، أن أخلت مكانها لأسلوب جيد التناسب، شديد الإتقان، ذي جمال مهيب وراق، سرعان ما أصبح الخط الجديد المعروف بالخط الكوفي، نسبة إلى مدينة الكوفة العراقية، حيث تطور الخط القرآني بامتياز لعدد من القرون القادمة، ناشرًا بزواياه المنضبطة هالة من القداسة العاكسة لقدسية النص من ناحية، والمكمِّلة بصريًا لهذه القدسية، من ناحية أخرى.

مع حلول القرن العاشر الميلادي كانت أهمية الخط الكوفي قد بدأت تتضاءل وتخبو في العالم الإسلامي الشرقي، مع بروز أساليب جديدة. فقط في الغرب الإسلامي والأندلس احتفظ بمكانته المحورية، وظل إنجاز نسخ قرآنية رفيعة بالخط الكوفي مستمرًا في القيروان بتونس، المركز الأول والأبرز لروعة الخط الفائقة في تلك المنطقة. ومن شمال إفريقيا انتقل الخط الكوفي إلى الأندلس حيث قام تدريجيًا باستيعاب عناصر أندلسية وصولاً، آخر المطاف، إلى ما

الصفحة المقابلة
صفحات من قرآن
إشارات الحركات معلمة بنقاط حمراء، أو سوداء

عباسي (القرن الـ 3–4 هـ/9 م)
متحف الفنون التركية والإسلامية
استانبول، تركيا



قرآن
منسوخ بالخط الكوفي

عباسي (القرن الـ 3 هـ/9 م)
المتحف الإسلامي، ومكتبة الأقصى
القدس





قرآن
منسوخ بالخط المغربي، والحبر الأسود

ماريني (745 هـ/1344 م)
المتحف الإسلامي، ومكتبة الأقصى
القدس

قرآن
منسوخ بماء الفضة على ورق أخضر،
بخط مغربي موصول

وطّاسي (القرن الـ 9 هـ/15–16 م)
المكتبة الوطنية
الرباط، المغرب

يعرف بالخط الغربي، الذي لا يزال قيد الاستعمال حتى اليوم.

وهناك في قلب الخلافة، كان في الوقت نفسه ابن مقلة البغدادي (المتوفى في 328 هـ/ 940 م) عاكفًا، للمرة الأولى، على وضع قواعد واضحة، تحدد النسب الدقيقة لكل حرف من حروف الكتابة العربية. ويُعزى إليه أيضًا فضل تطوير أساليب خط جديدة بما فيها النسخي، والثلث والمحقّق، التي ما لبثت، جميعًا، أن أصبحت محورية عبر العالم الإسلامي، من أوله إلى آخره، ليس على الورق وحسب، بل وعلى سائر الوسائل الفنية الأخرى، مثل فن العمارة، والفنون الأقل شأنًا، على نحو متزايد باطراد، بدءًا بالقرن العاشر الميلادي، وصاعدًا.

في القرن الثالث عشر الميلادي، نجح خطاط بلاط آخر خلفاء بني العباس، ياقوت المستعصمي (توفي في 688 أو 697 هـ/1289 أو 1299 م)، في زيادة إتقان الأساليب الموجودة. وما زال عمله يؤثر في خطاطين عرب، وفرس، وأتراك، إلى اليوم.

بعد سقوط الخلافة العباسية في 656 هـ/1258 م، صارت القاهرة المملوكية المركز الثقافي الجديد للعالم الإسلامي. كان الخطاطون يخطّون باهتمام غير مسبوق في الفن المملوكي. جرى توفير قدر كبير من الرعاية لإنتاج مخطوطات فاخرة للقرآن الكريم. غير أن التوليفات الخطية سرعان ما بادرت أيضًا إلى الطغيان بوصفها الملامح الفنية الرئيسية للفنون الأقل شأنًا، مثل الأشغال المعدنية، والزجاجية، والحفر في العاج.

مع قيام الدولة العثمانية صار إنتاج الإمبراطورية في مجال الخط يصدر عن مشاغل

قرآن
منسوخ بخط الثلث بالحبر الأسود
مملوكي (قبل 771 هـ/1396 م)
المتحف الإسلامي، ومكتبة الأقصى
القدس



ورشات قصر السلطان في إستنبول. وظل فن الخط متبعًا تقليدًا محددًا إلى عهد محمد الثاني (حكم مرتين، أولاً فيما بين عامي 848–850 هـ/1444–1446 م، ومن ثم فيما بين عامي 855–886 هـ/1451–1481 م). ليكتسب بعد ذلك التاريخ زخمًا أضفى عليه روحًا إبداعية جديدة. كانت آماسيا وأدرنة اثنتين من بؤر القرن الخامس عشر الميلادي، برز فيهما عدد غير قليل من الخطاطين المرموقين، بمن فيهم الشيخ حمد الله (عاش فيما بين عامي 840–925 هـ/ 1437–1519 م)، الذي كان يعد قِبْلَةَ الكُتَّاب خلال حكم بايزيد الثاني (885–917 هـ/ 1481–1512 م).



لوح عاجي منقوش
مكتوب بخط الثلث، يرد فيه اسم السلطان قايتباي

مملوكي (872–901 هـ/1468–1496 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر



طست

مملوكي (القرن الـ 8 هـ/14 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر



مصباح جامع
حزام الكتابة الثلثية العريض يحمل عبارة قرآنية

مملوكي (742–754 هـ/1342–1354 م)
المتحف الملكي، متاحف سكوتلندا الوطنية
أدنبره، المملكة المتحدة

الصفحة المقابلة
علبة قرآن
في مصر المملوكية، كانت نسخ القرآن تحفظ في علب مزينة بنماذج كتابات مزخرفة من فن الخط

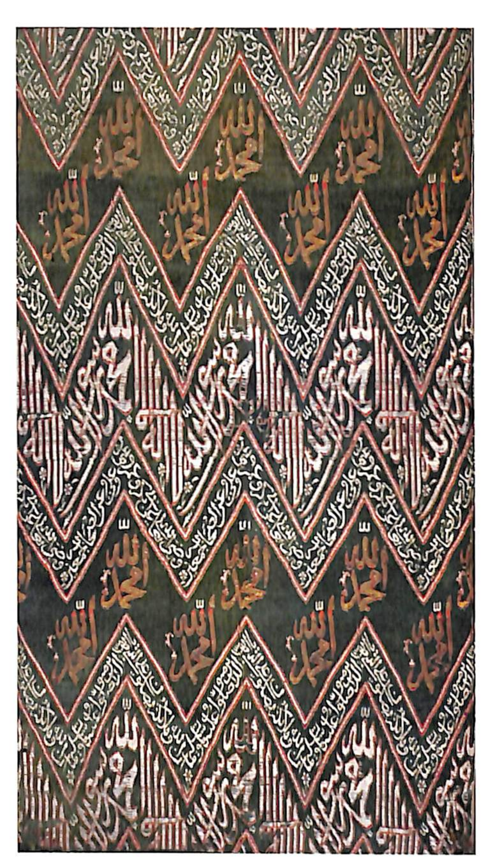
مملوكي (نحو 730 هـ/1330 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية
برلين، ألمانيا

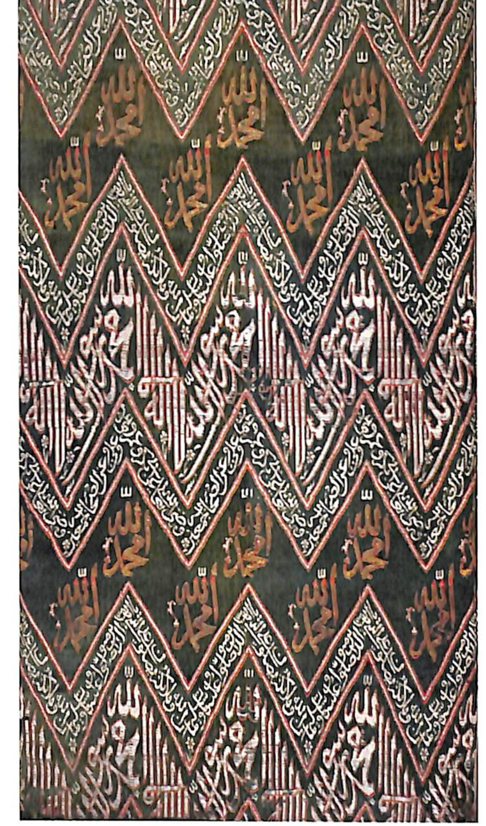


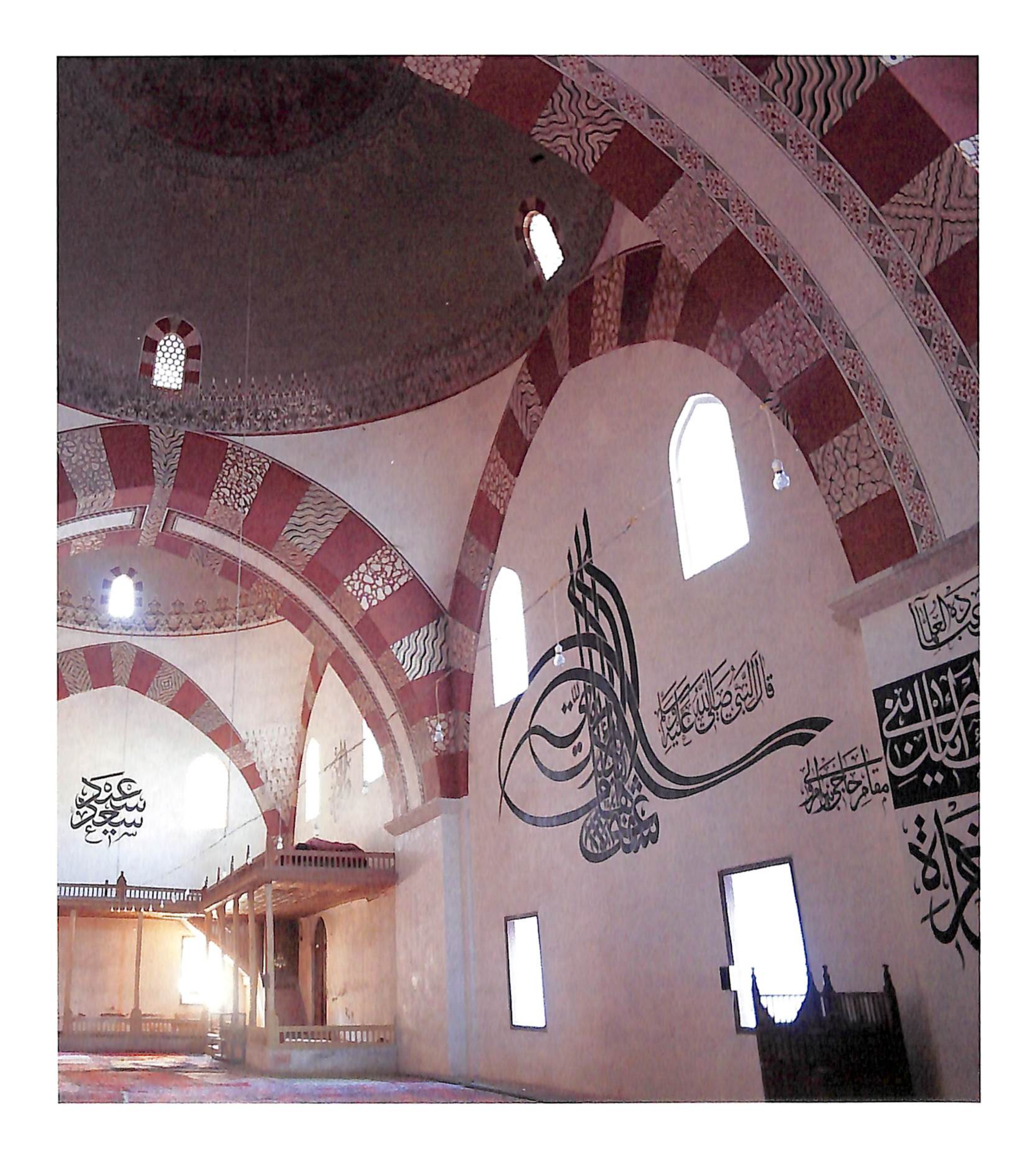


مخطوطة قرآنية
عائدة إلى الأمير بايزيد، نجل السلطان سليمان القانوني.

عثماني (964 هـ/1556 م)
المتحف الإسلامي، ومكتبة الأقصى
القدس







مسجد إسكي
مشهد داخلي، مع نماذج خطوط كبيرة على الجدران

عثماني (817 هـ/1414 م)
أدرنه، تركيا

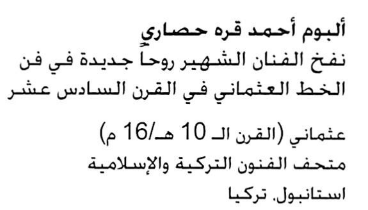
الصفحة المقابلة
قرآن، بخط الشيخ حمد الله.

عثماني (899 هـ/1494 م)
متحف الفنون التركية والإسلامية
استانبول، تركيا



صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم ونحن
على ذلك من الشاهدين
وكتب الفقير حمد الله بن مصطفى دده المعروف
بابن الشيخ حامداً لله على نعمه ومصلياً على نبيه محمد
وآله ومسلماً وسلم تسليماً كثيراً
كثيراً





ألبوم أحمد قره حصاري
نفخ الفنان الشهير روحاً جديدة في فن الخط العثماني في القرن السادس عشر

عثماني (القرن الـ 10 هـ/16 م)
متحف الفنون التركية والإسلامية
استانبول، تركيا

وهناك عبقري آخر من عباقرة الخط التركي في القرن السابع عشر الميلادي هو حافظ عثمان (عاش فيما بين عامي 1052–1110 هـ/1642–1698 م)، الذي تعود شهرته إلى نسخ القرآن التي كتبها، ونسخ المدائح النبوية التي أنتجها. كانت الأخيرة نتيجة حظر الرسوم التصويرية في العالم الإسلامي، كما كانت وسيلة أدبية جرى توظيفها لوصف المظهر الخارجي للناس المقدسين، الأولياء الصالحين، مدعومة بآيات مقتبسة من القرآن.

أما اليوم فإن فن الخط، أسمى فنون المسلمين، هو بين أيدي جيل جديد من فناني الخط الذين يتفاعلون معه بوصفه شكلاً فنيّا معاصرًا مؤهلاً لاجتياز امتحانات الزمن.

صقلية الإسلامية والنورماندية

بيير باولو راتشيوبي، وإتوري سيسا



قصر ملكي
فسيفساء في غرفة روجيرو (تفصيل)

نورماندي (524–549 هـ/1130–1154 م)
باليرمو، إيطاليا

صقلية الإسلامية والنورماندية

تعرضت جزيرة صقلية في منتصف العصور الوسطى إلى احتلال البرابرة مدة قصيرة. ثم احتلتها الإمبراطورية البيزنطية عام 537 م. ودامت سيطرتها عليها حتى عام 212 هـ/ 827 م. إذ دخلتها جيوش الأغالبة المسلمة بقيادة «أسد بن الفرات». منطلقة من سوسة وراسية قرب ماتزارادال فاله (في رأس غرانيتولا).

وصارت باليرمو عام 216 هـ/831 م. عاصمة إمارة الأغالبة. دون أن تصبح الجزيرة كاملة تحت سيطرتهم. حتى سقطت أسرة الأغالبة بيد الفاطميين عام 296 هـ/909 م.

وقد أسس الفاطميون إمارتهم في صقلية عام 337 هـ/948 م. وجعلوا أميرهم «حسن الكلبي». الذي حكم الجزيرة حتى منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. واتصفت الفترة الأخيرة من حكمه بالنزاعات الداخلية التي صدَّعت قوام إمارته. وشكلت إقطاعات مستقلة.

تشهد بعض الأسوار التي نجدها الآن داخل أبنية. بنيت على أطلال. وبعض النقوش وشواهد القبور وقطع السيراميك بعصر الأغالبة والكلبيين. أما المصادر التي تتحدث عن أراض. جُعلت طرقاً للبساتين. وفن الهندسة المائية للري وتخزين المياه (مثل شبكة القنوات المائية تحت

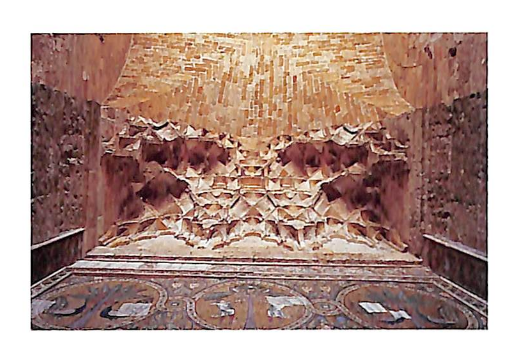
قناة
شبكات أقنية ممتدة عشرات الكيلومترات. كانت تؤمن الماء على نحو متواصل وآلي

فاطمي. نورماندي (القرن الـ 6 هـ/12 م)
باليرمو. إيطاليا



مدينة باليرمو) فهي كثيرة. تبيّن أن المدينة. تقبلت الحكم العربي الإسلامي، وتعايشت مع أحكام القرآن الكريم؛ فقد زاول شعبها طرق الحياة الإسلامية الاقتصادية والاجتماعية. وعاش اليهود والمسيحيون في جو قريب من التسامح.

صقلية المسلمة. ذات الشريعة السمحة والعلوم والفنون والحياة الرغيدة. التي تركت فيها أهم الشواهد عليها. لم يكن للأغالبة أو الكلبيين كامل الفضل في بقاء آثارها الحضارية. بل كان للفاتحين الجدد المسيحيين النورمنديين دورهم ومساهمتهم. فقد استطاعت الجزيرة أن تعبر عن ذاتها أثناء حكمهم الملكي العظيم. إذ دخل إلى صقلية النورمنديون عام 1061 م. منطلقين من مناطق سيطرتهم في جنوب إيطاليا. وتمكن روجيرو وروبرتو غويسكاردو آلتافيلا



عزيزة
مشهد مقرنص في كوة كبيرة (نظرة من الأسفل إلى الأعلىّ)

نورماندي (1165–1180 م)
باليرمو. إيطاليا

عزيزة
كوة كبيرة من مقرنص في غرفة المزراب

نورماندي (1165–1180 م)
باليرمو. إيطاليا

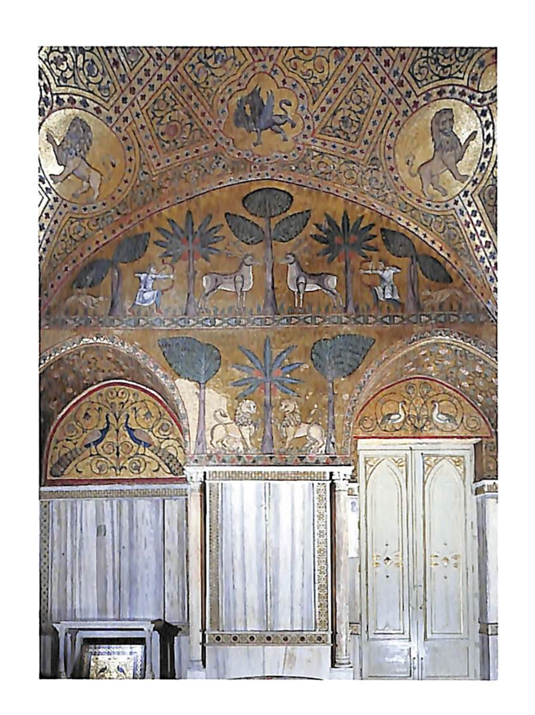
من دخول صقلية، مستغلين خلافات الحكام المسلمين في مدينتي أغريجنتو وكتانيا، وكانت الفرصة سانحة لاحتلالهم الجزيرة.

عين بابا الفاتيكان أربانو الثاني الكونت روجيرو مفوضاً منه حاكماً على جزيرة صقلية عام 1098 م، ومُنح حق تطبيق السلطة البابوية بشكل مستقل، ولما تولى روجيرو الثاني حكم الجزيرة، جعلها مملكة مستقلة تحت إمرته بين عامي 524–549 هـ/1130–1154 م، وبقيت كذلك حتى دخول أسرة هوهنستاوفن عام 592 هـ/1195 م. وقد كان فديريكو الثاني «أعجوبة العالم» إذ توِّج ملكاً لصقلية عام 595 هـ/1198 م، وكان عمره أربع سنوات فقط، وكان تحت وصاية بابا الفاتيكان إنوتشنتزو الثالث، وأصبح إمبراطوراً عام 617 هـ/ 1220 م. وتبنَّى طريقة حياة المسلمين، وشجع حاشيته النورمندية على مزاولة مظاهرها، فكانت من ميزات حكمه.

ظهرت الصفات المميزة لمدرسة فن العمارة في صقلية وجنوب إيطاليا أثناء حكم روجيرو الثاني، وتألَّفت من مجموعة أسس بيزنطية محلية، نضجت خلال الفتح الإسلامي، فكانت جامعة للمسات من الفن المغربي والبيزنطي والمصري المسلم. وكان كل هذا مصحوباً بحظ كبير من النجاحات العسكرية التي دفعت جيوش مملكة صقلية لاحتلال سواحل تونس، وقسم من شواطىء الأدرياتيك البيزنطية، وصارت الثقافة الفنية والمعمارية للحكام النورمنديين، تتطلع نحو فن الفسيفساء البيزنطي وصوره الدينية، ونحو العمارة الرومانية والفرنسية والإنكليزية ونحو فنون الثقافة العربية. وهضم النورمنديون كل هذه الفنون، وبلوروها في نوع جديد فريد متميز.

قد يكون جمع هذه الثقافات والفنون ذا أهميه أقل لدى راغبي تحديث الإمبراطورية النورمندية الصقلية، الذين يريدون إظهار الفن المسيحي القديم، باستخدام الأعمدة الكثيرة التي كانت تستعمل لتقسيم الكنائس في العصور الوسطى.

وفرة القصور العربية الإسلامية المبنية في الحدائق، وأماكن الاستراحة فيها، والبحيرات (قصر الفافارا في ماره دولتشه، في مدينة باليرمو) ألهمت الملوك النورمنديين الجدد بناء قصور لإقامتهم واستراحاتهم مثل القصور العربية الإسلامية، وكان نتيجة ذلك بناء عزيزة والقبة ولوشيبينه في الحديقة الكبيرة الملكية النورمندية في كونكادورو.



غرفة روجيرو في القصر الملكي

نورماندي (بين 1131 و 1154 م)
باليرمو، إيطاليا



غرفة روجيرو في القصر الملكي (تفصيل)

نورماندي (بين 1131 و 1154 م)
باليرمو، إيطاليا

الصفحة المقابلة
غرفة روجيرو في القصر الملكي النسر السوابي، أضيف في عهد فريديريك الثاني، داخل مضلع ثماني منتصف القبة، مُهيمن على التشكيلة المؤلفة فوق أرضية ذهبية.

نورماندي (بين 1131 و 1154 م)
باليرمو، إيطاليا



وحاول هؤلاء الملوك الاستفادة المثمرة من الفن الفاطمي المعاصر لهم في بناء تلك الأبنية، فاضطرهم هذا الاتجاه إلى استدعاء بنّائين وحرفيين وفنانين من مصر، لتنفيذ بعض الأعمال الخشبية في قبة البالاتينا وكنيسة الدوومو في تشفالو. وتمَّ بناء الشرفة (التّراس) بأمر من الأسرة الحاكمة النورمندية، وظهرت به أجمل المنتجات اليدوية الفنية في أوروبا في العصور الوسطى (مثل النسيج بخيوط الذهب، وتزيينه بالمجوهرات، وتزيين الملابس بالحلي وصناديق العاج الشهيرة).

إن الأبنية في العصر النورمندي، تظهر توافق أهداف السياسة الإعلامية التي اتبعها الملك روجيرو الثاني، وغوليبمو الأول، وغوليبمو الثاني، وبعض رعاة الكنائس ذات الصفات البيزنطية الواضحة، مصحوبة بلمسات إسلامية (مثل جورجو دانتوكيا، ومايونا دا باري). وكان الانتشار الكبير لهذا الفن النورمندي الصقلي في كل أنحاء الجزيرة، وإن كان في بعض الأحيان ذا تعبير قروي، فإنه، يظل ذا أهمية، يشهد على نضج فن جديد، له جذوره، أخذ يتبلور ليعبر عن شخصية الشعب الصقلي في العصور الوسطى.



قلعة فافارا في ماريجولتشي

ربما فاطمي (388–409 هـ/998–1019 م)؛
نورماندي (النصف الثاني من القرن الـ 12 م)
باليرمو، إيطاليا

حمّامات عربية

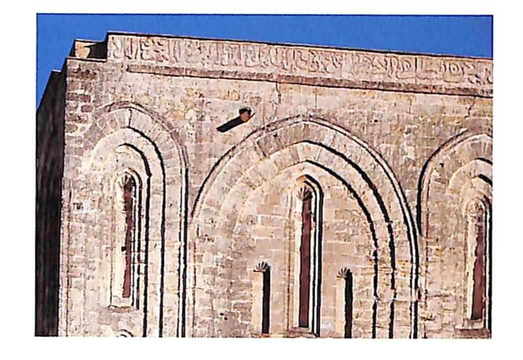
فاطمي، نورماندي (القرن الـ 6 هـ/12 م)
تشفالا ديانا، إيطاليا

القبة الصغيرة

نورماندي (النصف الثاني من القرن الـ 12 م)
باليرمو. إيطاليا

القبة

نورماندي (بين 1171–1180 م)
باليرمو. إيطاليا

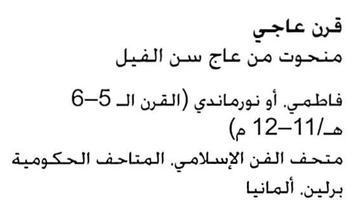


مصلى القصر
سقف خشبي مطلي (تفصيل)

نورماندي (بين 1131–1140 م)
باليرمو. إيطاليا







قرن عاجي
منحوت من عاج سن الفيل

فاطمي، أو نورماندي (القرن الـ 5–6 هـ/11–12 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية
برلين، ألمانيا

وإن الوصف الذي يلخص قدرة التعايش واكتساب الثقافة الإسلامية تلخيصاً عملياً مفيداً، هو الحفاظ على الشخصية الأساسية، والأخذ من تلك الثقافة ما يعبر عنها، ويظهرها، وهو وصف الرحالة ابن جبير الذي زار صقيلية بين عامي 579–581 هـ/1183 م وعام 1184 م، وقال واصفاً الملك غولييمو الثاني: «يشبه الملوك المسلمين بطريقة عيشهم الرغيد، وتطبيق النظم والعادات، وتوزيع رتب معاونيه، وروعة حاشيته، وجمال كل ما يحيط به».

الأعلام:

أسد بن الفرات: (141–212 هـ/759–828 م).
وهو قانوني شهير من أصل فارسي، عرف كقائد للأغالبة في فترة الفتوحات الصقلية. في عام 212 هـ/827 م، قامت حملة بأمر من أمير قيروان زيادة الله الأول. وقد نظمت هذه الحملة كي تساعد ضابط بيزنطي كان يأمل بمساعدة من المسلمين لتأسيس مملكة صقلية مستقلة عن بيزنطة متحالفة مع العالم الإسلامي.

حسن الكلبي: زعيم قبيلة الكلبيين والذي حكم صقلية من عام 337 هـ/948 م، إلى منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. أرسله إلى صقلية الخليفة الفاطمي المنصور كي يهدئ انتفاضة قامت في باليرمو، فاستطاع تأسيس إمارة وراثية شبه مستقلة.
روجيرو التافيلا: وهو الابن الأصغر لتانكريدي دي التافيلا، في عام 1059 م، وصل إلى جنوب إيطاليا (المحتلة من النورمنديين من بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي). منحه أخوه روبرتو كويسكاردو لقب كونت لمنطقة كالابريا، وقد كان قائد الحملة المسلحة التي احتلت صقلية بين عام 1061 م، وعام 1091 م.

روبرتو كوسكاردو: عينه البابا نيكولا الثاني عام 1059 م، دوقاً لمناطق بوليا وكالابريا وصقيلية، وقد شكل إحتلال كالابريا عام 1060 م، نقطة انطلاق لاحتلال صقيلية من قبل الأخوين روبرتو وروجيرو.

روجيرو الثاني: وهو ابن روجيرو التافيلا، وقد كان أول ملك لصقلية، حكم ما بين عامي 525–549 هـ/1130–1154 م. أرسل حملات عسكرية إلى شمال إفريقيا واستطاع احتلال قسم كبير من سواحلها، والمسماة اليوم تونس، وقام بعدة هجمات ناجحة ضد الإمبراطورية البيزنطية، والتي وجدت نفسها مضطرة للخضوع لرغباته في السيطرة على الغرب.

غوليمو الأول: ملك صقلية حكمها ما بين عامي 549–562 هـ/1154–1166 م، وقد قامت خلال فترة حكمه عدة انتفاضات من نبلاء صقلية. أما المهدي عبد المؤمن فقد استطاع تحرير شمال إفريقيا الذي احتل من قبل روجير الثاني.

غوليمو الثاني: ملك صقلية ما بين عامي 567–585 هـ/1171 م، إلى عام 1189 م، بفضله تم إنجاز تحديث مهم على النظام الإداري، وأعطى دفعاً قوياً للفن والثقافة، وقد تمتعت صقلية خلال فترة حكمه بهدوء واستقرار سياسي وتعايش سلمي بين مجموعات الشعوب ذوي المعتقدات الدينية المختلفة.

الفاطميون: قرنان من التفوق

أولريكه الخميس



مسجد المهدية الكبير

فاطمي، زيري (بدأ البناء في 303 هـ/916 م)
المهدية، تونس

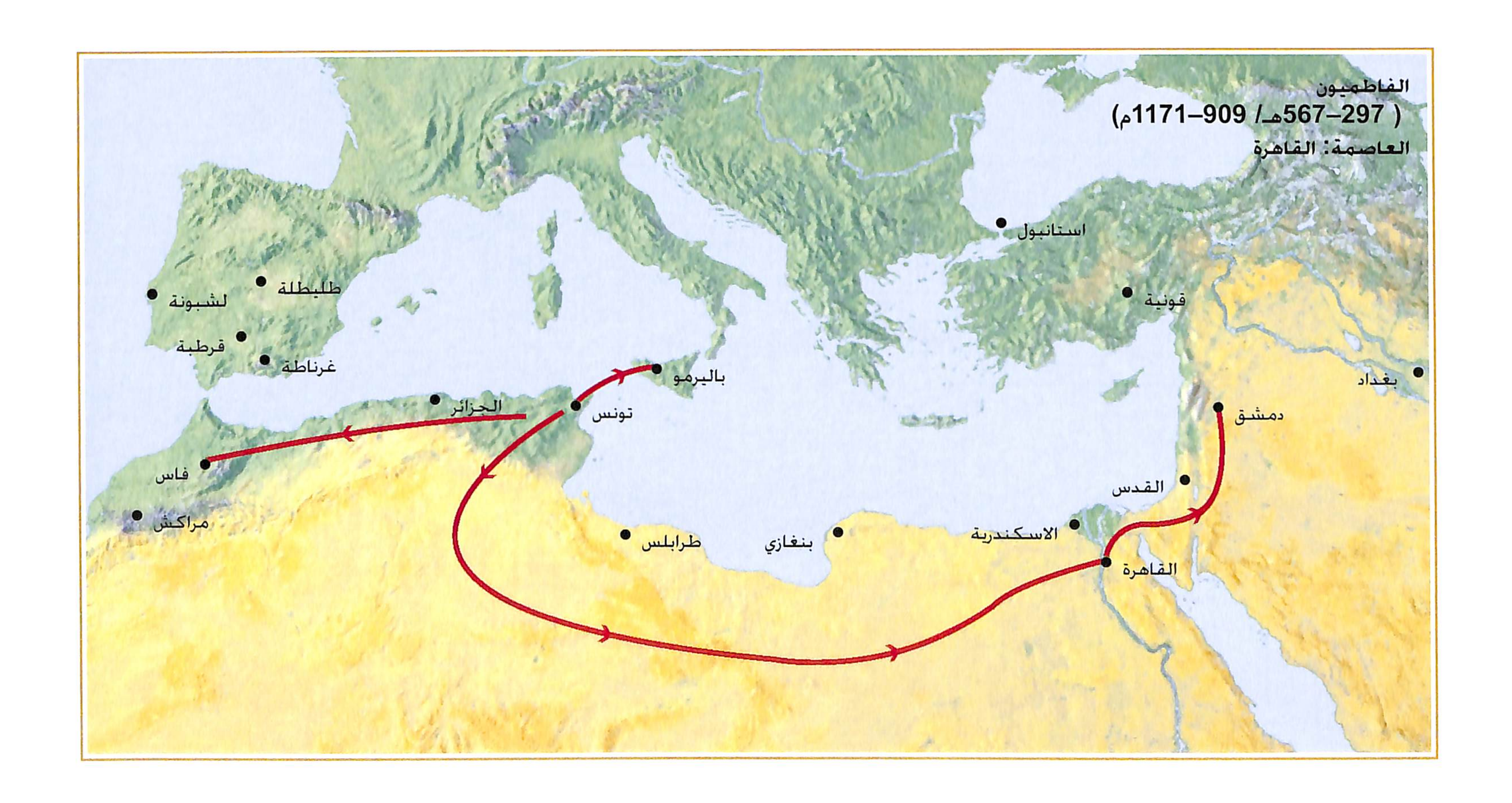
الفاطميون: قرنان من التفوق

إن اغتيال الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب في الكوفة، ومقتل ابنه، الإمام الحسين بن علي، حفيد النبي محمد، في كربلاء هو الذي أدى إلى ظهور الحركة الشيعية، وهي حركة ادَّعت حقها في الخلافة، من منطلق تحدُّر قادتها من النبي، عبر ابنته فاطمة.

ومع أنها تعرضت لملاحقات ضارية من جانب الأمويين والعباسيين، فإن صيَغًا مختلفة من العقيدة الشيعية نجحتْ في الانتشار عبر العالم الإسلامي، طولاً وعرضاً، وسرعان ما وصلت إلى شمال إفريقيا. وهنا بالذات تمكَّنت جماعة من الدعاة الشيعة، بقيادة أبي عبيد الله المهدي، من الوقوف على قدميها، وأعلنت استهدافها الاستيلاء على الخلافة الإسلامية.

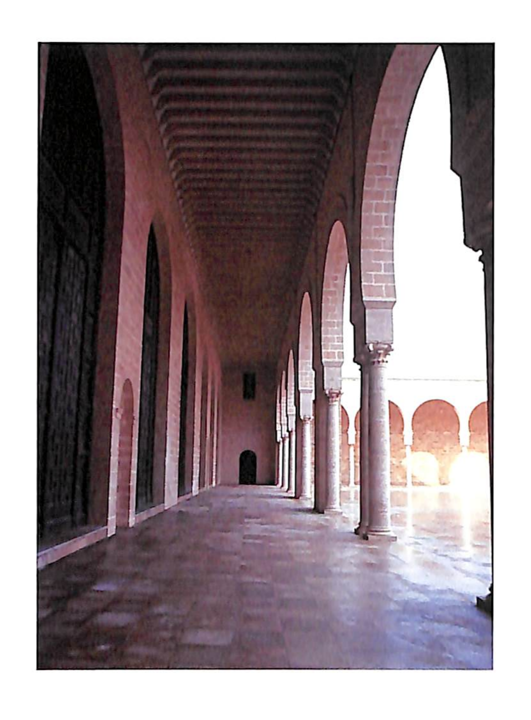
وعلى الصعيد العملي كانت الخلافة الفاطمية قد وُلدت في الرقادة بإفريقية (تونس الحديثة)، حيث نجحت الحركة أولاً في اغتصاب عرش الأغالبة المحليين في عام 297 هـ/910 م.

تمثلت العاصمة الفاطمية الأولى بـ "المهدية"، التي شيدت تحت إشراف أبي عبيد الله المهدي في عام 308 هـ/914 م. تبنتْ الحاضرةُ خطةً مبتكرة مصممة لتعكس مركزية الخليفة الشيعي، وفقاً لنظرة الفاطميين إلى العالم، تلك النظرة التي سرعان ما فعلت فعلها في مظهر



سائر المدن الفاطمية اللاحقة: بدلاً من الجامع صار القصر الغني بالزخارف، متعدد الطبقات للخليفة، وهو الزعيم السياسي، من ناحية، والمرشد الروحي للفاطميين، من ناحيةٍ ثانية، يحتل قَلْبَ المدينة بالذات، وينظر من علٍ إلى الجامع الرئيسي المنتصب قرب أسوار المدينة.

وبعد عددٍ من السنوات، وفي ظل الحكم المتنور للخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله (الذي حكم من عام 341 إلى 363 هـ/من 953 إلى 975 م)، ما لبثت الأحوال الاقتصادية المزدهرة على نحوٍ لافت للدولة الفتية أن وفَّرَتْ مُناخاً ملائماً للسعي أخيراً إلى استعادة الخلافة كلها. وكجزء من خطته الكبرى سيّر الخليفة المعزّ قائده العسكري "جوهر الصقلي" شرقاً لاجتياح مصر. وفي عام 357 هـ/969 م، دخل المعزّ القاهرة مظفراً وأرسى قواعد عاصمة جديدة: القاهرة، مازالت آثارها باقية إلى اليوم في قلب القاهرة الحديثة.



مسجد المهدية الكبير
مشهد الرواق المحيط بالباحة

فاطمي، زيري (بدأ البناء في 303 هـ/916 م)
المهدية، تونس

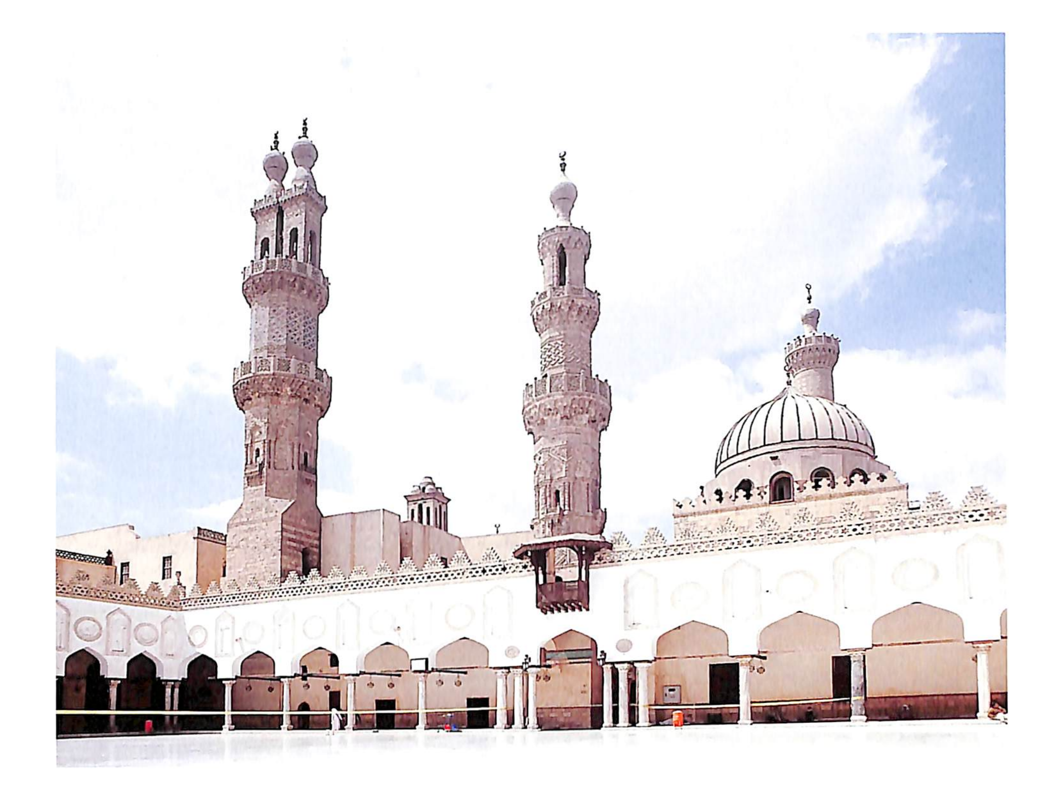
أعلى يمين
مسجد المهدية الكبير
المحراب (تفصيل)

فاطمي، زيري (بدأ البناء في 303 هـ/916 م)
المهدية، تونس



باب الفتوح

فاطمي (480 هـ/1087 م)
القاهرة، مصر



مسجد الأزهر
فاطمي (359–361 هـ/970–972 م)
القاهرة، مصر



أسفل يسار
أجزاء منبر من مسجد أندلسي
لوحان جانبيان

فاطمي تونسي (369 هـ/980 م)
متحف باثا
فاس، المغرب

أجزاء منبر من مسجد أندلسي
لوح خلفي

أموي أندلسي (375 هـ/985 م)
متحف باثا
فاس، المغرب

كانت القاهرة مطوقة بسورٍ له ثمانية أبواب، أحدها: "باب الفتوح" الذي مازال موجوداً إلى يومنا. أما حكم شمال إفريقية فأحيل إلى أتباع للفاطميين عُرفوا بالزيريين الذين ما لبثوا أن سارعوا إلى استغلال الفرصة لتحقيق الاستقلال، والارتداد عن المذهب الشيعي، والعودة إلى الإسلام السنّي.

في القاهرة، أيضاً، كان "مجمَّع الخليفة" العملاق المعروف باسم الشرقي، أو القصر الشرقي، يحتل مركز القلب من الحاضرة، ويشغل ما يزيد على 17 فداناً، خُمْس المدينة كلها. وفيما بعد جرى بناء القصر المعروف باسم القصر الغربي، مقابل المجمع الأول، مع ترك ساحة عامة فاصلة بين الاثنين.

لم يبق، ولا يُعرف، إلا القليل عن هذين القصرين، إلا أن المصادر التاريخية تأتي على ذكر مقابر

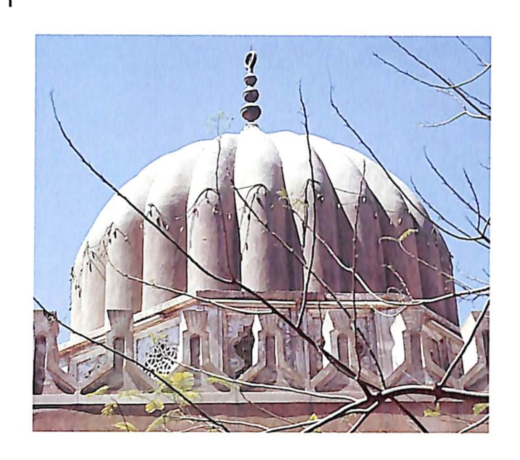
داخلية وأضرحة لحكام فاطميين، كان من شأنها أن تعزز أجواء القداسة المحيطة بها.

ومع توسع الدولة، انتقلت مفاهيم العمارة الملكية الفاطمية إلى أرجاء بعيدة، مثل صقلية، وظلت مصدر إلهام لمشاريع البناء الملكية هناك إلى ما بعد الفتح النورماندي بزمن غير قصير. كذلك بذل الفاطميون جهوداً كبيرة لبناء وتجهيز وصيانة الجوامع، في سبيل نشر معتقداتهم الشيعية. فسواء في المهدية، قاعدتهم الإفريقية، أم في عاصمتهم البهية القاهرة، ذات المجمعات المدهشة مثل: جامعي الأزهر والأقمر، أم في أقاليم بعيدة مثل صقلية، كانت الجوامع الفاطمية بمداخلها، مصممة لتكون منارات للدعاية الشيعية.

عمرانيّا، تتميز جوامع الحقبة الفاطمية بمداخلها البارزة التي تذكّر بـ «أقواس النصر» الرومانية، بقبابها الحجرية المنحوتة، وواجهاتها المزخرفة بالنقوش الكوفية، ذات المضامين الشيعية وغياب المئذنة، على نحوٍ لافت جدّا.

والجامع الأزهر، المستند إلى نموذج الجامع الموجود في المهدية، كان الجامع الفاطمي الأول في القاهرة، وقد شيد مركزاً لنشر الفقه الشيعي (علم الكلام الشيعي، واللاهوت الشيعي). لاحقاً تم جعله مركزاً للمذهب السني، وصار الجامعة الإسلامية الأكبر في العالم.

كانت مداخل الجوامع الفاطمية ومفروشاتها نتاج تبرعات سخية، ومزينة بنقوش دينية رشيقة، وزخارف أو نمنمات دقيقة من الأرابسك. كانت الرعاية الملكية توفر أعلى المعايير على صعيد المهارة الحرفية، والتزاماً بالتعبير عن المعتقدات الدينية والإيديولوجية للأسرة الحاكمة، عبر الفن. فأحد أقدم منابر شمال إفريقيا كان قد أوصى بتصنيعه عامل الفاطميين،



مزار السيدة رقية بنت علي بن أبي طالب

فاطمي (527 هـ/1132 م)

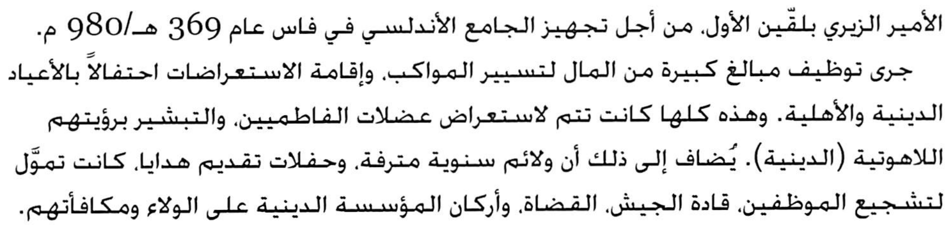
القاهرة، مصر

صفحة من القرآن الأزرق

فاطمي (النصف الثاني من القرن الـ 4 هـ/ 10 م)

متحف الفن الإسلامي، الرّقادة

القيروان، تونس

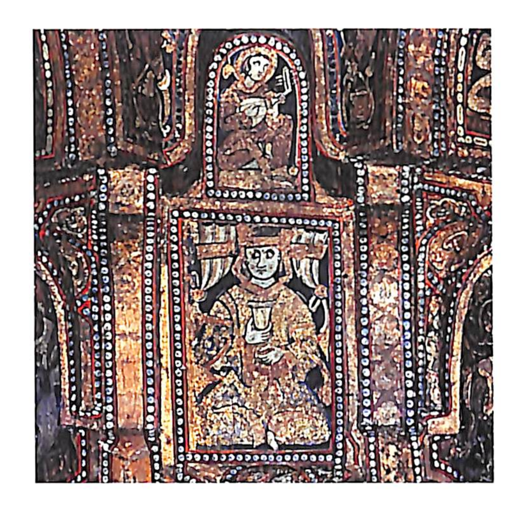


الأمير الزيري بلقّين الأول، من أجل تجهيز الجامع الأندلسي في فاس عام 369 هـ/980 م.

جرى توظيف مبالغ كبيرة من المال لتسيير المواكب، وإقامة الاستعراضات احتفالاً بالأعياد الدينية والأهلية. وهذه كلها كانت تتم لاستعراض عضلات الفاطميين، والتبشير برؤيتهم اللاهوتية (الدينية). يُضاف إلى ذلك أن ولائم سنوية مترفة، وحفلات تقديم هدايا، كانت تموَّل لتشجيع الموظفين، قادة الجيش، القضاة، وأركان المؤسسة الدينية على الولاء ومكافأتهم.

على الرغم من حماستهم الدينية، فإن حياة بلاط الفاطميين، مثلها مثل حياة الحكام التابعين لهم في شمال إفريقيا وصقلية، لم تخلُ من اللهو الذي كان الشعراء، المغنون، والراقصون يوفرونه. ففي شمال إفريقيا درج الفاطميون على الترحيب بعدد من الشعراء المحليين، مثل: التونسيَّيْن ابن هاني واللادي.

فيما بعد، في القاهرة، قام البلاط باستضافة شعراء من سائر أرجاء العالم الإسلامي، وكثيرٌ من الخلفاء انضموا إليهم في تأليف أشعار غنائية.



مصلى القصر

سقف خشبي مطلي (تفصيل)

نورماندي (بين 526–534 هـ/1131–1140 م)

باليرمو، إيطاليا



قطعة عاجية

فاطمي (القرن الـ 5–6 هـ/11–12 م)

المتحف الوطني للآثار القديمة

ستوكهولم، السويد



قطعة معمارية من أحد الحمَّامات

فاطمي (القرن الـ 5 هـ/11 م)

متحف الفن الإسلامي

القاهرة، مصر

ظلت الموسيقى متأثرة بالرصيد الشرقي التقليدي، كما بعناصر من الموسيقى الأندلسية، وقد كانت تؤدّى من قبل عازفين وعازفات على آلات مثل النايات، المصنوعة من القصب، الأعواد، والسناطير. والمغنون المتمكنون من العزف والشعر كانوا ينشدون القصائد المستكشفة لموضوعات الحب والفروسية. وأرباب الأداء الأوفر موهبة، كانوا يكافؤون بسخاء على مهاراتهم.

كان الشطرنج واسع الانتشار، رغم أن الحاكم بأمر الله، المزاجي بعض الشيء، حَظَره في عام 403 هـ/1012 م. كذلك كان الفلك والتنجيم من وسائل ملء الفراغ الشائعة بين الخلفاء، وكان المعز لدين الله، والحاكم بأمر الله، من أشد مناصريهما حماسة.

جاء الجزء الأكبر من تفاصيل حياة البلاط الفاطمي، ولهوه، من مصادر معاصرة، وكان بعض منها منعكساً في صور الكماليات الباقية، التي كان البلاط الفاطمي يستخدمها، أو في المداخل المنقوشة، والمرسومة، التي درج الفاطميون على إحاطة أنفسهم بها.

تكرَّس قدر كبير، من الرعاية، على صيانة الحدائق، البساتين، وأقفاص حَشْدٍ من الحيوانات والطيور الغريبة. وخلف بوابات العقد درجت النخب الفاطمية على ممارسة الصيد والفروسية؛ وهي ممارسة كثيراً ما انعكست صراحة على أبواق الصيد المنقوشة. ومن أنماط الصيد التي قامت على استخدام الكواسر، والكلاب، والخيل، وصيد الطيور، ومطاردة الأرانب البرية، والظباء.

بالاستناد إلى دولة مطّردة الاتساع، نجح الفاطميون في إنشاء صرح حضاري متألق، نافس نظيره لدى الخلفاء العباسيين في بغداد، والأمويين في الأندلس. فحركة التحضُّر، العلوم، الفنون والآداب بلغت ذرًى جديدة، بفضل الرعاية الملكية الواسعة، ليس فقط من جانب أعضاء الأسر الحاكمة الذكور، بل ومن قبل النساء أيضًا، على نحوٍ لافت. فتكريماً لتحدُّرهم من ابنة النبي، وزوج الإمام علي: فاطمة، حرص الفاطميون ليس فقط على إغراق أميراتهم في حياة الترف، بل وعلى تمكينهن من الاضطلاع بأدوار مهمة في الحياة العامة، وهو موقف انعكس إيجابًا على أسلوب تعامل المجتمع المعاصر مع النساء عمومًا.

نساء كثيرات من البلاط شغلن مناصب سياسية مهمة، حتى أن سِتّ المُلْك، أخت الحاكم بأمر الله، حكمت مصر مدة أربع سنوات، بدلاً من أخيها القاصر. نجحت فاطميات كثيرات في



ألواح عاجية

فاطمي (القرن الـ 5–6 هـ/11–12 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية
برلين، ألمانيا

قطعة خشب مضلعة

ربما جزء من إفريز قديم

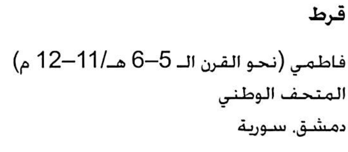
فاطمي (القرن الـ 5 هـ/11 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر



إدارة ثرواتهن، وكن نشيطات في التجارة، بل ومالكات لمراكب تجارية، كانت تنقل البضائع إلى أمكنة بعيدة.

أنماط الحياة المرفهة، كانت تشهد على ثرواتهن الشخصية، إذ إن أميرة تُدْعى عَبْدة تركت لدى موتها عدداً كبيراً من الصناديق الملأى بالمجوهرات والكنوز إلى درجة أن خَتْمها تطلَّب 14 كيلوغراماً من الشمع، واحتاج تسجيل محتوياتها 30 رزمة من الورق.

أقدمت أميرات فاطميات كثيرات على وَقْف قصور ومؤسسات دينية. ونعلم أن قاعة في القصر الغربي بالقاهرة، كانت مخصصة لست الملك، ومبطنة بألواح خشبية محفورة، تمثل



قرط

فاطمي (نحو القرن الـ 5–6 هـ/11–12 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية



محراب خشبي
تم بناؤه لضريح السيدة رقية

فاطمي (القرن الـ 6 هـ/12 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر

مشاهد من حياة القصر والقنص. كذلك في القاهرة، أوعزت زوج الخليفة الآمر بأحكام الله بإنجاز مزار مزخرف للسيدة رقية، عليه نقوش بالخط الكوفي، خلدت رعايتها له. وكان المزار مؤثثاً، بين أشياء أخرى، بمحراب خشبي فخم.

إضافةً إلى رعاية عمارات دينية غنية بالزخارف، اهتم الفاطميون بأمر رئيسي آخر، ألا وهو النسيج. على امتداد الفترة الفاطمية، اشتهرت مصر بأقمشتها الترفية الفاخرة، خصوصاً تلك المنتجة في ورشات النسيج المعروفة باسم دور الطراز، في عدد من المدن مثل: دمياط، دابق، تنيس، الإسكندرية، وشطا.

كلمة "طراز" الفارسية، تعني حاشية زينة مزركشة، موصولة بطرف قطعة قماش على واجهات الأثواب أو أكمامها. وكان الطراز يشتمل على الدعوات مع اسم الخليفة الحاكم، أو ولي الأمر، ذي المنصب الرفيع الذي صنع من أجله. وفي مناسبات خاصة كان الخلفاء الفاطميون يختارون منسوجات وأثواب الشرف الأغنى تطريزاً وزركشةً لمكافأة النبلاء وأركان البلاط، من أمثال رئيس الوزراء، الذي كان يحصل على 30 طقمًا، كان حرًا بدوره في أن يوزعها على مساعديه.

منديل

فاطمي (365–386 هـ/975–996 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر



أثواب أخرى كانت تُمنح لضيوف البلاط الكبار، أو في الاحتفالات والأعياد، حتى للبعض من العامة. تنوعت أطقم الطراز من حيث النمط، والأسلوب، تبعًا لمرتبة المستفيدين منها. فالحرير المُذهَّب كان للأمراء من أصحاب السمو، وأنواع مختلفة أخرى من الحرير كانت توفَّر لأركان الجهاز الحكومي.

داخل القصر في القاهرة، كانت خزانة الخليفة الخاصة، بما فيها من ملابسه الطرازية الشخصية، خاضعة لإدارة مسؤولة مع 30 جارية؛ وكانت ثمة حديقة قريبة تنتج ورودًا فوّاحة لتعطير أثوابه. خزانة بلاطية أخرى لأغراض المجاملة العامة، كانت تُصان من قبل موظف كبير، وخياط رئيسي مع مساعديه.

تبقى أثواب الطراز الفاطمية الكاملة نادرة، إلا أن المزَق الموجودة تؤكد صحة النصوص التي تصفها في المراجع المعاصرة. أعداد كبيرة منها كانت مصنوعة من حشد من الألوان، من الكتان أو الحرير ومطرزة بالحرير. فالمراجع لا تكف عن الإتيان على ذكر منسوجات مزينة

قطعة قماش حياكة كتان وحرير

فاطمي (570–596 هـ/1174–1199 م)

المتحف الملكي، متاحف سكوتلندا الوطنية
أدنبره، المملكة المتحدة



بصور رمزية، غير أن أكثرية المزق الموجودة لا تبين إلا أشرطة طراز منقوشة، أو ذات رسوم مجردة مُنْعَشة أحيانًا بأشكال حيوانية صغيرة.

لا يُحتفى في الروايات المعاصرة إلا بالقليل من بقايا أسباب الترف الأسطورية لدى الفاطميين. غير أن من المؤكد أن الفنون الثانوية بلغت ذرى جديدة على الصعيدين النوعي والكمي كليهما. ثمة حرفيون ذوو مهارات عالية أنتجوا آثارًا فنية معقدة، بوسائل متنوعة، تلبية لمواصفات حشد متنوع من الزبائن: في البلاط، كما في المدن، على حدٍّ سواء.

بقيت الأشياء الأروع محجوزة للبلاط الفاطمي. فالأمراء وأعضاء الحاشية كانوا يتبارون على اقتناء أوانٍ منحوتة من الكوارتز المستورد، ذي القيمة العالية. كذلك الزجاج كان يُستخدم على نطاقٍ واسع. وقد ساهمت الرعاية الفاطمية في تمكين صناعة الزجاج بالفسطاط من اعتماد أعلى المعايير التكنولوجية في عمليات النفخ، السبك، التفصيل، والنقش النافر.

شكَّل التلميع، أو الصقل، ميزة خاصة. كانت الزخارف اللماعة على الزجاج معروفة في مصر منذ القدم، وقد نُقلت لاحقًا إلى الأواني الخزفية. وبالفعل فإن أواني الخزف المصقولة

قطعة قماش حياكة كتان
تقول الكتابة: «النصر من الله»

فاطمي (أواخر القرن الـ 5– أوائل القرن الـ 6 هـ/12 م)

المتحف الملكي، متاحف سكوتلندا الوطنية
أدنبره، المملكة المتحدة



سرعان ما حققت، بفضل رعاية الفاطميين للخزافين المهاجرين، ازدهارًا في إنتاج الخزف الفاطمي، الذي اشتمل أيضًا على أنماط أخرى من الأواني الخزفية المصقولة.

ثمة صناعة مزدهرة أخرى تكرست لصياغة المعادن. ثمة حرفيون تخصصوا في إنتاج حيوانات وطيور ثلاثية الأبعاد، أوانٍ مصبوبة أو مطروقة، أدوات علمية كالإسطرلابات، وأدوات جراحية.

ويتميز حفر الخشب الفاطمي بتقنيته الدقيقة على صعيد النقش النافر المنفذ في أنواع مختلفة من الخشب المحلي والمستورد. أحيانًا كانت الألواح الأخيرة مدهونة، مطلية ومعالجة لتكون مقاومة للاحتراق.

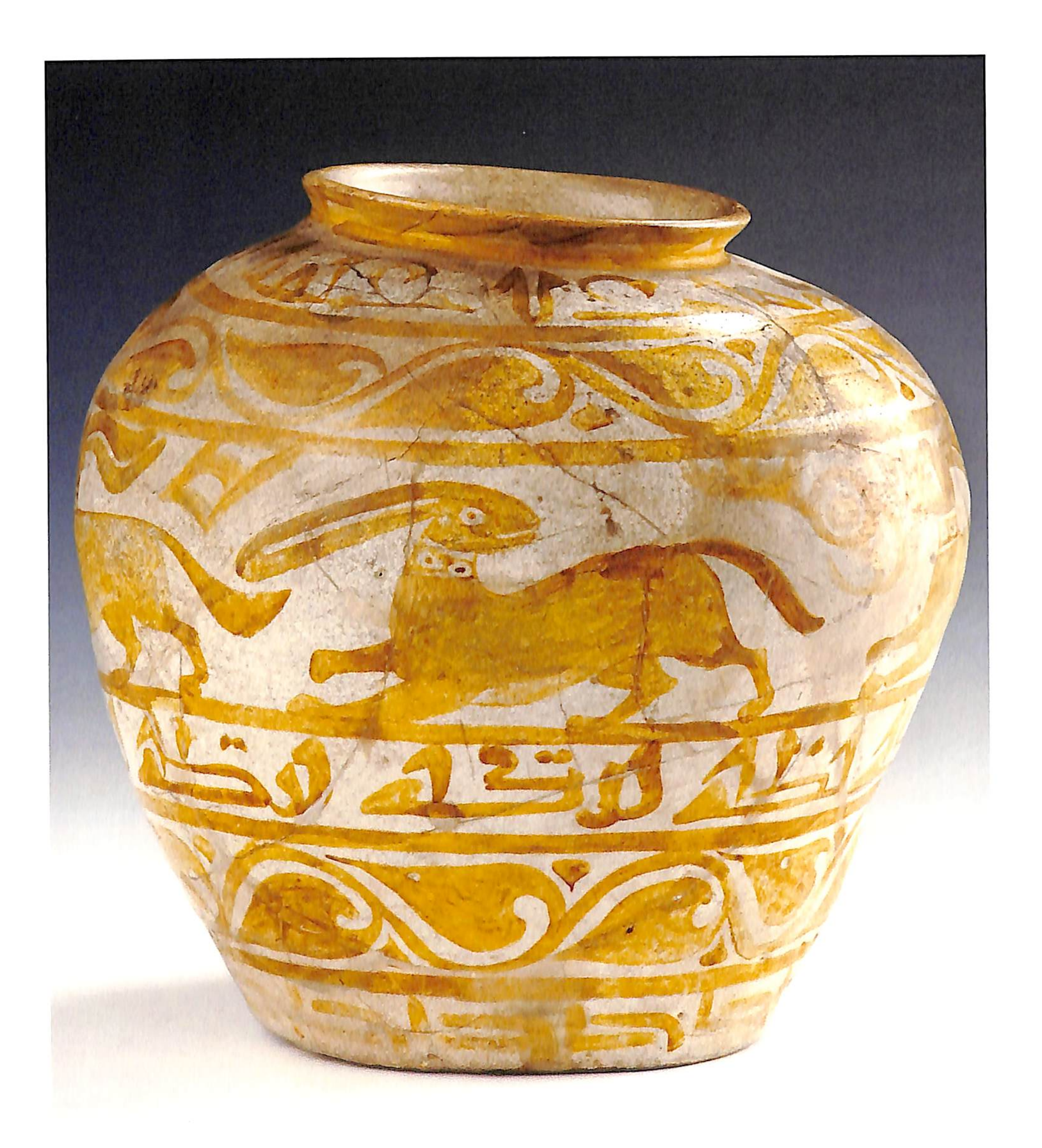
أشكال العاج، وأنماط العظام الأخرى، كانت بالمثل تُحفر وتستخدم حشوات وزخارف لطَيْفٍ من المنتجات.

يتجلى الثراء المادي للأسرة الحاكمة الفاطمية أيضًا في سك العملة. فالدنانير الذهبية، الدراهم الفضية، والفلوس النحاسية، الفاطمية كانت متداولة على نطاق واسع. وتم بلوغ قدر دقيق من الوزن، الذي صار ممكنًا للمرة الأولى بفضل أوزان زجاجية، كانت مدموغة بالعنوان ذي العلاقة وباسم الحاكم.



زبدية

فاطمي (القرن الـ 5–6 هـ/11–12 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة



جرة
مزينة بالنقش المتكرر لكلمة «بَرَكَة»

فاطمي (أواخر القرن الـ 4– أوائل القرن الـ 5 هـ/ أواخر القرن الـ 10– أوائل القرن الـ 11 م)
مجموعة بورل، متاحف غلاسكو
غلاسكو، المملكة المتحدة

الصفحة المقابلة
إبريق
منحوت من قطعة بلور صخري واحدة

فاطمي (391–452 هـ/1000–1060 م)
متحف فكتوريا وألبرت
لندن، المملكة المتحدة





علبة عاج

فاطمي (القرن الـ 4–5 هـ/11–12 م)
متحف الفن الإسلامي
برلين، ألمانيا



دينار
مضروب في المهدية، في عهد الخليفة الفاطمي العزيز

فاطمي (380 هـ/990 م)
متحف الآثار
العقبة، الأردن

غطّى مَجْدُ الفاطميين نحو قرنين اثنين من الزمن، غير أن سيادتهم لم تدم: فوصول الفرنجة في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، والتدهور الاقتصادي، وفساد الحكم، مع عدد من الأوبئة الخطيرة، تضافرت جميعًا على الإطاحة النهائية بهذه السلالة المتألقة، التي ما لبثت شمسُها أن انطفأت على يد صلاح الدين الأيوبي في عام 567 هـ/1171 م.

النساء والسلطة في حوض البحر المتوسط الإسلامي

جميلة بينوس



قطعة لوحة جدارية
ربما مغنية جُلبت من الحجاز لتغني في القصور الأموية بالبادية السورية

أموي (109 هـ/727 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية

النساء والسلطة في حوض البحر الأبيض المتوسط الإسلامي

إقصاء النساء عن المجالات العامة، وبالأخص عن الحياة السياسية، هي فكرة سابقة للإسلام. ففي صياغته الفلسفية لمفهوم المدينة، طوَّر أرسطو مشروعًا تختفي فيه النساء كلية من النشاطات العامة، ولا تخرجن عن نطاق الحياة المنزلية. لا بل أنه يؤكِّد في كتابه "السياسة" أن «الطبيعة خلقت جنسًا قويًا، وجنسًا ضعيفًا». ولم يبتعد المجتمع الإسلامي عن تبني هذه الفكرة، مثله في ذلك مثل الديانات التوحيدية الأخرى.



قطعة حرير
عائدة لزوجة حاكم القدس العثماني

عثماني (1245 هـ/1830 م)
المتحف الإسلامي، ومكتبة الأقصى
القدس

إننا لنقبل أن يكون إقصاء المرأة حقيقة تاريخية. لكننا نقبل في الوقت نفسه، أن تلك ليست سوى حقيقة من بين غيرها من الحقائق. وقد تمّ إبرازها من قبل التوجُّهات المعادية للمرأة في الإسلام، التي أخفت تمامًا حقيقة تاريخية أخرى عن نساء اقتحمن طريق السلطة السياسية. ونادرًا ما تُذكر تلك النساء، لا بل أن كتّاب التاريخ الرسميين لزموا الصمت الكامل تجاههن.

فمن هنّ تلك النساء، وكيف استطعن النجاح في الاقتراب من السلطة؟

إن الإسلام يمتد في الزمان، وفي المكان، إلى درجة تجعل من تطور المرأة أمرًا يتفاوت، بل ويحمل خصوصيات إقليمية، تأتت من التداخل ما بين الثقافة الإسلامية، والثقافات التي كانت موجودة قبلها.

لم تجرؤ أية امرأة من اللواتي كن زعيمات دول، أن تنسب لنفسها لقب خليفة، أو إمام، وهي كلمات لا يمكن أن تُستخدم إلا بصيغة المذكر. فالخليفة كممثل للنبي، لديه مهمة روحية ترتبط بالقانون الإلهي. والإمامة (اتجاه القبلة) كانت باتفاق من السلطات الدينية ممنوعة على النساء.

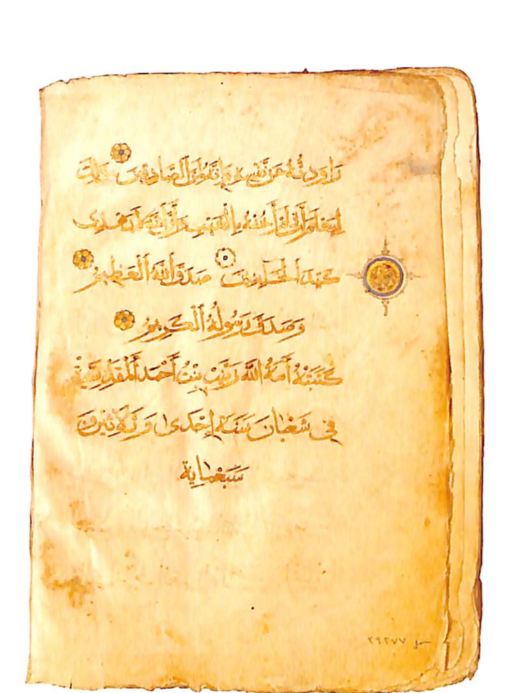
بالمقابل، فإن السلطان والملك اللذين يُعنيان بإدارة مصالح الرعايا في الأرض، لهما ما يقابلهما من تسميات في صيغة التأنيث، مثل: سلطانة وملكة. وكانت هناك ألقاب أخرى أُعطيت للنساء اللواتي مارسن السلطة من بينها: حرّة، وسيدة، وست، وخاتون.

على خطى عائشة، زوجة النبي

طوال تاريخ الحضارة الإسلامية، كان ثمة نساء غير عاديات، أبدين الطموح لمضاهاة نساء الرسول، وصنع بصماتهن الخاصة في التاريخ.

عائشة، زوجة الرسول المُفضَّلة، هي أول مسلمة طالبت بعمل سياسي، ومارسته، بما في ذلك العمل العسكري، حيث قادت عدة آلاف من الرجال، في معركة.

ولدى البربر، كانت الملكات وزعيمات القبائل عديدات، ربما لأن القوانين المعتادة لديهم، كانت تعترف للنساء بحق الوصول إلى السلطة السياسية!.. ويقدم لنا ابن خلدون صورة مشرّفة عن «دهيا» ملكة الأوراس، التي أطلق عليها لقب "كاهنة". فقد وصفها على أنها «أكثر أمراء البربر إثارة للرعب». وقد قاتلت، حتى الموت، جحافل الفتح العربي في عام 96 هـ/688 م.



جزء من القرآن
نسخ الخطاطة زينب بنت أحمد المقدسية

مملوكي (731 هـ/1330 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر

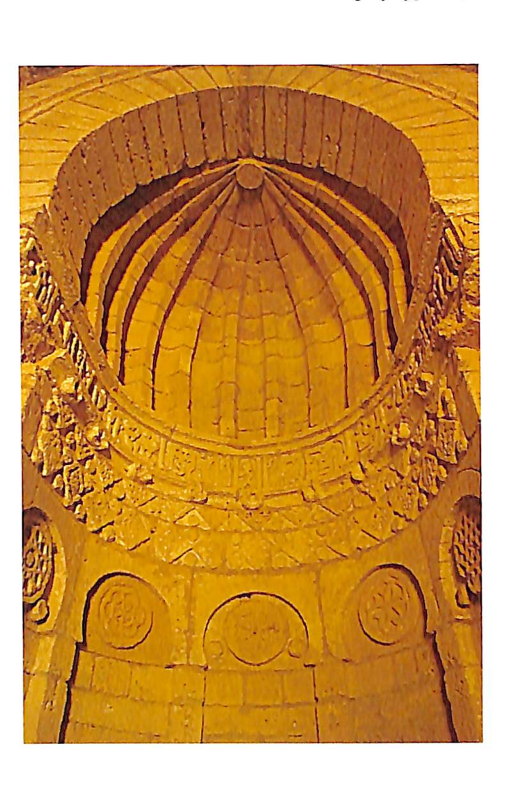


مكحلة
كان الكحل يُستخدم لتجميل العيون وعلاجها

مملوكي (القرن الـ 8–9 هـ/14–15 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر

رباط السيدة ومسجدها
محراب (تفصيل)

أغالبي، زيري (منتصف القرن الـ 3 هـ/9 م)
المنستير، تونس



أما العصر الفاطمي فقد عرف سيدتين هما "سعيدة الصنهاجية"، التي بايعتها قبيلتها في الثاني من حزيران (يونيو) عام 406 هـ/1016 م، وحكمت إفريقيا، و"ستّ المُلك" التي ولدت في عام 359 هـ/980 م، وتولت الحكم بعد شقيقها الحاكم بأمر الله، الخليفة السادس لأسرة الفاطميين، التي حكمت مصر.

وأشهر الملكات في العالم الإسلامي المتوسطي هي "شجرة الدر"، زوجة الحاكم السابع في السلالة الأيوبية في مصر، والذي مات عام 647 هـ/1249 م. وقد فرضت وجودها بفضل حسّها الاستراتيجي، ونالت النصر الحاسم ضد الفرنجة في دمياط، وأسرت الملك الفرنسي لويس التاسع.. ألا يماثل لقبها «ملكة المسلمين» لقب الخليفة؟..

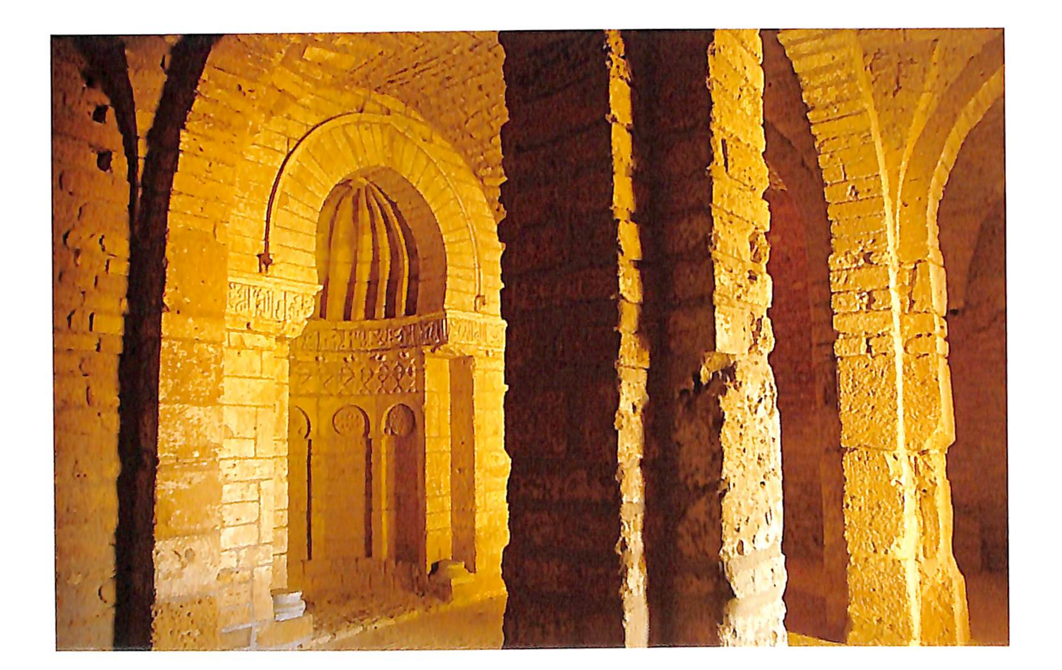
في إيران، قامت توركان خاتون، زوجة ملك شاه، بخلافة زوجها على الحكم ما بين عام 465 هـ/1072 م، وعام 485 هـ/1092 م. وقد امتد نفوذها من الصين إلى سورية. ولكي تدافع عن نفسها تجاه الطامعين في السلطة، طلبت الدعم من الخليفة العباسي المقتدي، فتنازل لها عن الملك، أي عن إدارة الأراضي، لكنه لم يرضخ لطلبها ميّزة الخطبة التي مارستها باسم ابن الخاتون، رغم صغر سن الطفل (أربع سنوات).

في المغرب، وفي عصر المرابطين، كانت «زينب النفذوية» تتقاسم السلطة مع زوجها يوسف بن تاشفين. وفي الجزائر في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، كانت «ست النسا»، والدة سلطان تلمسان، قد وقعت معاهدة سلام مع السلطان الحفصي في تونس.

في الأندلس، في فترة الانحدار استطاعت «عائشة الحرة»، المعروفة لدى الإسبان باسم السلطانة أم بوعبديل (أبو عبد الله الصغير)، أن تنتزع إعجاب أعدائها، وأن تقاوم حتى سقوط غرناطة.

هناك أيضًا مغربية من أصل أندلسي هي «سعيدة الحرة» التي مارست القرصنة، وصارت حاكمة تطوان. وقد تزوجت للمرة الثانية من ملك المغرب أحمد الوطّاسي.

كان يمكن لنا أن نعدد الأمثلة، لكننا لا بد أن نذكر حقيقة ثابتة، هي أنه في كل مرة كانت المرأة فيها تنال السلطة، كان يُنظر إلى الأمر على أنه تعدٍّ، واختراق للحدود. لكن هذه الحدود التي كانت تُذكر على أنها من المجال الروحي، ومن الشريعة، ليست في حقيقة الأمر سوى صياغة بشرية، وتفسيرًا للنصوص، وبالتالي يمكن لها أن تتطور حسب العصور، والأمكنة، كما برهن لنا التاريخ.



رباط السيدة ومسجدها
مشهد قاعة الصلاة والمحراب مع أعمدة متصالبة داعمة قبابًا محنية

أغالبي، زيري (منتصف القرن الـ 3 هـ/9 م)
المنستير، تونس

الصفحة المقابلة
صفحة من القرآن
عائدة لفاطمة الخادنة، مربية الأمير الزيري باديس

فاطمي، زيري (410 هـ/1020 م)
متحف الفن الإسلامي، الرقّادة
القيروان، تونس


المستقيم صراط
الذين انعمت عليهم
غير المغضوب
عليهم ولا الضالين
فاتحة سورة البقرة

النساء والسلطة: ثلاثة أمثلة

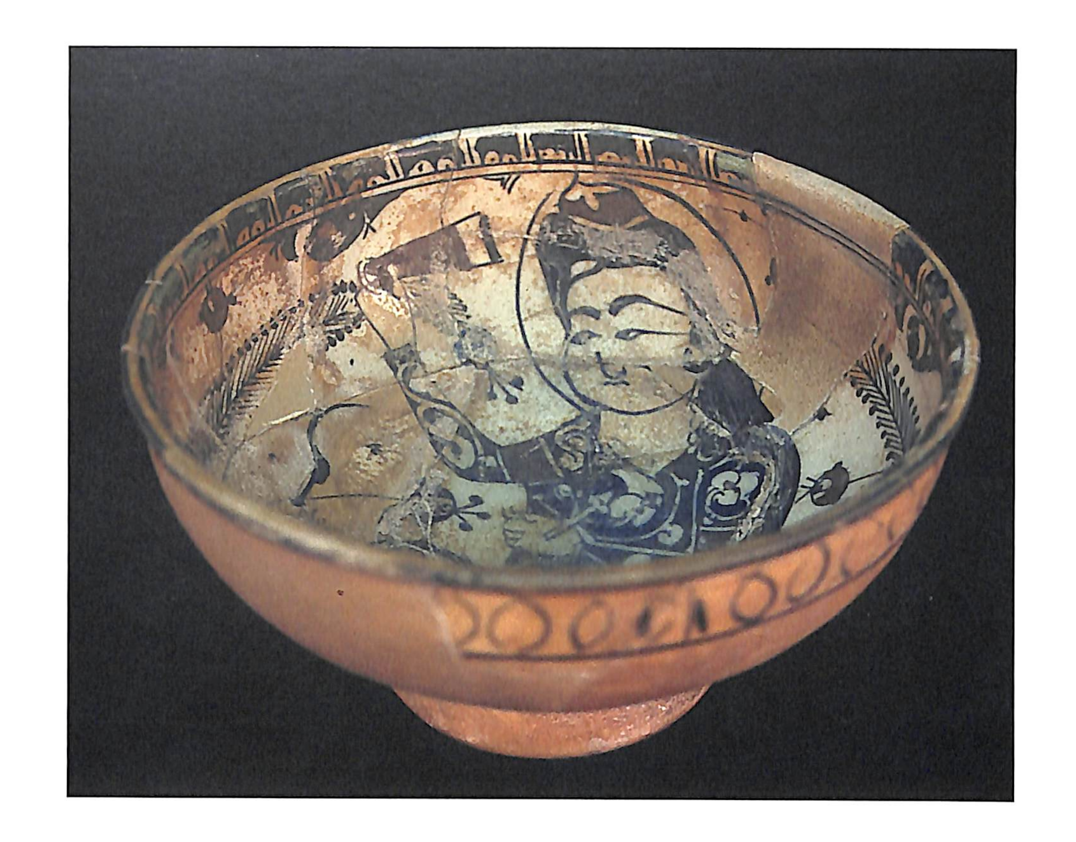
عائشة، أول امرأة مسلمة على الساحة السياسية

توصف عائشة زوجة الرسول بأنها «أعلم النساء في علوم الدين» وقد قادت انتفاضة ضد الخليفة الراشدي الرابع علي ابن أبي طالب في 36 هـ/658 م. ولكي تحضّر المواجهة معه ذرعت المساجد وحرّضت الجموع طالبة من الناس أن يحملوا السلاح ضد علي. كما ذهبت في حملة لتجمع المناصرين من بين أتباع النبي الذي كانوا حكّام الأقاليم. وقد تسنى لها أن تجمع عدة آلاف من البشر وتقوم بمعركة ضد علي. وكانت المرأة الوحيدة في ساحة المعركة التي تركب على جمل وتقود العمليات. وقد عُرفت المعركة باسم "موقعة الجمل" نسبة إلى الجمل الذي كانت تركب عليه عائشة. سقط في هذه المعركة سبعة آلاف مسلم في عدة ساعات. وكانت تلك أول حرب أهلية رسمت الانشقاق ما بين الشيعة والسنة.



عقد ذهبي

أيوبي (أواسط القرن الـ 7 هـ/13 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر



زبدية
أيوبي (القرن الـ 6–7 هـ/12–13 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية

شجرة الدر، أو حبّ السلطة

شجرة الدر، جارية من أصل تركي، أعتقها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذي اتخذها محظية ثم زوجة. رزقا بابن لم يكن عمره أكثر من أربع سنوات عندما توفي أبوه في عام 648 هـ/1250 م. كان الأيوبيون وقتها يحكمون مصر وسورية، ويعترفون بالخليفة العباسي في بغداد.

لم تكن ممارسة السلطة أمرًا غريبًا على شجرة الدر. فمنذ أن كان زوجها حيًا كانت تهتم بالسياسة، وعلى الأخص بالجيش. وكان القرار الأول الذي اتخذته هو أن تخفي أمر موت السلطان، وأن تنظّم الهجمات على الفرنجة الذين كانوا يحاصرون مصر تحت قيادة سان لويس.

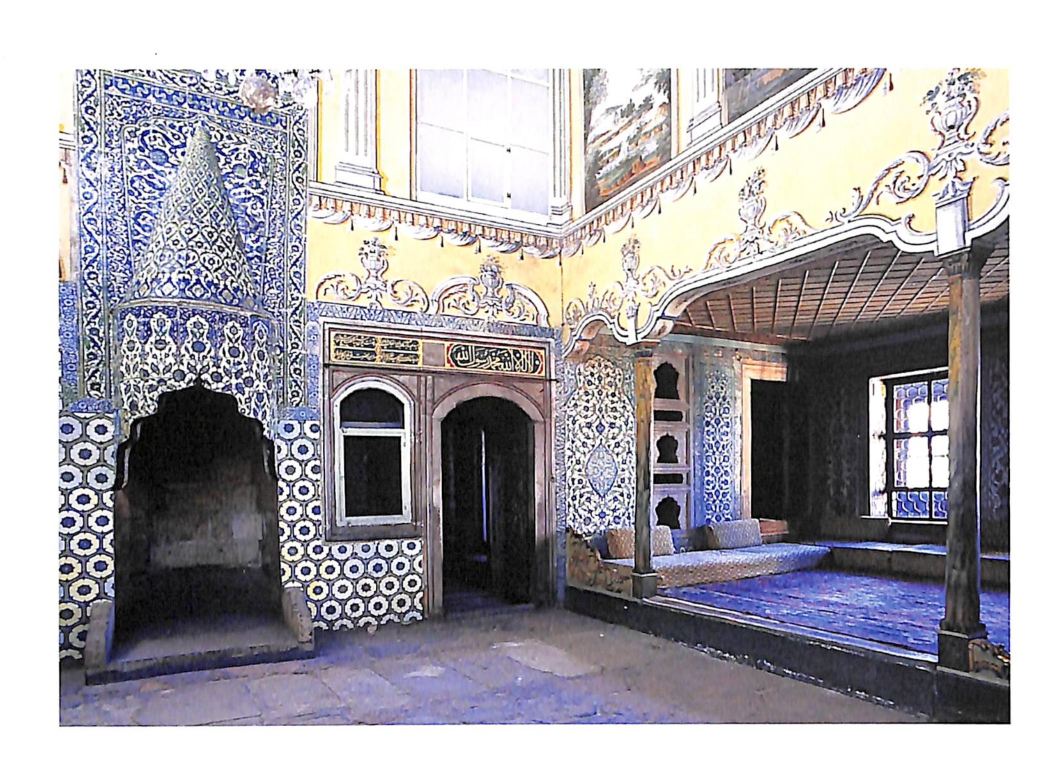
بعد الانتصار في دمياط، ولأنها كانت تعرف كيف تخطط، طلبت من الخليفة المستعصم أن يعترف بها، لكنه رفض. حاولت شجرة الدر أن تلتفّ على الأمر، واتخذت لنفسها لقب «ملكة المسلمين». لكن موقف الخليفة أضعف سلطتها، كما أن المسؤولين عن سورية رفضوا الاعتراف بها، فانقسم الجيش.

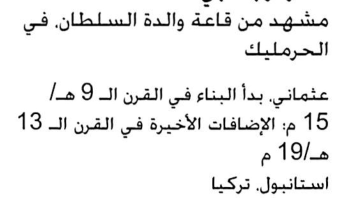
تم اختيار قائد كمرشح للزعامة، وتم تقديمه إلى الخليفة، فسارعت شجرة الدر للزواج منه، وفرضت أن تكون الخطبة في كل مساجد القاهرة باسم الحاكِمَين. كما أنها حرصت على أن تضرب عملة باسمها واسم زوجها، وألا تخرج أية وثيقة من القصر دون أن تحمل توقيعهما معًا.

عائشة الحرة في غرناطة قبل الانحدار بقليل

كانت عائشة الحرة «السلطانة أم بوعبديل» زوجة السلطان علي أبي الحسن، ملك غرناطة في عام 866 هـ/1461 م. ولها ابنان هما محمد أبو عبد الله (المعروف باسم بوعبديل)، ويوسف. كانت تشغل جناح من قصر الحمراء، الذي يحتوي على باحة السباع الشهيرة.

ما دفع بعائشة الحرة نحو الساحة السياسية كان خيبة زوجية. فقد وقع زوجها في حب جارية إسبانية جميلة اسمها إيزابيل، اعتنقت الإسلام باسم ثريا. وقد أعتقها السلطان وتزوجها، وأنجبت له أطفالاً، مما دعم موقعها وسمح لها أن تعمل من أجل انتصار أهلها.





قصر توب قابي
مشهد من قاعة والدة السلطان، في الحرمليك

عثماني، بدأ البناء في القرن الـ 9 هـ/ 15 م؛ الإضافات الأخيرة في القرن الـ 13 هـ/19 م
استانبول، تركيا

تجمعت نخبة غرناطة حول عائشة، التي قررت أن تخلع الأب عن العرش، وأن تستبدله بابنه أبي عبد الله، في عام 887 هـ/1482 م. قادت عائشة المقاومة، ونظّمت الهجمات خلال السنوات الست التي حكم فيها ابنها.

الغرب الإسلامي بعد الأمويين

غاسبار آراندا، وكمال الأخضر



الحمراء
باحة الأسود

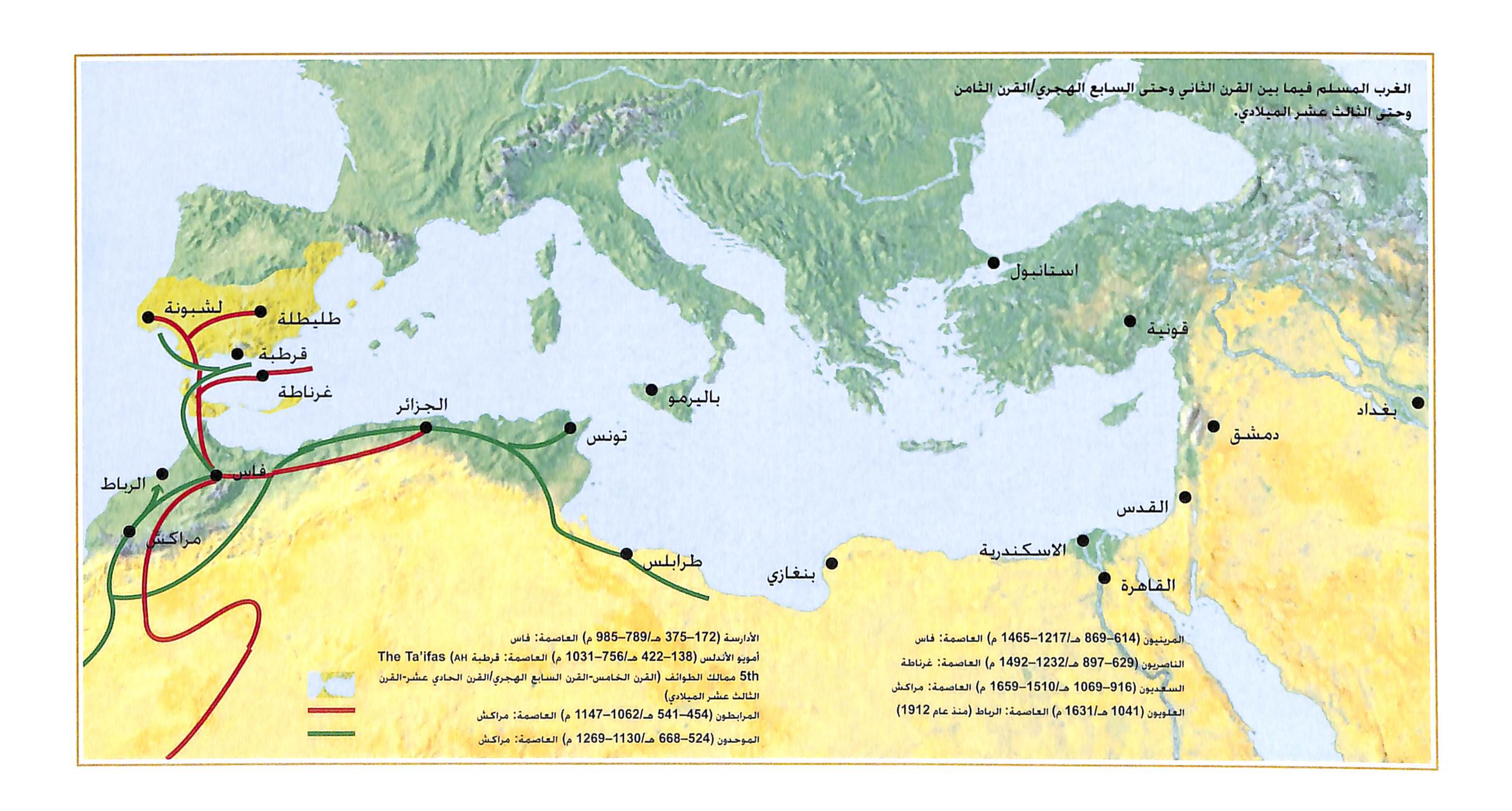
ناصري (من 636 هـ/1238 م)، إلى عهد محمد الخامس (754–794 هـ/1354–1391 م)
غرناطة، إسبانيا

الغرب الإسلامي بعد الأمويين

ما بين سقوط سلالة الأمويين في الأندلس (422 هـ/1031 م) واستعمار المغرب في عام 1330 هـ/1912 م، عرف الغرب الإسلامي تسعة قرون من التاريخ المضطرب، يمتد منذ فترة ممالك الطوائف في الأندلس، وصعود المرابطين في المغرب، حتى سلالة العلويين التي ما زالت تحكم المغرب منذ ثلاثة قرون.

كان المغرب الإسلامي يتوحد تارة، وينقسم تارة أخرى، تبعًا للمرحلة التي يمر فيها. وقد توالت عليه الأسر الحاكمة، القادمة من هذا الجانب أو ذاك من مضيق جبل طارق: فقد وضع المرابطون حدًّا لفسيفساء الممالك التي قسمت شبه الجزيرة الإيبرية إلى شظايا، بعد سقوط الخلافة في قرطبة؛ ثم أتى الموحدون الذين شكّلوا إمبراطورية حقيقية في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي؛ أما الناصريون وبنو مرين فكانتا أسرتين حاكمتين متوازيتين، وطدتا العلاقات بينهما؛ بعد ذلك صار السعديون والعلويون بمثابة المؤتمنين على ثقافة الغرب المسلم، والقائمين على استمرارها بعد سقوط غرناطة في عام 897 هـ/1492 م.

في شبه الجزيرة الإيبرية، حاولت ممالك الطوائف أن تقلّد، على مستوى أصغر، البنى السياسية والإدارية التي عرفتها الخلافة الأموية، قبل أن تسوء أحوالها اعتبارًا من عام 339 هـ/1009 م، بسبب الحرب الأهلية.



الغرب المسلم فيما بين القرن الثاني وحتى السابع الهجري/القرن الثامن وحتى الثالث عشر الميلادي.

كانت هذه الممالك دويلات محلية (طوائف فالانسيا، ودانية، ومرسية، وإشبيلية، وملقا، والجزيرة الخضراء، وسرقسطة، وغرناطة، وطليطلة، وبطليوس، وميرتولا، شلف، وغيرها كثير). وكان يحكمها ملوك من أصل أندلسي، أو بربري، أو سلافي، يفتقرون إلى الشرعية الدينية التي كانت للخلفاء، وبالتالي لم تكن سلطاتهم «غير قابلة للتصرف» كهؤلاء. ومن جانب آخر كانوا مضطرين لدفع الإتاوات للمسيحيين.

وبسبب رغبتهم في أن يعوضوا سلطتهم الضعيفة، بمظاهر من العظمة، فقد حوّلوا عواصمهم إلى بلاطات حقيقية، تزدهر فيها الفنون والثقافة. ففي سرقسطة كان المقتدر، من سلالة بني هود، قد جسّد أحلام مجده في قصر الجعفرية، وهو أفضل نموذج معماري من تلك الفترة. وفي دولة بني عبّاد في إشبيلية، جذب الملك الشاعر المعتمد إلى بلاطه الكتّاب والفنانين والعلماء. وكانت تلك الفترة الأكثر توهجًا في مجال العلوم الأندلسية، وخاصة الرياضيات وعلم الفلك. وقد جعلت الأسرة الزيرية (وهم أصلاً من البربر) من مدينة غرناطة حاضرة كبيرة، إذ أحاطتها بالأسوار والأبواب والجسور والحمامات والمساجد والقصبات. بالإضافة إلى ذلك انتزع الزيريون من بني حماد مملكة ملقا، وأعادوا بناء قصبتها.

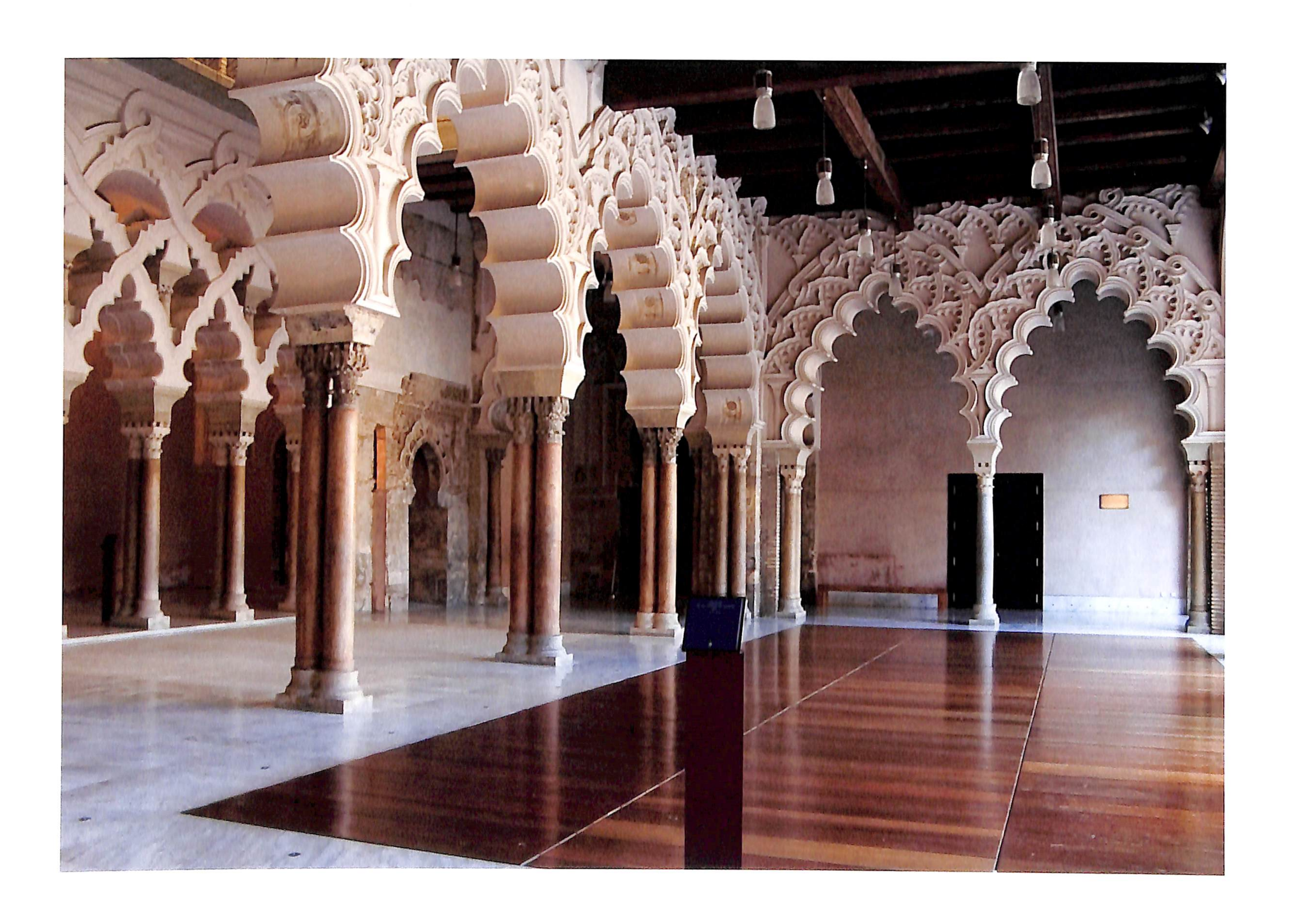
أما طليطلة التي حكمها بنو ذي النون، وهي إحدى أهم ممالك الطوائف على الصعيد السياسي، فقد سقطت بيد ألفونس السادس، ملك قشتالة، في عام 477 هـ/1085 م. وقد أجبرت هذه الواقعة الأندلس أن ترنو ببصرها باتجاه المغرب.

باحة قصر الجعفرية

الرواق الشمالي

مملكة بني هود (437–473 هـ/1046–1081 م)

ساراغوسا، إسبانيا



خلال تلك الفترة، كان ضعف مملكة الأدارسة في المغرب، قد سهّل التدخل الأجنبي، ولذا نجد مدينة فاس تخضع لسيطرة الفاطميين في تونس تارة، والأمويين في الأندلس تارة أخرى. وقد سبّب تمزيق مملكة الأدارسة حلول الفوضى والاضطرابات لمدة ما يزيد على نصف قرن، دون أن يؤثر ذلك على رخاء البلاد الاقتصادي.

في هذا السياق، وصل المرابطون (أهل الحصن)، وهم أبناء عشيرة من بربر الصحراء الغربية، وكانوا من البدو الرحّل المقاتلين، الذين انطلقوا لغزو أراضٍ جديدة، مدفوعين بحماسهم للإصلاح الديني، وللبحث عن أراض خصبة. وعندما صعدوا من واحاتهم باتجاه السهول في عام 445 هـ/1053 م، استولوا على سجلماسة، التي تقع على ملتقى طرق القوافل، واجتازوا الأطلس، كي يغزوا المغرب العربي.

استولى قائد عسكري، هو يوسف بن تاشفين على الحكم في عام 457 هـ/1060 م. ولأنه كان من أنصار انهيار الخلافة الأموية في قرطبة، والسلطة المحلية في المغرب الأوسط، صار سيِّد الغرب الإسلامي، من غرناطة إلى الجزائر. وقد أسّس بذلك أول أسرة حاكمة من البربر في المغرب، وصارت مراكش عاصمتها الجديدة، في عام 462 هـ/1070 م، وذلك قبل أن يضم الأراضي الصحراوية، حتى نهر السنغال.

في الأندلس، كان لدخول ابن تاشفين إلى البلاد، وانتصاره في الزلاقة، بالقرب من بطليوس، في عام 478 هـ/1086 م، دوره في إيقاف حركة الاسترداد المسيحي للبلاد.

في البداية، كان المرابطون متمردين على الحضارة الأندلسية، ثم انتهى الأمر بهم إلى أن يتخلّوا عن طباعهم المتزمتة، وأن يتطبّعوا بثقافة الترف والإسراف. وقد كان التأثير الأندلسي عليهم في البداية ذهنيًا (الشعر والعلوم)، قبل أن تتأثَّر مشيداتهم بعمارة قرطبة وإشبيلية. وقد

اصطرلاب

مملكة بني ذي النون في طليطلة (459 هـ/ 1067 م)
متحف الآثار الوطني
مدريد، إسبانيا



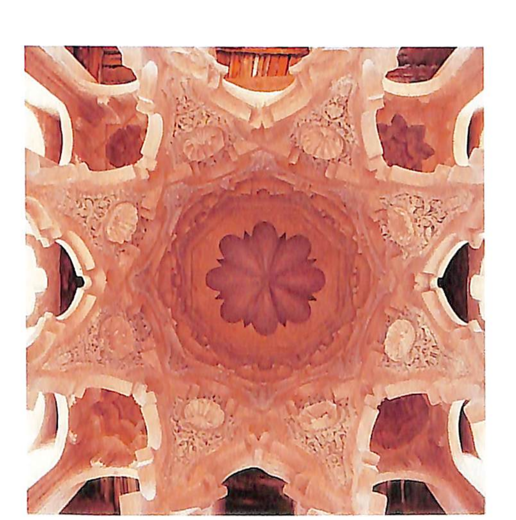
منبر من مسجد الكتبية

مرابطي (532 هـ/1137 م)
قصر البديع
مراكش، المغرب



قبة مرابطية

مرابطي (القرن الـ 532 هـ/1137 م)
مراكش، المغرب



توصل المرابطون في هذا المجال إلى أن يجمعوا، بانسجام تام، ما بين التيار الشرقي والتيار الأندلسي، مؤسسين بذلك أسلوبًا أصيلاً ومجدّدًا، عرف قمة ازدهاره في فترة علي بن يوسف.

في المغرب، قام الموحّدون (524–668 هـ/1130–1269 م) بهدم أغلب صروح المرابطين. لكن ظلت تشهد على غنى وروعة فنونهم، قبةُ مراكش، وامتداد القرويين في فاس، والمسجد الكبير في الجزائر، وتلمسان ونيدرومة في الجزائر، وكذلك الصروح والآثار الموجودة في البرتغال.

كان سبب انحدار إمبراطورية المرابطين، ثم تفتتها، ثورة السكان على الترف المعلن، وعلى فساد القادة. في هذا السياق ظهر بربري من الأطلس الشرقي، هو ابن تومرت، الذي كان قد درس علوم الدين في قرطبة وفي بغداد. بدأ ابن تومرت بعد عودته إلى المغرب يدعو إلى



مسجد تلمسان الكبير

مرابطي (590 هـ/1136 م)

تلمسان، الجزائر

عقيدة إصلاحية، تقوم على إسلام صارم. وقد لجأ إلى "تنمل" في جنوب مراكش ونظّم اعتبارًا من عام 518 هـ/1125 م، نواة لدولة قائمة على التراتبية، وأدار الغزوات الأولى ضد المرابطين. هكذا وُلدت حركة الموحدين على يد ابن تومرت. وقد استلم عبد المؤمن السلطة بعد موته، وتابع النضال.

يعتبر عبد المؤمن المؤسس الحقيقي لسلالة الموحدين. وقد امتد تأثيره على المغرب الأوسط، حيث استولى على مراكش في عام 541 هـ/1147 م، وعلى الأندلس أيضًا، حيث احتل قادس وبطليوس وقرطبة وغرناطة والمرية. كما أنه هب لنجدة الفاطميين الذين غزاهم النورمنديون، واستولى على تونس وصفاقس وطرابلس.

قام حفيد عبد المؤمن، وهو يعقوب المنصور (حكم ما بين عامي 580–595 هـ/1184–1199 م)، بضم أراضي الأندلس، وجزءًا من البرتغال، رسميًا لمملكته بعد انتصاره على الإسبان والبرتغاليين، في موقعة الأرك، في عام 591 هـ/1195 م. وقد شجّع البناء، ورعى الفنون، وحمل المملكة إلى قمة ازدهارها السياسي والاقتصادي والفكري والفني.

وعلى خطى الأدارسة في فاس، والمرابطين في مراكش، أراد أن يعطي لمملكته عاصمة جديدة. لكن وفاته في عام 595 هـ/1199 م، أوقفت مشروعه الكبير لبناء رباط الفتح، الذي لم يتحقق منه سوى جدران سوره التحصيني، ومسجد لم يكتمل (مسجد حسن).

قبل أن يعرف الموحدون الانحطاط، الذي عبّرت عنه هزيمتهم ضد المسيحيين في لاس نافاس دي تولوسا (612 هـ/1212 م)، استطاعوا أن يتركوا بصماتهم على حضارة الغرب



زبدية مزججّة

موحدي (النصف الثاني من القرن الـ 6 هـ/12 م)
متحف ميرتولا
ميرتولا، البرتغال



مسجد الكتبية
مشهد القبة المزينة بالمقرنص

موحدي (القرن الـ 6 هـ/12 م)
مراكش المغرب

جيرالدا
أهم مباني شبه الجزيرة الآيبرية الباقية من حقبة الموحدين

موحدي (580–594 هـ/1184–1198 م)
إشبيلية، إسبانيا

مخطوطة
نسخة أصلية لواحدة من أصل 30 مجلدًا حول العلاج الطبي، التصريف

موحدي (610–619 هـ/1213–1223 م)
المكتبة الوطنية
الرباط، المغرب



الإسلامي، من خلال عدد كبير من المنجزات المعمارية، التي تشي برغبة دائمة في تحقيق العظمة مع البساطة. تتجلى هاتان السمتان في أسوارهم الضخمة، وأبوابهم الصروحية، ومآذنهم العظيمة، وزخارفهم النقية. وعلى الرغم من أنهم قد هدموا معظم صروح المرابطين، إلا إنهم كانوا قد ورثوا عنهم لجوءهم للمعماريين والمزخرفين الأندلسيين، وتطلعهم للحفاظ على إرث الشرق.

بعد قرن من الازدهار، ضعفت سلطة الموحّدين، بسبب الخلافات الداخلية، ثم تمزقت هذه السلطة مع ضياع تحكُّمهم بالطرق الصحراوية، ومع فتح الغرب الأوسط على يد الحفصيين في تونس، وتقدم حركة الاسترداد في إسبانيا. وهكذا، ضمن هذه الأحوال، وقعت فاس في يد بني مرين، وهم بدو رحل من البربر، أصولهم من المغرب الأوسط. حاول الموحّدون أن يعيدوا الوحدة إلى المغرب (الاستيلاء على تلمسان في عام 737 هـ/1337 م، وعلى

تونس في عام 748 هـ/1347 م). كما تدخلوا عدة مرات في الأندلس، مؤخِّرين بذلك تقدم المسيحيين، فساهموا بذلك في إنقاذ غرناطة.

خلال قرن ونصف قرن من الزمن، عرف المغرب فترة لامعة، أهم حدث فيها تأسيس عاصمة جديدة، هي فاس الجديدة، وبناء عدة مساجد ومدارس، وتطور الفنون، وتكثيف النشاط الثقافي الذي أغناه عدد كبير من المثقفين الأندلسيين، الذين تدفقوا على فاس هربًا من إسبانيا المسلمة، التي كانت على وشك الانهيار.

في مجال العمارة، كانت أبنية بني مرين أقل اتساعًا من مشيّدات الموحّدين، لكن الزخارف فيها أكثر كثافة، وممتدة إلى درجة تغطي معها مجمل السطوح الداخلية، من الأرض حتى السقف. والأمثلة الأكثر وضوحًا على ذلك مدافن الشلاح في الرباط، التي أصاب دمار كبير بنيتها الداخلية، بتأثير من الهزة الأرضية التي حصلت في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، ومدرسة العطارين والمدرسة البوعنانية في فاس، بجدرانها الملبّسة بالقاشاني، وقببها الخشبية المزخرفة بالمقرنصات، وباحاتها المرصوفة بالمرمر، وأبوابها المكسية بالبرونز.

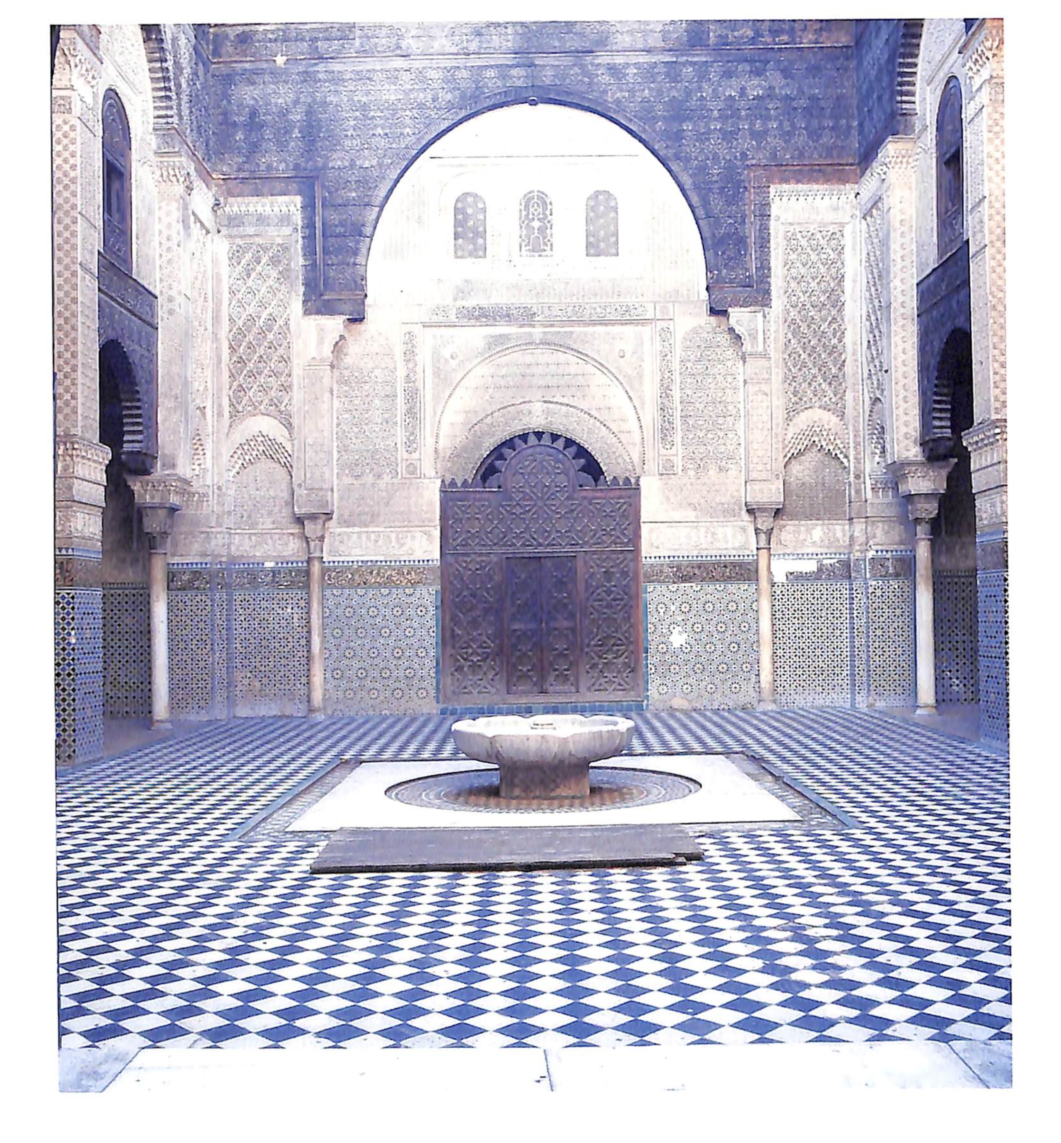
بعد فترة البريق التي عرفها بنو مرين، وأهم شخصية لديهم هو سلطان أبو الحسن، جاء الطاعون الأسود (748–750 هـ/1348–1350 م) ثم ثورات تلمسان وتونس لتحدّد بداية



شمعدان

ماريني (690 هـ/1291 م)
متحف باثا
فاس، المغرب





مدرسة العطارين

ماريني (القرن الـ 8 هـ/14 م)
فاس، المغرب

تراجع الأسرة الحاكمة، التي مُنيت بهزيمة ساحقة أمام الإسبان والبرتغاليين في موقعة ريو سالادو (741 هـ/1340 م).

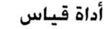
كانت مملكة بني نصر في غرناطة آخر دولة إسلامية في شبه الجزيرة الإيبرية. وقد ظهر هؤلاء في إطار ممالك الطوائف، التي تقاسمت الأندلس عند تدهور مملكة الموحدين. وقد ظلت مملكتهم وحدها صامدة أمام الفتح المسيحي في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. وكانت تضم أراضي ما يُعرف اليوم بمقاطعات غرناطة وملقا وآلميريا.

مؤسس هذه المملكة محمد بن يوسف بن نصر، الذي بويع أميرًا في جيّان في عام 629 هـ/ 1232 م. وقد جعل من الحمراء مقر سلاطين بني نصر، لمدة قرنين ونصف قرن من الزمن، وحتى استيلاء الملوك الكاثوليك على غرناطة في عام 897 هـ/1492 م.

تلت مرحلة تشكيل وتأسيس السلطنة، مراحل من أزمات الحكم والتدهور السياسي والاقتصادي، وأيضًا مراحل من التألق. في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وفي فترة حكم يوسف الأول، وابنه محمد الخامس، وصلت المملكة إلى قمة ازدهارها السياسي والاقتصادي والثقافي والفني. وبفضل دبلوماسية حاذقة، كانت هناك فترات من السلم، قام بنو نصر خلالها بتنظيم الحياة المدنية والعسكرية في مملكتهم.

والدلالة على رخاء تلك الفترات، هي المشيّدات الجديدة التي أقاموها في قصر الحمراء (البوابات الصروحية، وقصور كوماريس، والرياض/السباع، وقصر القلعة الحرة ليوسف الأول)، وفي غرناطة (المدرسة، والمارستان). كذلك تميّز في عهدهم الوزراء والكتّاب، وعلى الأخص ابن الخطيب، الذي وصف بدقة الأعياد الفخمة التي كانت تتم في القصور.

وعلى الرغم من الإصلاحات الآنية، تدهور الوضع الاجتماعي والسياسي خلال القرن التاسع



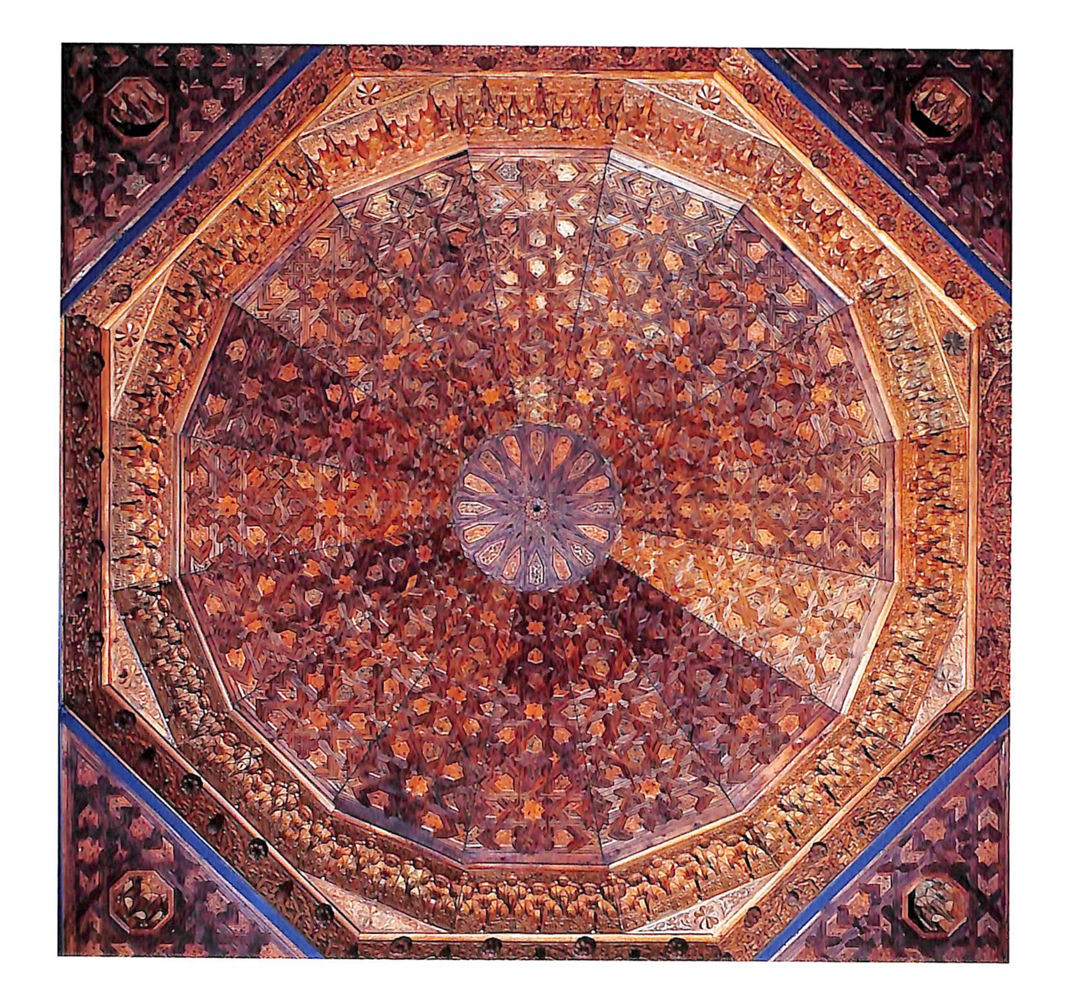
أداة قياس

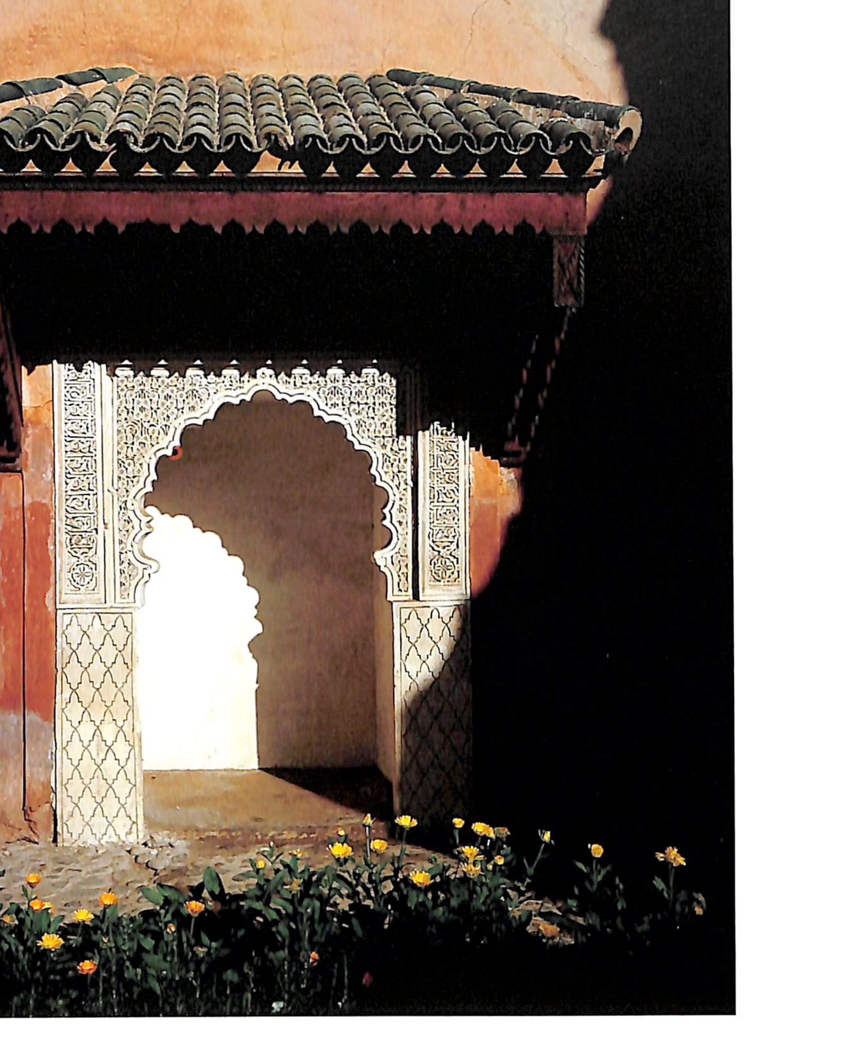
ماريني (731–749 هـ/1331–1348 م)
متحف الآثار والفنون الإسلامية الوطني
الجزائر العاصمة، الجزائر



الحمراء
قبة محدبة

ناصري (نحو 719 هـ/1320 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية
برلين، ألمانيا







أضرحة سعدية

سعدي (القرن الـ 10 هـ/16 م)
مراكش، المغرب



دينار

سعدي (1020 هـ/1612 م)
متحف القطع النقدية والميداليات في بنك المغرب
الرباط، المغرب

الهجري/الخامس عشر الميلادي. وأُضيفت إلى الصراعات الداخلية، مشاكل اقتصادية، تعود بشكل كبير لعزلة غرناطة عن بقية بلاد الإسلام، وعلى الأخص عن المغرب. في نهاية حكم بني مرين، الذين كان بنو نصر قد أقاموا معهم علاقات مكثفة، لعبت دورها في إيصال الوحدة الثقافية ما بين الأندلس والمغرب إلى أوجها. وجدير بالذكر أن المرابطين والموحدين كانوا قد وضعوا اللبنة الأولى لهذه الوحدة.

أخذ سقوط بني مرين شكلاً ملموسًا عندما قام بنو وطاس، وهم عائلة وزراء لدى بني مرين، بإعلان أنفسهم أوصياء على العرش، قبل أن يستولوا عليه فعليًا في منتصف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. لكن البلاد غاصت في أزمة اقتصادية جدية، في حين زادت حدة الضيق الشعبي، والاعتراضات الدينية، مع سقوط غرناطة، آخر مملكة مسلمة في إسبانيا، ومع تدفق المطرودين الأندلسيين منها.

في بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وقع المغرب في حالة من الفوضى والضعف: فقد استولى البرتغاليون على طنجة، واحتلوا صافي وآزمور ومازاغان وأغادير، في حين استقر الإسبان في مليلة.

حاول بنو وطاس، الذين لم يستطيعوا أن يقفوا في وجه الاعتراضات الدينية والتعديات الخارجية، أن يتمسكوا بالسلطة من خلال إعلان تبعيتهم للأتراك، أسياد المغرب الأوسط

وإفريقيا، في ذلك الوقت. وعندها لجأت قبائل الجنوب وفرقها الدينية إلى السعديين، الذين أتوا من الجزيرة العربية في منتصف القن الثامن الهجري/القرن الرابع عشر الميلادي، والذين كانوا يدّعون أنهم ينحدرون من النبي محمد. وقد قاد هؤلاء النضال، فارضين أنفسهم على جنوب البلاد، فاستعادوا أغادير، وصاروا أسياد البلاد بعد الاستيلاء على فاس (965 هـ/ 1554 م).

كان محمد المتوكل رابع الحكام السعديين، وقد قام عمه عبد الملك بخلعه، ولم يمر عليه سوى سنتين من الحكم. طلب محمد المتوكل مساعدة البرتغال، رأى الملك الشاب دون سيباستيان في هذا الطلب نعمة هبطت عليه من السماء، فانطلق بلا حذر لفتح المغرب لحسابه الخاص. وقد حصلت الموقعة في 21 جمادى الأول من عام 986 هـ/4 آب (أغسطس) 1578 م، في "وادي المخازن" في شمال المغرب، وانتهت بهزيمة البرتغاليين.

أُطلق على هذه المعركة اسم «معركة الملوك الثلاثة» لأن دون سيباستيان والمتوكل وعبد الملك لاقوا فيها الموت معًا. وقد كان لهذه المعركة نتائج كبيرة: فقد منحت قيمة كبيرة محلية ودولية لأحمد المنصور، شقيق عبد الملك، الذي أعلن نفسه ملكًا في ساحة المعركة، كما أنها حملت إلى المغرب ثروات كبيرة، بسبب الفدية التي دُفعت لفك أسر الفرسان المسيحيين؛ كما أنها أدت إلى ضم البرتغال إلى إسبانيا، حيث إن دون سيباستيان كان دون وريث مباشر، يليه على العرش.

استطاع المغرب، الذي صار قادرًا الآن على أن يقف في وجه الأتراك، الذين كانوا يحكمون في الجزائر وتونس، أن يستعيد التحكم بالتجارة الصحراوية، كما أعاد تنظيم جيشه وإدارته، وطوّر زراعته وحرفه اليدوية وتجارته مع أوروبا.

مدرسة ابن يوسف
مشهد لقاعة الصلاة

سعدي (972 هـ/1565 م)
مراكش، المغرب



على الصعيد المعماري. وبالإضافة إلى التحسينات التي أجريت على جامعة القرويين في فاس. ترك السعديون بصماتهم على مدينة مراكش. فعلى الرغم من تدمير قصر البديع على يد مولاي إسماعيل. أواخر القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي. ظلت قائمة القبور السعدية. ومدرسة ابن يوسف. بالإضافة إلى المشيّدات المتنوعة في القصبة. هذه الأبنية تشي بالمؤثرات العثمانية. التي تظهر فيها بشكل أو بآخر. بالإضافة إلى موروث السلالات الحاكمة السابقة.

لكن عظمة السعديين كانت وثيقة الارتباط بظروف مواتية استثنائيًا. وبشخصية اثنين من ملوكهم هما: عبد الملك وأحمد المنصور. مع موت هذا الأخير. في عام 1012 هـ/1603 م. عادت الصعوبات السياسية والاقتصادية للظهور. مع عودة الاضطرابات بين المذاهب. وظهور القرصنة التي حددت قطع العلاقة مع أوروبا.

كان الشرفاء العلويين يمتلكون سلطة متواضعة في تافيلالت. في جنوب الأطلس الأوسط. وقد استغلوا هالتهم الدينية. وقدراتهم العسكرية والتنظيمية. ليصيروا أسياد المغرب الشرقي. قبل أن يستولوا على فاس (1049 هـ/1666 م) ثم مراكش (1052 هـ/1669 م).

قام مولاي إسماعيل (1055–1139 هـ/1672–1727 م). وهو سلطان متميز. بتدعيم ما قام به مؤسسو هذه السلالة. فأعطى بريقًا جديدًا للحضارة المغربية. كان يحب البناء. وقد ملأ عاصمته مكناس بالقصور والحدائق والمساجد والمخازن ومرابط الخيل والمنظومات المائية. وضم كل ذلك داخل سور تحصيني منيع. كانت فتحته الأساسية باب منصور. وفيه يتجلّى مفهوم الحكم لدى ذلك السلطان. أي: السلطة والعظمة والقدرة على التوافق مع الأحداث.

الصفحة المقابلة
ضريح مولاي إسماعيل
علوي (القرن الـ 11–12 هـ/17–18 م)

مكناس. المغرب



باب منصور

علوي (القرن الـ 11–12 هـ/17–18 م)
مكناس. المغرب



على الصعيد السياسي، وقف مولاي اسماعيل في وجه الأتراك، واستعاد المواقع التي كان ما يزال يشغلها الأوروبيون على الأطلسي. لكن سرعان ما تبدى أن تلك السلطة العسكرية كانت مُكلفة للغاية، إذ إن المغرب عاش مع موت مولاي إسماعيل أزمة سياسية واقتصادية هامة، زاد منها زوال عائدات القرصنة.

بعد ثلاثين سنة من الفوضى، عرف المغرب إصلاحًا ملحوظًا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/القرن الثامن عشر الميلادي؛ فقد تمت استعادة السيطرة على الجيش والإدارة القبائلية، وانفتحت البلاد على المحيط الأطلسي، ودعمت العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع أوروبا وأمريكا.

لكن هذا التطور ما لبث أن ذهب أدراج الرياح، مع وباء الطاعون، والمجاعة الكبيرة، التي جعلت عدد السكان يهبط، بشكل سريع، من خمسة إلى ثلاثة ملايين نسمة. انكفأت البلاد على نفسها، وجعلها ضعفها تقع بشكل طبيعي في قبضة الحركة الكولونيالية الأوروبية الواسعة.



طبق منقوش

علوي (القرن الـ 13 هـ/النصف الأول من القرن الـ 19 م)
متحف باثا
فاس، المغرب

الأعلام:

يوسف بن تاشفين (حكم ما بين عامي 453–500 هـ/ 1061–1107 م): حاكم من سلالة المرابطين، دعم سلطة الأسرة الحاكمة باحتلاله المغرب الغربي (المغرب)، والمغرب الأوسط (الجزائر)، والأندلس، بعد أن لجأ إليه ملوك الطوائف لينجدهم، وهو مؤسس مدينة مراكش (462 هـ/1070 م).

المعتمد (حكم ما بين عامي 461–483 هـ/1069–1091 م): عُرف بالخليفة الشاعر، وهو الثالث بين خلفاء بني عباد، في فترة ملوك الطوائف، في إشبيلية، حتى خلعه من قبل المرابطين عام 483 هـ/1091 م.

ابن تومرت (484–524هـ/1091–1130 م): عالم دين، تلقى علومه في المشرق. قاد حركة في جبال الأطلس أدت إلى قيام دولة الموحدين، بعد مواجهات ضد المرابطين.

يعقوب المنصور (حكم ما بين عامي 580–595 هـ/ 1184–1199 م): الخليفة الموحدي الذي انتشرت مملكته في الغرب المسلم، من المحيط الأطلسي حتى تونس، ومن جبل طارق حتى طليطلة. شجع المنصور فنون العمارة، وإليه تنتسب مآثر عمرانية كالأسوار وجامع حسان في الرباط، وجامع الكتبية في مراكش، والجيرالدا في إشبيلية.

محمد بن يوسف بن نصر (حكم ما بين عامي 629–671 هـ/ 1232–1273 م): مؤسس المملكة الناصرية في غرناطة، وأول سلطان فيها. جعل إقامته في قصر الحمراء، الذي صار مقر العرش للملوك الذين أتوا بعده. حاول عقد تحالفات مع قشتالة، ومع بني مرين، ونجح في بسط نفوذه إلى جهة ملقا وآلميريا، وبذلك حدّد خريطة أراضي السلطنة لعدة عقود.

ابن الخطيب (713–775هـ/1313–1375 م): كان أمين سر يوسف الأول، ومن ثم وزير محمد الخامس. وعرف بنشاطاته ومساهماته في الشؤون السياسية خلال الدولة الناصرية في غرناطة. كمؤرخ وكاتب سجل الكثير من التفاصيل الدقيقة عن غرناطة وناسها ويومياتها في كتابه الشهير «الإحاطة».

أبو الحسن (حكم ما بين عامي 731–752 هـ/1331 –1351 م): حاول هذا الملك المريني إعادة تشكيل دولة للموحدين في المغرب والأندلس، ومن ثم نذر نفسه في خدمة السياسة والفن والثقافة، وبناء المساجد والمدارس. وواصل ابنه أبو عنان الذي ثار عليه طريقه، مات في جبال الأطلس الأعلى، ودفن في الرباط.

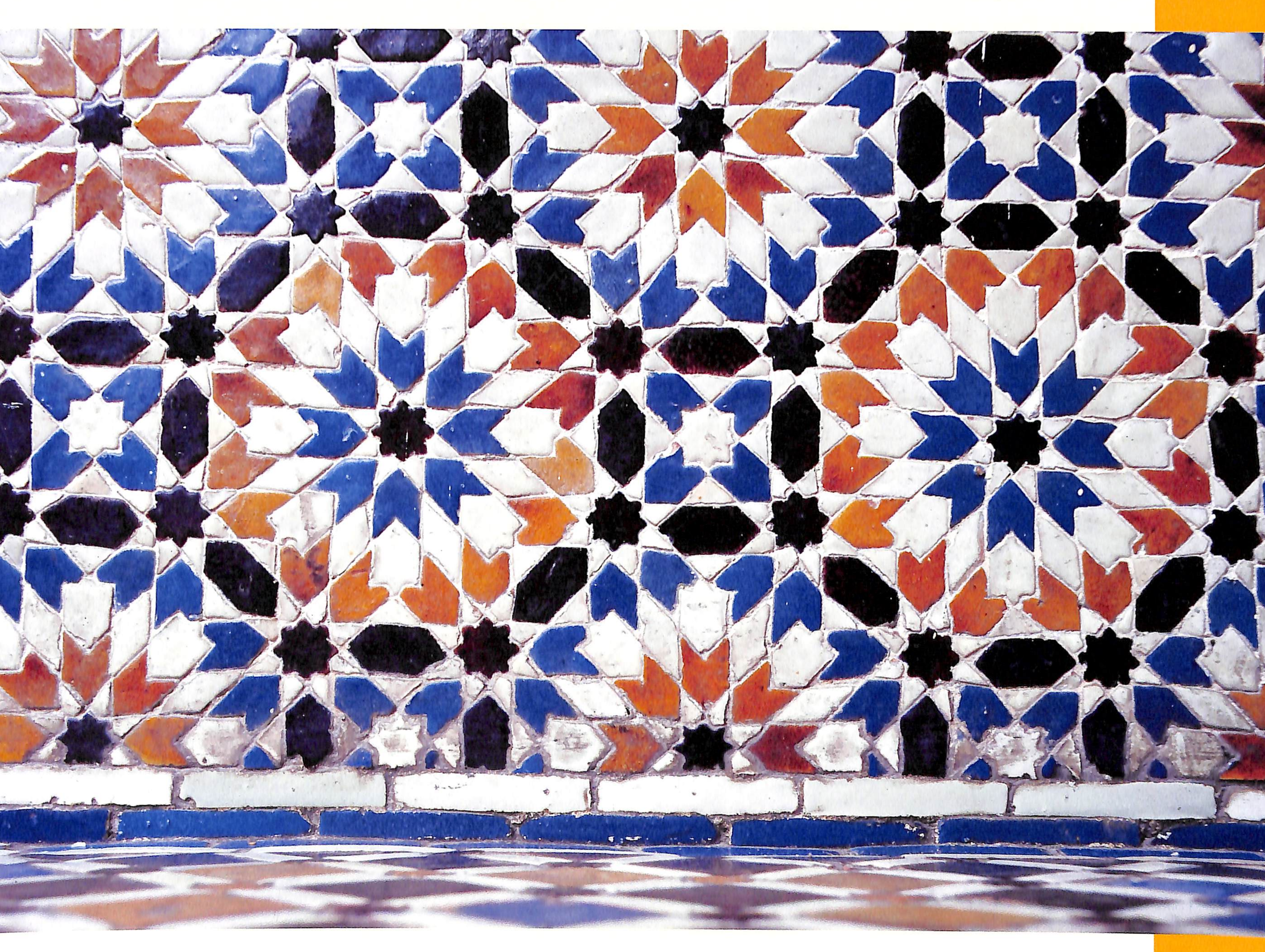
يوسف الأول (حكم ما بين عامي 733–754 هـ/1333 –1354 م): خلال حكم هذا السلطان من بني نصر، عرفت مملكة غرناطة نهضة سياسية واقتصادية وثقافية، قادها ابنه محمد الخامس إلى الأوج. وقع معاهدات هدنة مع قشتالة، ومع بني مرين في المغرب، وبذلك أحلّ السلام لفترة كرّسها لتنظيم الحياة المدنية والعسكرية في مملكته.

أحمد المنصور (حكم ما بين عامي 986–1011 هـ/ 1578–1603 م): حاكم سعدي، نودي به ملكاً في ساحة المعركة، بعد موت أخيه عبد الملك. فتح السودان وجلب منه الذهب بكميات كبيرة، كما أنه طور صناعة السكر والسلاح. أدخل التأثيرات التركية في المجالات العسكرية والمعمارية، وفي الثياب أيضاً.

مولاي إسماعيل (حكم ما بين عامي 1083–1140 هـ/ 1672–1727 م): حاكم علوي كبير، جعلت منه الأساطير طاغية يتعطش للدماء تارة، وما يشبه الملك الشمس تارة أخرى. خلال حكمه الطويل، أحلّ السلام في المغرب، وحرّر طنجة ولاراش، كما طوّر العلاقات مع أوروبة، وملأ عاصمته مكناس بالصروح والتحصينات، والبنى التحتية.

الهندسة الإسلامية: فلسفة الفضاء

نعيمة الخطيب بوجيبار



تفصيل في لوح زليج، من قصر البديع

علوي (القرن الـ 13 هـ/القرن الـ 19 م)
تطوان، المغرب

الهندسة الإسلامية: فلسفة الفضاء

لا شك في أن البلاد المختلفة، التي حلّ فيها الإسلام منذ القرن الأول الهجري - السابع الميلادي، قد استخدمت في زخارفها رسومًا هندسية، كتلك التي تثير إعجابنا في بعض قطع الفسيفساء الرومانية في سورية، وتلك التي نجدها في فنون البربر المعمارية في إفريقية، وفي فنون المفروشات القبطية في مصر. لكن ما من أسلوب فني استخدم هذا النمط من الزخارف بالوفرة التي نجدها في الفن الإسلامي، مما أدى لأن تصير الزخارف الهندسية، في نهاية الأمر، علامة فارقة تدل على الخصوصية، ورابطة جمالية تجمع المجالات الفنية بأكملها، وعلى المستويات كافة.

ومع ذلك، فإن هذا التوجه للزخارف الهندسية، لم ينتشر في هذه البلاد في بداية تحولها إلى الإسلام فقط. فالزخارف الهندسية ظهرت بشكل خجول في العصور الأموية في الإطارات الحجرية للنوافذ، في فترات معينة. بعد ذلك بدأنا نجدها في أطر اللوحات، التي تحتوي على تزيينات زهرية، في سامراء، وفي أطر بعض الأعمال التي أنجزت في عصر ابن طولون، في القاهرة.

مسجد الأقمر
مدخل رئيسي (تفصيل)
فاطمي (519 هـ/1125 م)
القاهرة، مصر



غطاء جدار مدخل مدرسة البوعنانية

ماريني (751–757 هـ/1351–1356 م)
متحف باثا
فاس، المغرب



قطعة قفطان
التصميم مؤلف من ثماني نجوم مدببة، مع حركة محورية مؤلفة من ثمانية زنابق، منبثقة من وردة معمارية

عثماني (أواخر القرن الـ 10– أوائل القرن الـ 11 هـ/أواخر القرن الـ 16– أوائل القرن الـ 17 م)
المتحف الملكي، متاحف سكوتلندا الوطنية
أدنبره، المملكة المتحدة

لكنها لم تبدأ بالتطور إلا في القرن الحادي عشر الميلادي، على جدران المشيّدات الفاطمية في مصر لتصل إلى أوجها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، في الشرق مع المماليك، وفي الغرب في فترة حكم بني نصر، وبني مرين.

في بداياتها، كانت الزخارف الهندسية تأخذ شكل ضفائر، أو عُقَد، وتشبيكات. هذه التشبيكات، أو الجدائل، كانت كافية بحدِّ ذاتها لتبث الحياة في سطوح المآذن، ولكي تؤلف على الجدران شبكات من المعيّنات من فسيفساء القاشاني. لكنها قد أفادت، على الأخص، في توليد تكوينات معقدة، تتطلب دراسة مسبقة، وخطوطًا منظّمة تفترض معرفة جيدة بالهندسة، وتحكمًا تقنيًا عالي المستوى.

وهكذا، انطلاقًا من دائرة مقسمة إلى مضلّعات منتظمة، تبدأ بالتشكل مضلّعات نجومية (أطباق نجمية)، مقاييسها صحيحة تمامًا، تنقسم بدورها بشكل متناظر، لتشكل رسومات متكررة، تبدو وكأنها تتبعثر إلى ما لا نهاية. ولا شك في أن هذه التشكيلات الإبداعية بتنوعاتها المتعددة، توحي بعالم يقوم على العمق والفضاء.

هؤلاء الفنانون من معلمي الحرف اليدوية، الذين تميّزوا بغزارة إنتاجهم، وبرغبتهم بتنويع زخارفهم، لم يكتفوا بأشكال مسطحة، كانت معروفة من قبل. فقد اعتمدوا وسيلة معمارية تسمح بالانتقال من المخطط المربع، إلى المخطط المثمن للقبة، ليبتدعوا زخارف ثلاثية الأبعاد، تسمى المقرنصات.

الصفحة المقابلة
نسيج حريري مع زخرف هندسي

ناصري (القرن الـ 8–9 هـ/14–15 م)
متحف فكتوريا وألبرت
لندن، المملكة المتحدة



قرآن
مصمم هندسيًا، ثمة نجمة ثمانية في الوسط متضمنة السورة الـ 41، الآية 42 من القرآن

مملوكي (713 هـ/1313 م)
متحف الفنون التركية والإسلامية
استانبول، تركيا



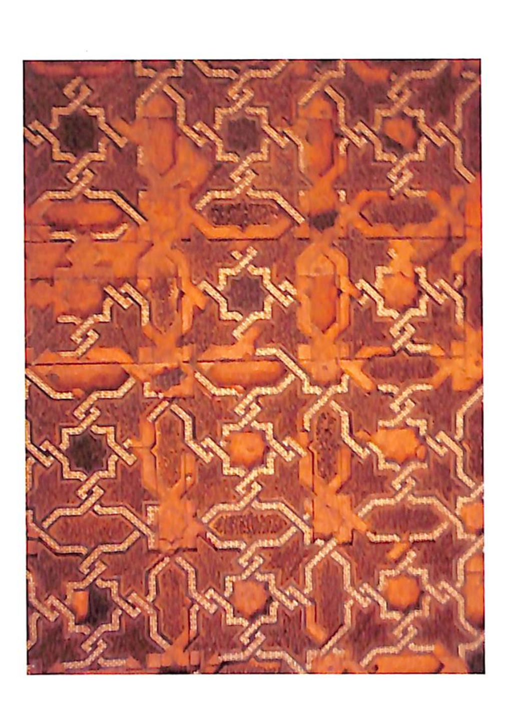
تتألف المقرنصات من اجتماع سبعة عناصر موشورية، وقد فرضت نفسها منذ القرن الحادي عشر الميلادي، كخصوصية للفن الإسلامي. كانت المقرنصات تُنفّذ بالحجر، أو بالآجر، أو بالخشب، أو بالجص. وكانت تجمّل الأقواس والسقوف والمآذن، وكأنها «بارتفاعها وتوجهها الشاقولي تقود الفكر التأملي نحو السماء».

هذا الشغف بالزخارف الهندسية، لدى الفنانين المسلمين، أثار تساؤلات لدى مؤرخي الفن، الذين اقترحوا عدة فرضيات. فبالنسبة للبعض، كانت وطأة المحرّمات الدينية التي تمنع تصوير الأشخاص، وراء توجيه الفكر الإسلامي بأكمله نحو التعبير الهندسي. وبالنسبة للآخرين، كان هذا التوجه ينبع من الأهمية التي أولاها المسلمون لدراسة الرياضيات، وعلوم الأرقام، مما حثّ الفنانين على استخدام الهندسة في تشكيل زخارفهم المدروسة. والدليل على ذلك ظهور دراسة في الجبر للرياضي الخوارزمي في القرن التاسع الميلادي، وهي الفترة التي ظهرت فيها الزخارف الهندسية الإسلامية الأولى.

بالنسبة لمن يعتقدون بتأثير الفكر الديني والصوفي على ذهنية الحرفيين، كانت الخطوط بأشكالها اللامتناهية، تعكس أركان الإيمان بكلّية الخالق.

جيرالدا
تفصيل مئذنة مزينة بأقواس مفصصة

موحدي (580–594 هـ/1184–1198 م)
اشبيلية، إسبانيا



منبر من مسجد الكتبية
لوح جانبي (تفصيل)

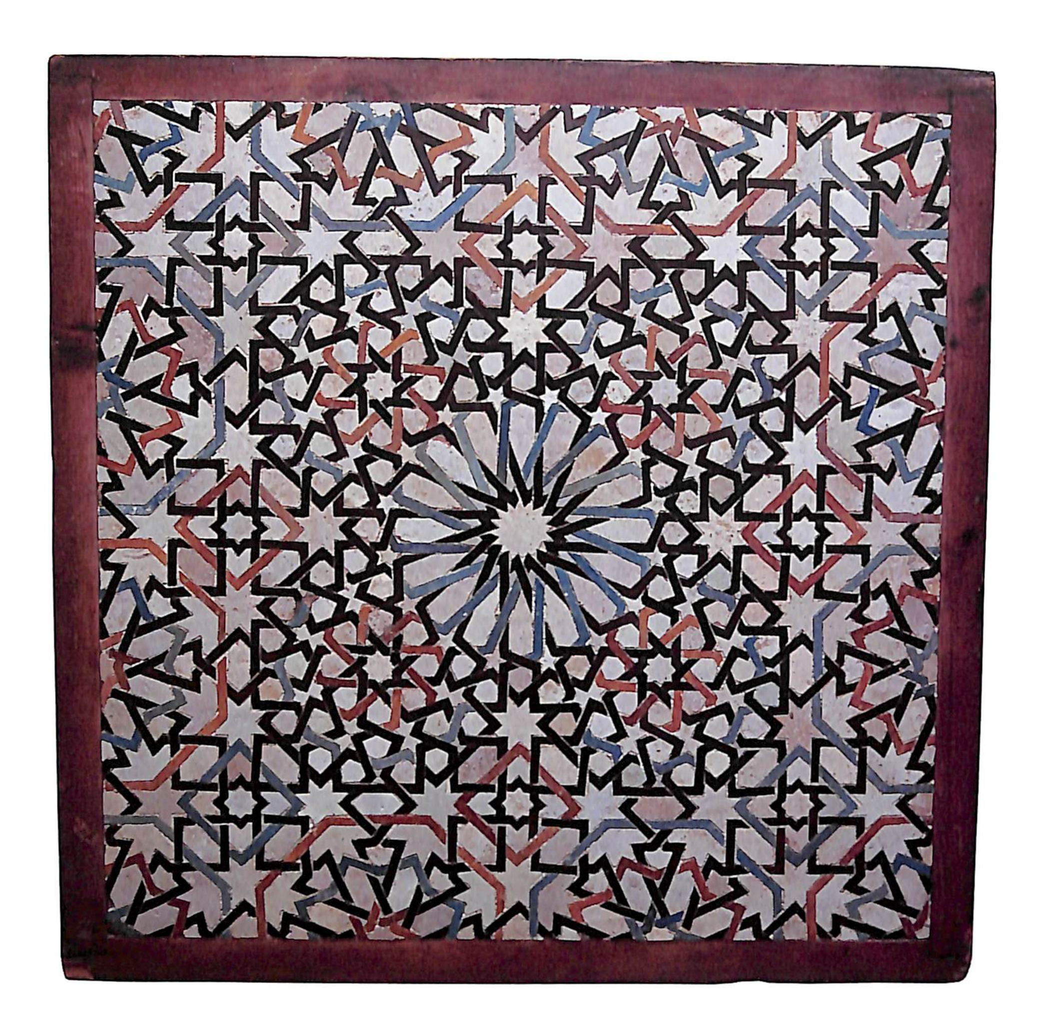
مرابطي (532 هـ/1137 م)
قصر البديع
مراكش، المغرب



الصفحة المقابلة
مدرسة الجقمقية
كوة مقرنص متقنة بزخارف أحجار تزين الواجهة الشرقية للضريح

مملوكي (762–822 هـ/1361–1421/2 م)
دمشق، سورية



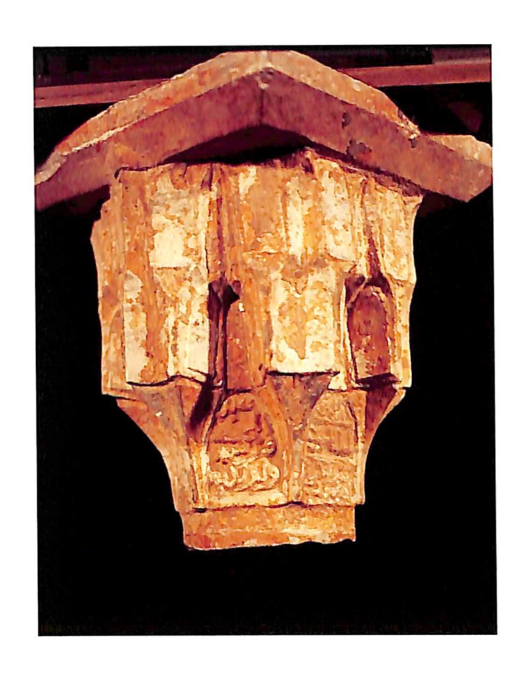


قطعة من الزليج
من جدار قصر البديع، مراكش

سعدي (986–1002 هـ/1578–1593 م)
متحف باثا
فاس، المغرب

تاج عمود بخطوط مقرنصة

مملوكي (القرن الـ 8–9 هـ/14–15 م)
المتحف الإسلامي، ومكتبة الأقصى
القدس



وبالنسبة لدعاة الرمزية والباطنية، فإن كل شكل هندسي يمثل رمزًا، وكان الحرفيون الذين ينضوون في تجمعات تضم العارفين بالعلوم، يحتفظون بمعمّيات الشيفرات، ومعاني الرموز.

وبسبب غياب دراسات في علم الجمال، كتبها المفكرون المسلمون في تلك العصور، لا نستطيع إلا أن نقبل المصداقية الممكنة لهذه الفرضيات المختلفة.

الأعلام:

الخوارزمي: عالم رياضيات، توفي في عام 241 هـ/ 856 م، وأصله من منطقة خوارزم، التي تقع شرق بحر قزوين. استقدمه إلى بغداد الخليفة العباسي المأمون، وقد نشر كتابًا حول الحساب الهندي، بالإضافة إلى مؤلفه كتاب الجبر الذي جعل منه «أبو الجبر».

المغرب الأوسط: هزيمة المعارضة

فريدة بنويس، وبوسعد وادي



مسجد تلمسان الكبير
قبة (تفصيل): الحزم المتداخلة تضفي على الأثر نوعًا من الشفافية

موحدي (530 هـ/1136 م)
تلمسان، الجزائر

المغرب الأوسط: هزيمة المعارضة

قطعة من إفريز

رستمي (296–467 هـ/909–1074 م)
متحف الآثار والفنون الإسلامية الوطني
الجزائر العاصمة، الجزائر



لئن كانت الجيوش العربية لم تواجه صعوبات، أثناء فتوحاتها داخل الشرق الأوسط، فإنها ستواجه مقاومة أشدّ من البربر المقيمين في كتلة جبال الأوراس في الجزائر.

لاقى الفاتح العربي عقبة بن نافع الموت في هذه الجبال، في عام 64 هـ/683 م، وضريحه الذي شُيّد في الواحة الصغيرة التي تحمل اسمه، بالقرب من مدينة بيسكرة، هو أول مبنى إسلامي في المغرب الأوسط. ويعتبر باب الضريح الذي يعود إلى فترة الزيريين (القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) تحفة في النحت على الخشب.

تم إخضاع المغرب بشكل نهائي في عام 91 هـ/709 م، وساهم البربر الذين اعتنقوا الإسلام بشكل جماعي في الفتوحات العربية. ومع ذلك ظلت نزعتهم الاستقلالية حيّة، لم تلبث أن ظهرت في إطار حركة الخوارج، وهي انشقاق له طابع ثوري، يجد أصوله في الجدل المتعلق بالحق في خلافة النبي محمد. وسرعان ما تطورت هذه الحركة في المغرب، حيث لجأ الثوّار الخوارج، وأسسوا عدة ممالك منشقة.

اعتبارًا من عام 144 هـ/761 م، أسس عبد الرحمن رستم دولة الخوارج المستقلة، في تاهرت، بالقرب من مدينة تياريت الحالية. في الفترة نفسها أسس أبو قرّة أيضًا مملكة خوارجية في ضواحي تلمسان. وفي عام 155 هـ/771 م، بسطت المملكتان المتحالفتان سلطتهما على المغرب الأوسط وإفريقيا.

المغرب الأوسط

لشبونة
طليطلة
قرطبة
غرناطة
فاس
مراكش
تلمسان
تاهرت
قلعة بني حماد
الجزائر
بجاية
تونس
باليرمو
طرابلس
بنغازي
الاسكندرية
القاهرة
القدس
دمشق
قونية
استانبول
بغداد

الرستميون (296-161 هـ/909-778 م) العاصمة: تاهرت
الحماديون (547-406 هـ/1152-1015 م) العاصمة: قلعة بني حماد
الزيانيون (962-633 هـ/1555-1236 م) العاصمة: تلمسان

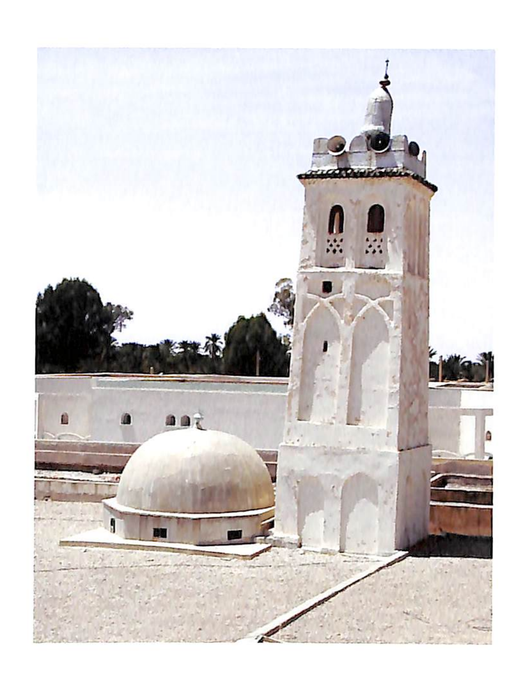
بعد ذلك بفترة قصيرة، قام أحد أحفاد علي، واسمه إدريس الأول، بتأسيس إمارة منشقة في فاس، ثم في تلمسان. وبعد ذلك بقرن، أي في عام 296 هـ/909 م، قام بنو رستم، الذين هربوا من عاصمتهم الأولى، بتأسيس سدراتة، بالقرب من ورغلة الحالية. وقد تم العثور فيها على بقايا مسجد وقصر، يحتوي على قطع جصية محفورة، وهي من أكثر الشواهد الفنية إثارة للاهتمام في كل تلك الفترة.

بعد أن طُرد بنو رستم من سدراتة، عند مجيء الفاطميين، أسسوا في عمق وادي مزاب، على بعد 600 كم، جنوب الجزائر، خمس مدن، ما زالت سلالتهم تعيش فيها حتى اليوم. وقد برهنوا على عبقريتهم، ضمن وسط معادٍ، وأمّنوا الاستمرارية لمذهبهم.

أصول الأسرة الحاكمة الفاطمية تكمن في المذهب الشيعي، وهو انشقاق حول الشرعية، تمامًا مثل حال حركة الخوارج، التي كان المذهب الشيعي يعارضها من خلال تعلقه القاطع بسلالة علي، مما ينفي أية إمكانية للانتخاب من أجل الخلافة.

في عام 298 هـ/910 م، وبعد الاستيلاء على مدينة سجلماسة، التي كان المهدي عبيد الله مسجونًا فيها، صار الفاطميون أسياد المغرب. ونظرًا لكونهم قد ضموا مصر إلى سلطتهم، فقد تركوا المغرب لحلفائهم الزيريين، وهم بربر من المغرب الأوسط. وهكذا صار هؤلاء حكام المغرب الخاضعين للفاطميين في مصر.

مسجد سيدي عقبة
زيري (416 هـ/1025 م). بُني حول ضريح عقبة بن نافع. يعود إلى (67 هـ/686 م).
بسكرة، الجزائر



كوة
زاوية في إحدى غرف قصر سدراتا
رستمي (296–467 هـ/909–1074 م)
متحف الآثار والفنون الإسلامية الوطني
الجزائر العاصمة، الجزائر

سلالات البربر

عندما استقر الزيريون في إفريقيا، تركوا مدينة أشير لأولاد عمهم بني حماد. وقد أعلن هؤلاء عن رغبتهم بالاستقلال، بتأسيسهم مدينة "قلعة بني حماد"، في جبال الهدنة، في جنوب شرق الجزائر، عام 398–399 هـ/1007–1008 م. احتفظ مسجد المدينة بمئذنته، التي تعتبر من أجمل الأبراج في الجزائر، كما أن زخارفه التي تتوزع بانسجام على جداول ثلاث، ستُستعاد في مئذنة الخيرالدا في إشبيلية، وفي القبة في باليرمو.

دامت الحرب بين أولاد العم الزيريين في إفريقيا، وبني حماد في المغرب، حتى عام 434 هـ/1042 م. لكن ورثتهم ما لبثوا أن أحلّوا السلام والتعايش ما بين المغرب الأوسط وإفريقيا.

يُجمع المؤرخون والجغرافيون، الذين عاصروا تلك الفترة، على أنها كانت عصر رخاء اقتصادي كبير. فقد شاركت مدن أشير، وقلعة بني حماد، ثم بجاية، بازدهار المنطقة، كما ساهمت في تحديد بعض ملامح العمارة المحلية، التي ستكون مصدر إلهام لمدن عظيمة، مثل تلمسان أو الجزائر.

في عام 440 هـ/1048 م، قطع الزيريون علاقات الخضوع التي كانت تربطهم بالفاطميين في القاهرة، واستعاد المغرب استقلاله. وللردّ عليهم، قرر الخليفة الفاطمي أن يرسل نحوهم كبرى قبائل البدو الرحل، من بني هلال وبني سُليم. وقد أخذ الغزو الهلالي شكل فوضى عامة. فقد تم تدمير البُنى التي كانت قيد التأسيس، والمدن الغنية، التي كانت في أوج ازدهارها، ولم تعد للزيريين المحاصرين قدرة على المقاومة.



مجسّم طائر
ربما كان مقبضًا

حمّادي (406–547 هـ/1015–1152 م)
متحف سرتا الوطني
قسنطينة، الجزائر

صحن

زيري (361–543 هـ/972–1148 م)
متحف الآثار والفنون الإسلامية الوطني
الجزائر العاصمة، الجزائر





قطعة من صحن

حمّادي (406–547 هـ/1015–1152 م)
المتحف الوطني
سطيف، الجزائر

موقع قلعة بني حمّاد

حمّادي (397–398 هـ/1007–1008 م)
المسيلة، الجزائر

أقراط

موحدي (القرن الـ 7 هـ/13 م)
المتحف الوطني
سطيف، الجزائر





حنفية نافورة

حمّادي (406–547 هـ/1015–1152 م)
المتحف الوطني
سطيف، الجزائر

بعد أن قام بنو حماد بدفع جزية كبيرة للبدو، الذين حلّوا بالقرب من القلعة، رضخوا لفكرة أن يتركوا المدينة، وينتقلوا إلى بجاية، عاصمتهم الثانية، التي تم تأسيسها عام 460 هـ/1067 م، على يد الناصر، في موقع مدينة سلداية القديمة.

شهد النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، عودة المغرب إلى الدين الرسمي مع مجيىء الفاتحين الجدد، وهم المرابطون، الذين يعودون بأصولهم إلى الصحراء المغربية. فبعد أن استولوا على مدن القوافل في سجلماسة، وفي أودغست، أسسوا في عام 463 هـ/1070 م، عاصمتهم مراكش التي انطلقوا منها لفتح مدن الشمال. وهكذا سقطت وهران ثم الجزائر في عام 475 هـ/1082 م.

باب البنود

حمّادي (القرن الـ 5 هـ/11 م)
بجاية، الجزائر

تاج

حمادي (406–547 هـ/1015–1152 م)
متحف المسيلة، دائرة الآثار الوطنية
المسيلة، الجزائر





أسد رابض

حمّادي (406–547 هـ/1015–1152 م)
متحف الآثار والفنون الإسلامية الوطني
الجزائر العاصمة، الجزائر

تتقاطع في الثقافة التي حملها معهم المرابطون، تأثيرات الصحراء التي ينحدرون منها، والمغرب والأندلس. فالمساجد الكبيرة التي نجدها في مدن تلمسان، ونيدرومة، والجزائر، هي من أعمالهم، بالإضافة إلى ما تركوه لنا من حوامل إفريز، ومنابر، مثل منبر المسجد الكبير في الجزائر، والذي يعتبر من روائع الأعمال الإسلامية في النحت على الخشب.

أما الموحّدون، الذين أتوا بعدهم، فقد حققوا النصر على قبائل البربر الجبلية، التي كانت تقيم في جبال الأطلس الأعلى المغربي. وقد أضفى أتباع مذهب ابن تومرت لقب خليفة على عبد المؤمن، وصار القائد السياسي لحركات الموحّدين التوسعية، التي استولت على مدن شمال المغرب، ثم وهران، في عام 540 هـ/1145 م، وعلى مراكش عاصمة المرابطين في عام 541 هـ/1146 م، وفي النهاية على الأندلس.

كذلك تم فتح إفريقيا. وزاد من أهمية المرحلة، أنها كانت الفترة التي عرفت فيها شمال أفريقيا، للمرة الأولى، نوعًا من الوحدة السياسية.

يجب أن نذكر أن كل واحدة، من هذه التجارب السياسية العديدة، قد وُلدت من حركة إصلاح دينية، مثل حركة الخوارج، والمذهب الشيعي، والمذهب المالكي، وحركة ابن تومرت. وقد استند انتشار هذا التأثير الديني، على قبائل الخوارج الثائرة، ثم على بني قطامة الفاطميين من منطقة القبائل، فقبائل البربر من الجنوب المغربي، على التوالي. كما تجدر الإشارة إلى أن مؤسسي هذه الحركات، كانوا في كل مرة يبادرون للتحكم بطرق ومدن القوافل، كما حصل في مدينة سجلماسة.

لكن ما أن ظهرت علامات الضعف في مملكة الموحدين، حتى بدأت الثورات، التي اندلعت داخل القصور، تهدد وحدة المملكة. وقد قامت قبائل الحفصيين، وبنو عبد الواد، وبنو مرين، بنيل استقلالهم على التوالي، وقسموا أراضي مملكة الموحدين إلى ثلاثة.





دينار
وجود مضارب النقد في بلدات خارج العاصمة، مراكش، يؤكد نفوذ المرابطين، وتوسعهم وثروتهم (537 هـ/ 1142 م) متحف الآثار والفنون الإسلامية الوطني الجزائر العاصمة، الجزائر



حجر زاوية أحد الأقواس

حمادي (القرن الـ 6 هـ/12 م)
متحف الآثار والفنون الإسلامية الوطني
الجزائر العاصمة، الجزائر

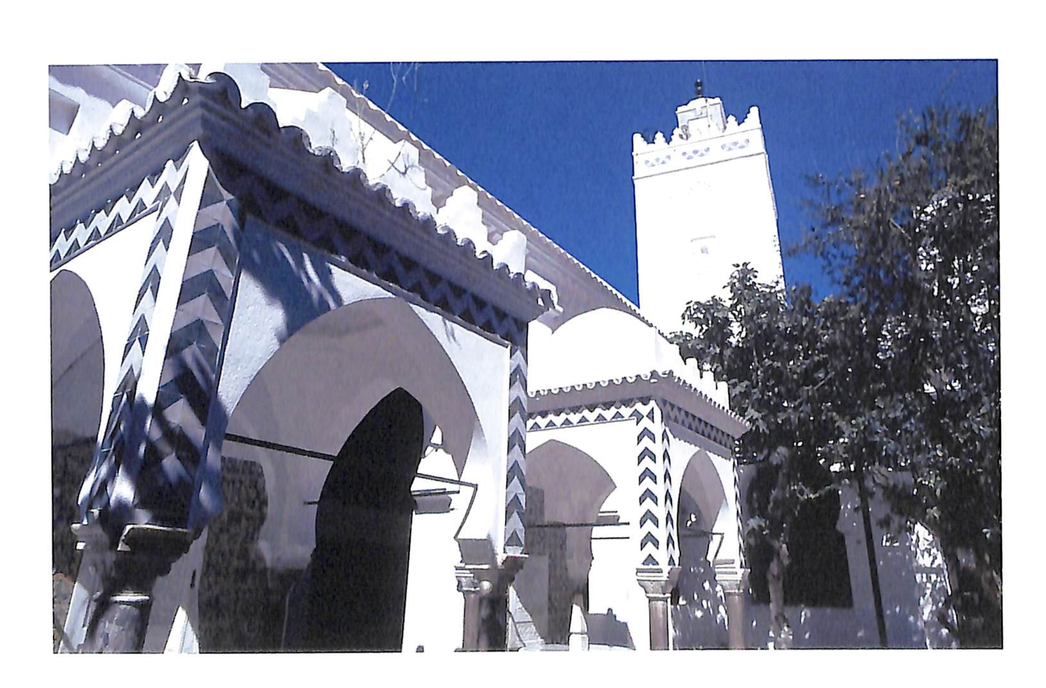
مسجد تلمسان الكبير
مشهد داخلي

مرابطي (530 هـ/1136 م)
تلمسان، الجزائر



منبر من مسجد الجزائر الكبير

مرابطي (490 هـ/1097 م)
متحف الآثار والفنون الإسلامية الوطني
الجزائر العاصمة، الجزائر



مسجد الجزائر الكبير

مرابطي (490 هـ/1097 م)
الجزائر العاصمة، الجزائر

التهديد المسيحي والرد العثماني

انتظمت المحاولات المختلفة لبناء دولة حول هذه التجمعات الثلاثة. وبسبب ضعف السلطات المركزية، لم يعد المغرب موحدًا.

على الصعيد الاقتصادي كان لفتح الطرق الأطلسية دوره في حرمان المنطقة من أرباح تجارة القوافل. فقد كان التجار المسيحيون يمتلكون وكالات تجارية في المرافئ المغربية، مما زاد من ارتباط المغرب برأس المال الأوروبي.



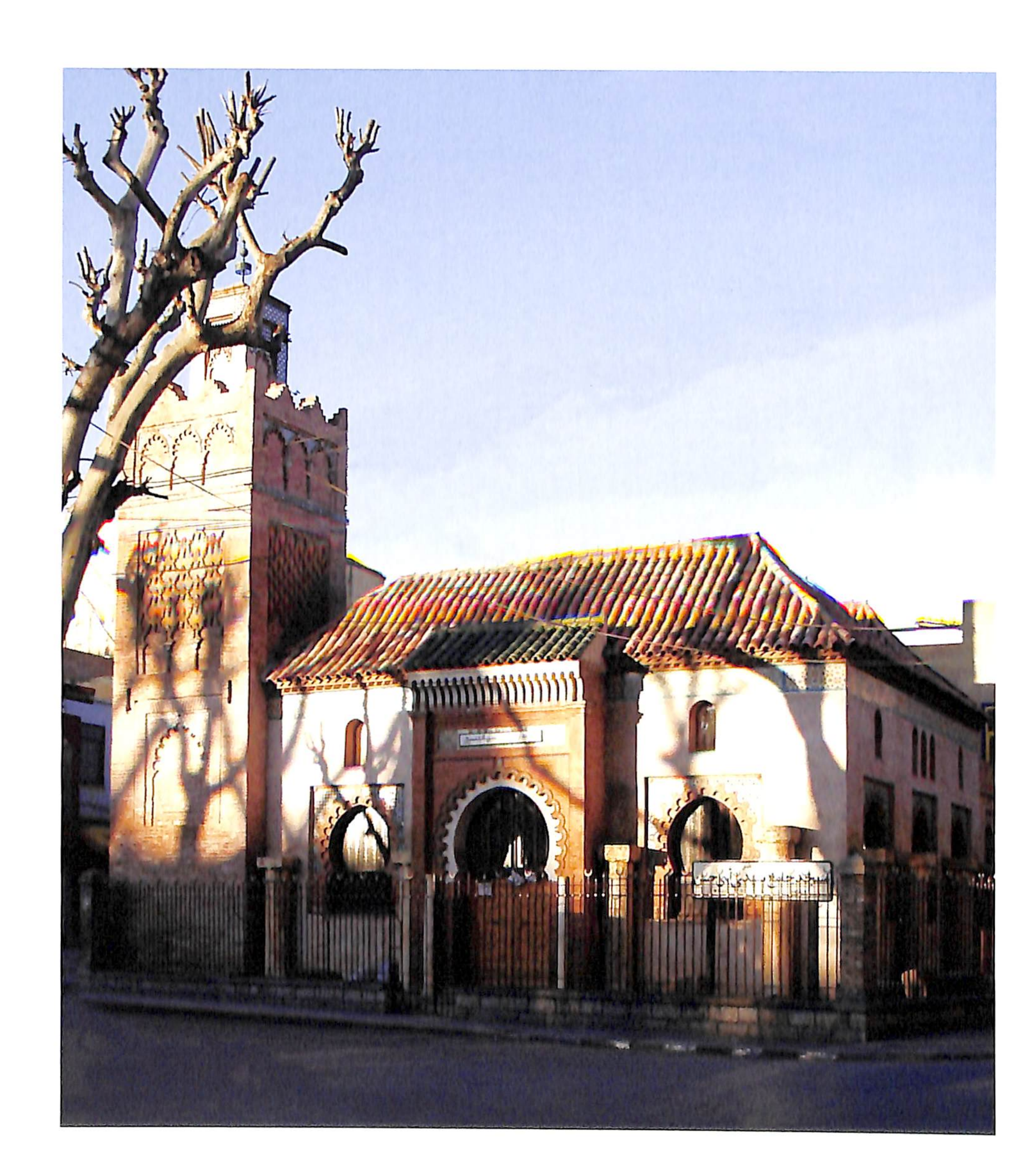
أسفل يمين
ذراع قياس
مستخدم تجاريًا في السوق

زياني (728 هـ/1328 م)
متحف تلمسان، إدارة الآثار الوطنية
تلمسان، الجزائر



المحلة المنصورة (مخيم المنتصرين)
قاعدة عسكرية

ماريني (698 هـ/1299 م)
تلمسان، الجزائر



مسجد سيدي بالحسان

عبد الوديد (696 هـ/1296 م)
تلمسان، الجزائر

ظلت مدينة تلمسان غنية، بسبب كونها مرفأً صحراويًا، وصارت عاصمة مملكة بني عبد الواد. وقد امتلأت بالصروح التي تعكس الفن الإسلامي، في هذه الفترة. ويُعتبر محراب مسجد سيدي بن حسن، تحفة من تحف فن الحفر. كذلك فإن ملوك بني مرين الذين احتلوا المدينة لفترة، قاموا بتبجيل أوليائها من خلال بنائهم لضريح سيدي بومدين، وسيدي الحلوي.

في نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وبالإضافة إلى التدهور الاقتصادي، بدأ الإسبان يهددون المرافئ المغربية. وبالتالي لجأت هذه المرافئ باسم الإسلام إلى الأتراك العثمانيين، الذين بدأوا بمحاولة توحيد الأجزاء المتباعدة من العالم الإسلامي.

وهكذا من خلال الصورة التي أضفيت على العثمانيين، كأبطال للإسلام، استجابوا لنداء مدينة الجزائر الحالية، التي طالبتهم بتحريرها من السيطرة الإسبانية. وهكذا صارت الجزائر أول مدينة تابعة للإمبراطورية العثمانية في إفريقيا الشمالية. وبدخوله في هذه المجموعة سيجد المغرب الطاقة الكافية لصدّ التهديدات المسيحية. وقد انقسمت البلاد إلى ثلاث ولايات، أو بيالق، وعلى رأس كل منها «باي» يعينه «الداي» الذي تعينه استنبول.

استطاعت القرصنة، وهي نشاط اقتصادي متوسطي، أن تؤمن خلال قرنين من الزمن، عائدات هامة للإمارة. كذلك امتلأت المدن بالمساجد التي تشي بالتأثيرات العثمانية الواضحة، بقببها، وبمخططاتها "البازيليكية"، كما في جامع الجديد في الجزائر، في حين أن القصور والمساكن كانت تحتفظ بالتأثيرات المحلية، المستمدة من مدن مثل أشير، أو القلعة.

ميدالية
تقول الكتابة: «الملك لله وحده»

موحدي أو حفصي (524–668 هـ/ 1130–1299 م) أو (627–982 هـ/ 1229–1574 م)
متحف سرتا الوطني
قسنطينة، الجزائر





طبق كبير
موضوع على مائدة خشبية مطلية مستخدم لتقديم وجبات الطعام

عثماني (1156 هـ/1743 م)
متحف الآثار والفنون الإسلامية الوطني
الجزائر العاصمة، الجزائر

الصفحة المقابلة
دار عزيزة بنت الباي (قصر الأميرة)

عثماني (القرن الـ 10 هـ/16 م)
الجزائر العاصمة، الجزائر



ومع ذلك، عندما بدأ الأوروبيون يطورون تحكُّمهم التدريجي بالبحر المتوسط، بدأ نشاط القرصنة يتناقص، وصار بمثابة الرمق الأخير للقدرات البحرية المغربية، التي كانت آيلة إلى الزوال. وكعلامة على مرور الزمن، نرى مدينة الجزائر التي كانت في الماضي تضم ما يقارب مائة ألف نسمة، لا تحتوي في عام 1245–1246 هـ/1830 م، عندما بدأ الاستعمار الاستيطاني الفرنسي للجزائر، سوى ثلاثين ألف نسمة.



شاهدة قبر

عثماني (925–1245 هـ/1519–1830 م)

متحف الآثار والفنون الإسلامية الوطني

الجزائر العاصمة، الجزائر

الأعلام:

عقبة بن نافع عبد قيس القرشي الفهري

(عاش ما بين عامي 1–64 هـ/622–683 م)

ولد في السنوات الأخيرة من حياة النبي محمد، وهو ابن شقيقة عمرو بن العاص. عيِّن قائدًا لمنطقة إفريقيا في عام 49 هـ/670 م، وأسس مدينة القيروان. تم عزله في عام 55 هـ/675 م، ثم أعيد إلى منصب حاكم إفريقيا من جديد في عام 63 هـ/683 م.

بدأ فتوحاته التي أوصلته إلى مضيق جبل طارق، ثم قُتل على يد قائد البربر كسيلة، في تهودة، بالقرب من بيسكرة، حيث دُفن. ما زال قبره وقبور رفاقه موجودة حتى اليوم، على بعد عدة كيلومترات من بيسكرة، في منطقة يطلق عليها اسم "سيدي عقبة".

عبد الرحمن بن رستم

(حكم ما بين عامي 161–171 هـ/778–788 م)

مؤسس تاهرت، وزعيم مذهب الأباضيين. ولد في العراق، وأصله فارسي. مات والده رستم أثناء الحج إلى مكة، ولأن أمه تزوجت حاجًّا من المغرب، فقد نشأ في القيروان، وصار واحدًا من الدعاة الخمس، الذين نشروا المذهب الأباضي.

أسس في المغرب الأوسط مدينة تاهرت، التي تطورت ما بين عامي 143–296 هـ/908–960 م.

حماد بن بلقّين

(حكم فيما بين عامي 405–419 هـ/1015–1025 م)

ابن الأمير الزيري بلقّين، الذي حكم المغرب باسم الفاطميين اعتبارًا من عام 361 هـ/972 م، وهو التاريخ الذي قام به هؤلاء بفتح مصر، والإقامة بها. عند موت بلقّين في عام 374 هـ/984 م، أسس حماد مدينة القلعة، وأعلن استقلاله.

عبد المؤمن بن علي

(حكم فيما بين عامي 524–558 هـ/1130–1163 م)

مؤسس أسرة الموحّدين الحاكمة في حوالي عام 524 هـ/1094 م. حفظ القرآن، وأتم دراسته في مدينة تلمسان. صار تلميذ ابن تومرت في عام 516 هـ/1123 م، ونال لقب أمير المؤمن، الذي منحه إياه المهدي. تسلَّم منصب القائد الأعلى للموحدين، وبسط سلطته على كل المغرب وإسبانيا. خلال حكمه الطويل قام بتأسيس وترميم عدة مدن.

«وجعلنا من الماء كل شيء حي»: الماء في الإسلام

شيلا كانبي، وزينة تقي الدين



صهاريج أغالبية
مشهد دعائم أحد الصهاريج

عباسي (248 هـ/862 م)
القيروان، تونس

«وجعلنا من الماء كل شيء حي»: الماء في الإسلام

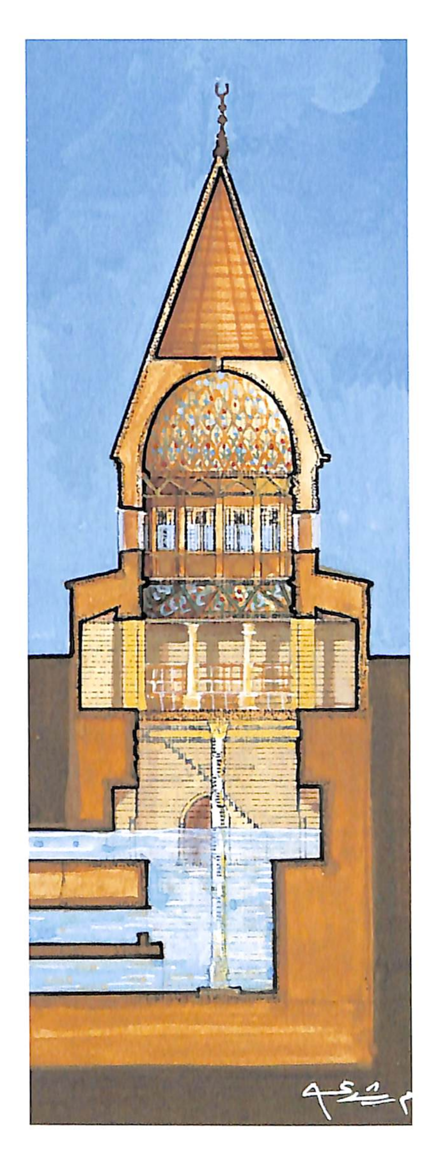
تقليديًا، دأب الإنسان على ابتكار جملة متنوعة من الأساليب، للحفاظ على رصيد مائي منتظم وكافٍ للاستخدامات الشخصية، الطَّقْسية والزراعية. وفي المجتمع الإسلامي تمتع الماء بقُدْسية خاصة، لأنه سرُّ الحياة كما يقول القرآن: «وجعلنا من الماء كل شيء حي».

ولأن جزءًا كبيرًا من العالم الإسلامي جاف، فإن أساليب إدارة الماء، وتوزيعه، كانت متطورة ومتنوعة، بما فيها قنوات تحت الأرض، القنوات النظامية، القنوات الاصطناعية المرفوعة، الصهاريج، السدود، الخزّانات المَطَرية، والنواعير.

شهدت الدولة الإسلامية، الممتدة من الأندلس غربًا، إلى آسيا الوسطى، شرقًا، توسعًا ونموًا سكانيًا هائلين. وإضافةً إلى أساليب توزيع الماء، ما قبل الإسلامية، الموروثة عن: الأنباط، الرومان، والبيزنطيين، تَمَّ اعتماد مناهج مبتكرة على صعيد إدارة الماء. فالحكام الإقليميون كانوا مسؤولين عن ضمان رصيد الماء في المدن والأرياف.

فقط المهندسون الأكثر أهلية، والمتحلُّون بالمهارة على أصعدة الرياضيات، الفيزياء، الهندسة، والفلك: (التنبؤ المُناخي، وضبط الوقت)، والبستنة: (هندسة البساتين)، كانوا يُستخدمون للحفاظ على شبكات موثوقة وعادلة لتوزيع الماء.

كانت قنوات محفورة عبر الصحراء تروي الأرض، ومنشآت ضفاف الأنهار الميكانيكية، الشبيهة بمقياس النيل في مصر، والنواعير في حماه، كانت تتحكم بالفيض والتدفق. وصيانة الصهاريج في الخانات النائية، كانت جوهرية بالنسبة إلى كل من المسافرين والحجاج، على حدٍّ سواء. كذلك كانت ثمة آبار وأحواض توفر الماء للعامة.



مقياس النيل، مقطع عرضي

عباسي (247 هـ/861 م)
جزيرة الروضة، في نهر النيل
القاهرة، مصر



بحرات سليمان

الأولى والثانية: روماني (القرن الـ 1 ق. م)؛
الثالثة: مملوكي (865–872 هـ/
1461–1467 م)
بيت لحم، السلطة الفلسطينية

إن وثائق الوقْف تبيّن أن بعضها كان مخصصًا للبشر، في حين كان بعضها الآخر، مخصصًا، وبقدر مواز من الاهتمام، للحيوانات كالأبقار وجمال القوافل. يشكل تقديم الماء مجانًا إلى العطشان، واجبًا على كل مسلم.

وخلال الحقبتين الأيوبية والمملوكية (بين القرنين السادس والعاشر الهجريين/القرنين الثاني عشر والسادس عشر الميلادي)، خرجتْ آبدةٌ مميزة عُرفت باسم السبيل، من رحم هذا المفهوم، ولاسيما في القاهرة، والقدس، ودمشق.

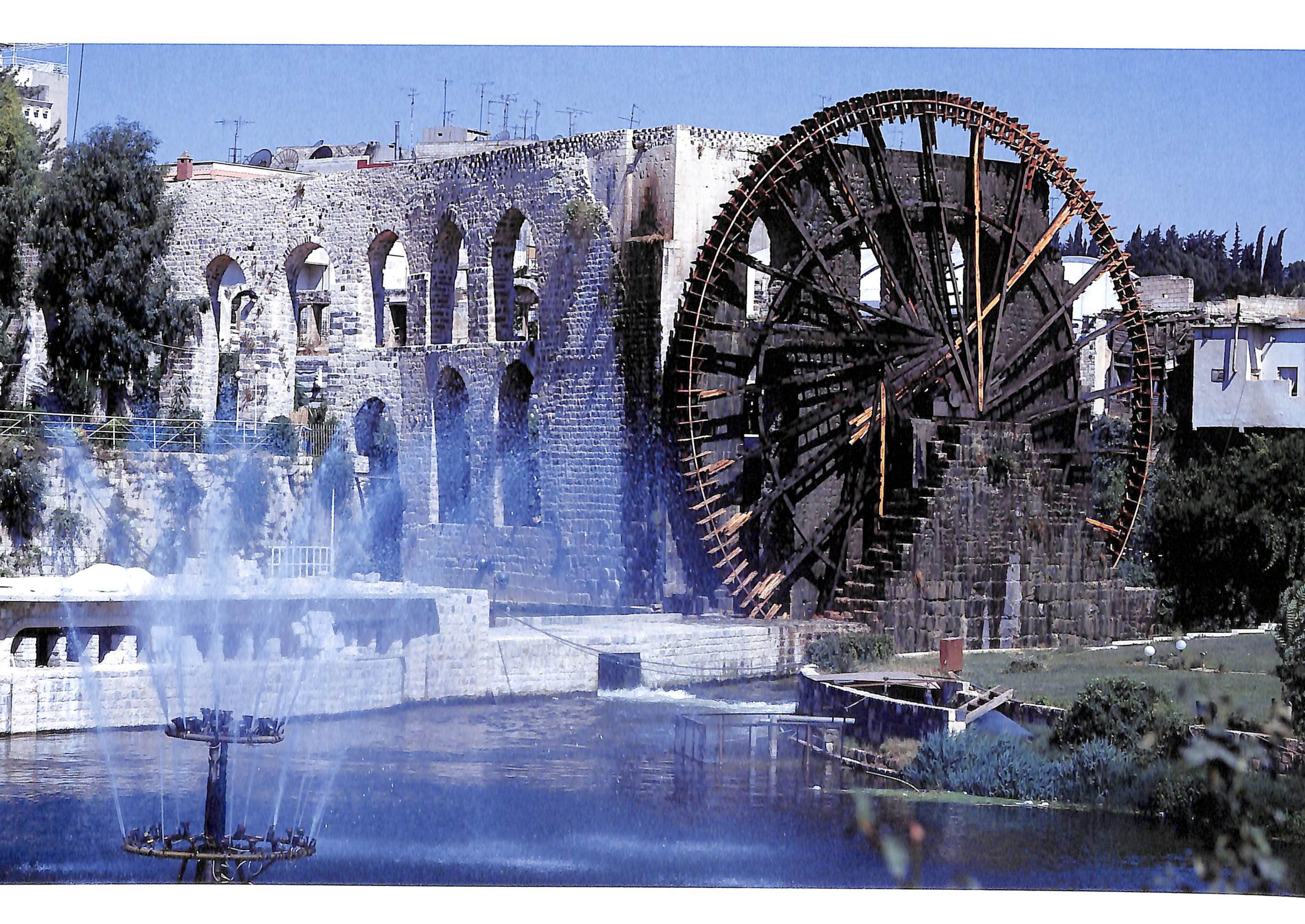
كانت هذه الآبدة (السبيل) تتألف من صهريج تحت الأرض، حجرة ذات نافذة مشبكة، مطلة على الشارع. وكان المشرف على السبيل يوزع منها الماء في كؤوس، وثمة شرفة على الطبقة الأولى كانت تُستخدم مدرسة للصبية.

وتمامًا، كما كان المارة العطاش ينهلون ماء السبيل المجاني، كان الصبية الفقراء يحصلون على التعليم المجاني؛ فعَمَلا الخير هذان كلاهما كانا يعممان الإحسان على الجماعة، ويؤديان إلى إكساب المُحسن فيضًا من البركات الروحية.

في الأجزاء الغربية من دنيا المسلمين، ولاسيما في المغرب، عُرفت مصادر المياه العامة هذه باسم السقاية. كثيرًا ما كانت مصممة على شكل قنطرة محفورة في الجدار، مع

ناعورة في حماه

أتابكي، أيوبي، مملوكي وعثماني (القرن الـ 6–10 هـ/12–16 م)
نهر العاصي، حماه، سورية



ماء متدفق من حنفيات تصبُّ في حوض. ونموذجا السبيل والسقاية، كلاهما، موجودان في استنبول العثمانية. وفي مواقع القصور الصحراوية الأموية، الموجودة في كل من الأردن وسورية، أو الحمراء في أسبانيا، ثمة نوافير زينة وقنوات كانت تروي حدائق مزدهرة.

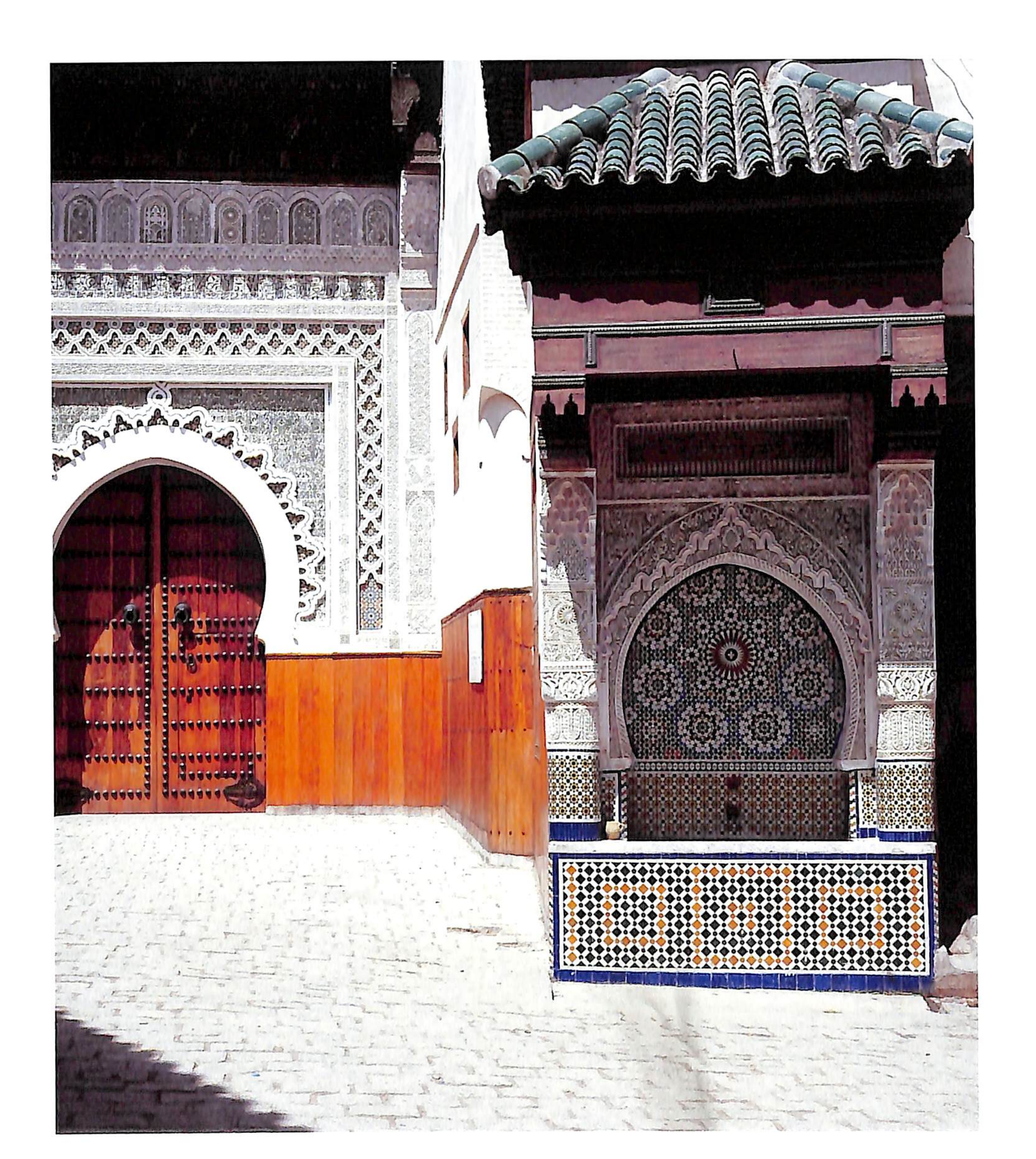
إن الحاجة إلى الوضوء المنتظم، وتأكيد القرآن للنظافة الشخصية، أدَّيا إلى استحداث الحمامات العامة. وكان كل منها يتألف من غرفة لخلع الملابس، غرفة غير مدفَّأة، غرفة دافئة، وغرفة بخار (ساونا). وفيما يمكن للذهاب إلى الحمام أن يكون حدثًا أسبوعيًا، أو مرة كل شهرين، بالنسبة إلى العائلات الأفقر، فإن الوضوء الشعائري يتم خمس مرات في اليوم، نظرًا لأن النظافة قبل الصلاة إلزامية. إن الجوامع والكتاتيب (المدارس الدينية) توفر الأحواض اللازمة لذلك.

أفضى الطابع الثمين للماء في المناطق الصحراوية، إلى تزيين الأدوات المستخدمة للشرب والغسيل. فالأباريق، والأقداح، والطاسات، مصنوعة بكل الأشكال، ومن سائر المواد: من الزجاج، والخزف، والحجر، والمعدن. وهي تجمع بين وظيفة احتواء الماء، والمواصفات الجمالية للكماليات. ففي العائلات الغنية كان الخدم يصبون الماء على أيدي المدعوين إلى الطعام من أباريق معدنية مزخرفة، في أحواض لغسل الأيدي قبل الوجبات. ومثل هذه الأحواض كانت في الغالب مزينة، من الداخل، بسمكة مركزية في القاع، تبدو سابحة عند امتلاء الحوض بالماء.

إناء ماء

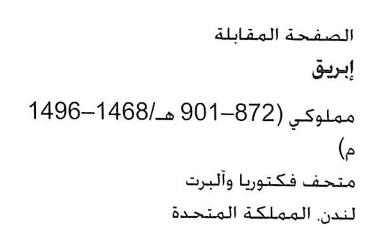
موحدي (النصف الثاني من القرن الـ 6 أو النصف الأول من القرن الـ 7 هـ/12–13 م)
متحف ميترولا
ميترولا، البرتغال





منهل خان النجارين

علوي (1123 هـ/1711 م)
في قلب مدينة فاس القديمة، خان النجارين
فاس، المغرب

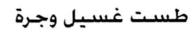


الصفحة المقابلة
إبريق

مملوكي (872–901 هـ/1468–1496 م)
متحف فكتوريا وألبرت
لندن، المملكة المتحدة







طست غسيل وجرة

ما بعد زنكي (النصف الثاني من القرن
الـ 8 هـ/الربع الثالث من القرن الـ 13 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية
برلين، ألمانيا





مصفاة لخابية الماء

فاطمي (القرن الـ 4–5 هـ/10–11 م)
معرض فنون ومتحف كلفنغروف، متاحف غلاسكو
غلاسكو، المملكة المتحدة

ثمة قدور كبيرة، ثلاثية الأرجل، أو حاويات أصغر، كانت تستخدم لغلي الماء. أما الطاسات الزجاجية فكانت تستخدم لشرب الماء، في حين كانت الجرار الفخارية غير المصقولة، ذوات المصافي المخرَّمة، تُبْقي الماء باردًا ونظيفًا، لأن الحشرات لم تكن تستطيع التسلل عبر المصافي، رغم سماح الصلصال ذي المسامات المنفذة للماء بالتنفس.

«فن المُدجَّنين»: التراث الإسلامي في البرتغال وإسبانيا المسيحيتين

غونزالو بوراس غواليس، وسانتياغو ماثياس



مسجد ميرتولا
محوّل إلى كنيسة، بعد إعادة الاحتلال، وأُعيد بناؤه في القرن الـ 16 م.

موحدي (النصف الثاني من القرن الـ 6 هـ/12 م)
ميرتولا، البرتغال

«فن المُدجَّنين»: التراث الإسلامي في البرتغال وإسبانيا المسيحيتين

مصطلح «المُدجَّنين» مُشتقٌ من اللفظة العربية «مُدجَّن»، التي كانت تُطلق على المسلمين الذين بقوا في الأندلس، بعد أن عادت إلى حكم المسيحيين، معماريون، وفنانون، وحرفيون مسلمون، مع عائلاتهم عاشوا قرونًا عدة، وعملوا تحت الحكم المسيحي، وفيما بين القرنين السابع والتاسع الهجري/الثالث عشر والخامس عشر الميلادي، ثمة العديد من الكاتدرائيات والكنائس والأديرة والقصور، تمَّ بناؤها في الأماكن التي تسمى اليوم إسبانيا والبرتغال، وهذه تم تصميمها وتنفيذها من قبل أولئك «المدجنين»، وفق قناعاتهم الدينية ورؤاهم الفلسفية للمكان والأشكال والزخارف، وبالاعتماد على قدراتهم الهامة في مجال الهندسة والبناء واللون، الفن الذي أبدعه هؤلاء المعماريون والفنانون المسلمون دُعي باسمهم «فن المدجنين».

يبدو فن المدجّنين في إسبانيا المسيحية شكلاً فريدًا من التعبير الفني، في سياق الفن الأوروبي الغربي، في العصور الوسطى. فقد ساد الفن الروماني والفن القوطي بأصولهما الفرنسية في العمارة المسيحية الإسبانية من القرن الخامس وحتى القرن السابع الهجري/القرن الحادي عشر وحتى القرن الثالث عشر الميلادي، بدءًا من كاتدرائية سان جاك دو كومبوستيل ووصولاً إلى كاتدرائية بورغوس. لكن عوامل اجتماعية واقتصادية، جعلت فن المدجّنين الذي يعود بأصوله إلى الأندلس، ينافس الفنون الأوروبية.

وصل فن المدجّنين إلى أوجه في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وظل موجودًا حتى العصر الحديث (في جزر الكناري، وفي أمريكا اللاتينية).

وطراز المدجّنين منظومة فنية كاملة: فهو لا يقتصر على بعض السمات المعزولة، وإنما يستجيب لكل حاجات البناء، ولا يجب أن نفسره على أنه عمارة رومنسكية، أو قوطية، من الآجر، لأن هذه المشيّدات الدينية، حتى وإن كانت مسيحية، تختلف في كل النواحي عن مثيلاتها الرومنسكية، أو القوطية.



زبدية

مدجني، القرن الـ 14 الميلادي

مجموعة بورل، متاحف غلاسكو

غلاسكو، المملكة المتحدة



قبة من طليطلة

مدجني (أواخر القرن الـ 15 م)

متحف الآثار الوطني

مدريد، إسبانيا

كاتدرائية القديسة ماريا

مُدجَّني (النصف الثاني من القرن الـ 13 إلى 1538 م)
تيرول، إسبانيا

جرة عطارين

مدجني (القرن الـ 15 م)
متحف الآثار الوطني
مدريد، إسبانيا



وعلى الرغم من أن الآجر هو مادة البناء، وأن اسمه يُطلق على عدد من المباني الموجودة في مناطق، مثل آراغون، فإن ذلك لا يعني أن الآجر كان المادة الوحيدة، أو المادة المسيطرة. كذلك فإن المباني التي تحمل هذه الصفة ليست جميعها من أصل مسيحي، فبعضها إسلامي الأصل، كما في أبراج الأجراس، التي لها في الداخل ترتيب المآذن، أو في المجموعة الغنية من السقوف الخشبية، السقوف المستوية المنبسطة المزخرفة (مكونة من ألواح مشغولة ومزخرفة)، والسقوف الجملونية (سقف أطرافه مغلقة بسطوح منحدرة، تمسك بها عوارض أفقية، تدعم العوارض المائلة، التي تشكل بمجموعها زاوية).

ومع ذلك فإن المبدأ الأساسي لفن المدجّنين لا يكمن في طريقة البناء، بحد ذاته وإنما في الزخارف التي تضم أشكالاً مسيحية، يتبدى فيها الإيقاع المركب لجماليات التقاليد الإسلامية.

لا تنحصر المظاهر الفنية المدجّنة بالعمارة الدينية أو المدنية. فالفنون الزخرفية المدجّنة تبدو على القدر نفسه من الفخامة، وعلى الأخص الخزف المزخّرف الذي كانت تنتجه بغزارة مشاغل فالانسيا (باتيرنا ومانيسيس)، وآراغون (تيرويل وموبيل) وكاتالونيا (مانريسا)، والذي يندرج في مجموعات، تبدأ من الخزف المطلي بالأخضر ولون المنغنيز (زخارف خزفية تنحصر في لونين، هما: أخضر أوكسيد النحاس، واللون شبه الأسود للمنغنيز، وتكون عادة مغطاة بطلاء مزجّج شفاف من الرصاص)، وصولاً إلى القطع ذات البريق المعدني (زخارف من السيراميك، أساسها صباغ مكوّن من النحاس والحديد والفضة، يتم تطبيقها على التزجيج، ومن ثم شيّها في حرارة تساعد على التقلّص) وفقًا لنماذج الأندلس.

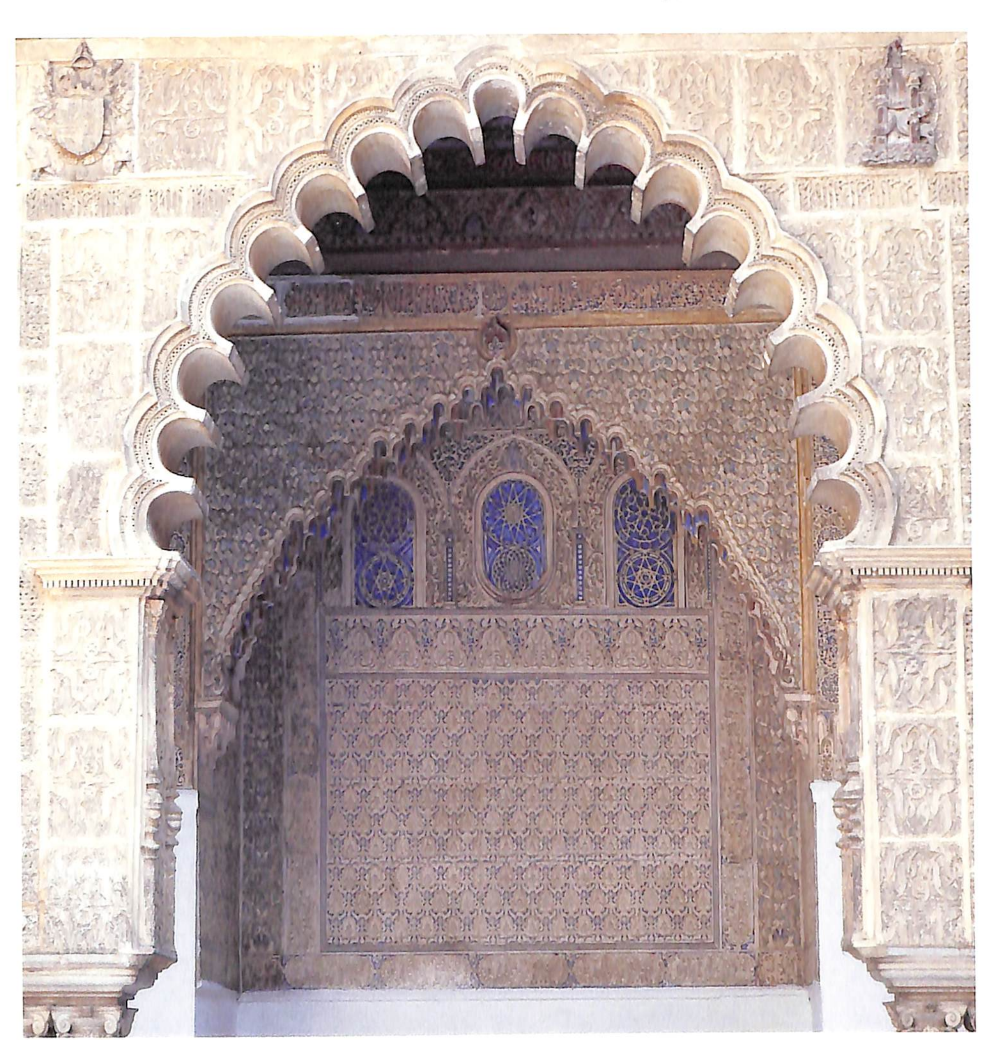
لا بل إن الخزف المزخرف قد اكتسب في فن المدجّنين وظيفة جديدة عندما صار يوضع على الواجهات الخارجية، مما يخفف من وطأة المادة المعمارية، ويجعلها أقل ثقلاً. يمكن أن نرى أمثلة على ذلك في أبراج تيرويل (سانتا ماريا، سان بيدرو، سان مارتين، برج المنقذ).

يمكن أن نجد فن المدجّنين الإسباني، بكل غناه وتنوعه، في مئات من الصروح المعمارية للمراكز الإقليمية، في ليون وقشتالة العتيقة وطليطلة وإيستريمادور وإشبيلية وغرناطة والآراغون. وكان يُنفذ بناء على تكليف من أهل البلاط، ومن الأرستقراطية، كما في قصر بيير الأول القاسي في قشتالة الذي بُني ما بين عامي 765–767 هـ/1364 و 1366 م، وتم تقليده في عديد من القصور الملكية في إشبيلية.

كذلك كان يتم بناء على طلبات شعبية، كما في كنائس رعية طليطلة (سان رومان وسانتياغو ديل آرابال) وإشبيلية (سان ماركوس وسانتا مارينا) وليبريخا (سانتا ماريا ديل كاستيو وسانتا ماريا دي لا أوليفا)، وغرناطة (سانتا آنا وسان خوان دي لوس ريس) أو سرقسطة (سان بابلو، سانتا ماريا ماغدالينا وسان ميغيل).

أما أبراج الأجراس التي تتراكب فيها حجرة الجرس فوق بنية مئذنة، فلها عادة مخطط مربع؛ لكننا نلاحظ في آراغون مخططات مثمّنة (سان بابلو في ساراغوسا). كذلك وصلت إلينا بعض بيوت المدجّنين (في أسوار طليطلة وفي كارمونا) وبعض البيوت الموريسكية (كتلك التي تتوزع في حي آلبايكين في غرناطة).

مع نهاية الفتح المسيحي للغرب الإيبيري، في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ثبتت الحدود البرتغالية بشكل نهائي، وبدأ يتشكل إطار تاريخي جديد. فقد رحل قسم من النخبة المسلمة التي كانت تعيش غرب الأندلس إلى مملكة غرناطة، وتركوا المنطقة للسادة المسيحيين الجدد.



قلعة إشبيلية
فناء بحسناوات (تفصيل)
مُدجَّني (القرن الـ 13–15 م)
إشبيلية، إسبانيا

ومن العوامل التي ساهمت في محو معالم الحضور الإسلامي في البرتغال في القرنين السابع والثامن الهجري/الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، كان الفقر الذي بدأ يعاني منه المدجّنون، والظروف التي أحاطت بالتواجد الإسلامي في الغرب الأقصى، والحضور القوي للمجموعة المسيحية من السكان، والنسيان التدريجي الذي غلف فترة تمتد إلى عدة قرون (من القرن السابع حتى القرن العاشر الهجري/ الثالث عشر حتى السادس عشر الميلادي).

وهكذا صارت الآثار المتبقية من الحضور الإسلامي في البرتغال نادرة، ولم تعد المساجد والمدارس سوى ذكرى، وتم تشييد أبنية جديدة على الأراضي التي كانت تقوم عليها البيوت العادية. أما قطع الأثاث، فقد فعل الزمن والنهب فعلهما فيها. واكتمل الأمر مع طرد اليهود والمسلمين في عام 901 هـ/1496 م، إذ حاق الصمت شبه الكامل بكل ما يتعلق بتلك المرحلة.

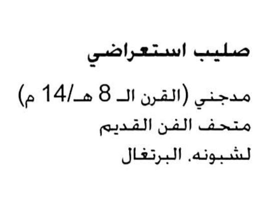
استطاعت التنقيبات الأثرية أن تعيد جزئيًا بعضًا من ملامح تلك الفترة، إذ حُفظت في البرتغال بعض القطع، مثل شاهدتي قبرين إسلاميين تعودان إلى ما بعد عام 647 هـ/1250 م، وتاجين يحتويان على كتابات دينية، كانا بلا شك ملك الجماعة الإسلامية، بالإضافة إلى وعاء

كنيسة سانتياغو ديل آرابال

مُدجَّني (1245–1247 م)

طليطلة، إسبانيا



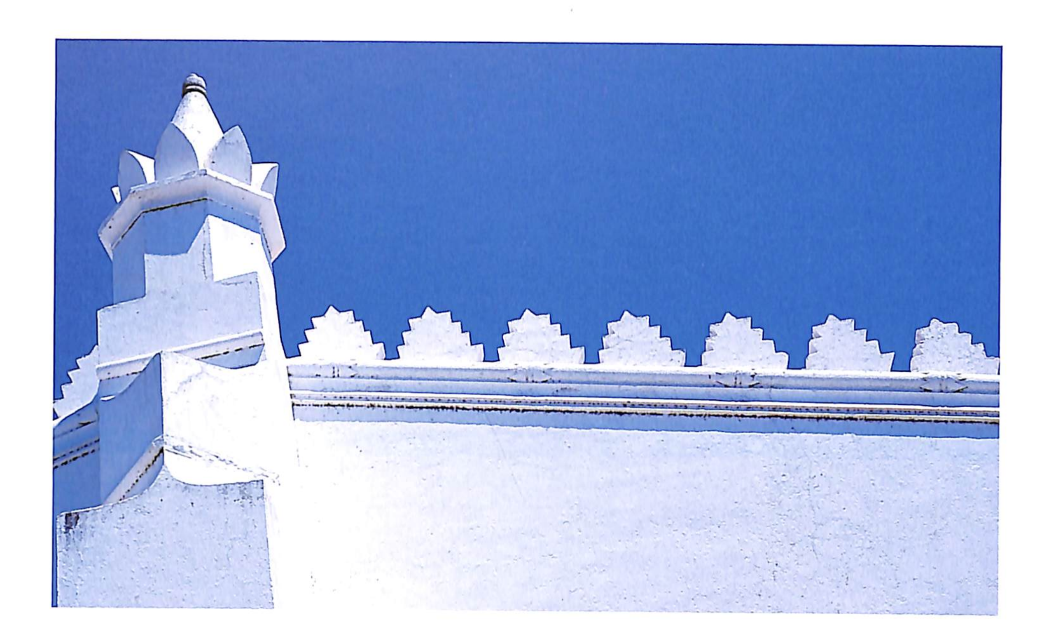


صليب استعراضي

مدجني (القرن الـ 8 هـ/14 م)
متحف الفن القديم
لشبونه، البرتغال

للوضوء، من جامع موراريا في لشبونة، وصليب للمواكب فيه زخارف إسلامية تبرهن على أصول من قام بها، وتعكس الصلات ما بين المجموعات السكانية المسيحية والمسلمة.

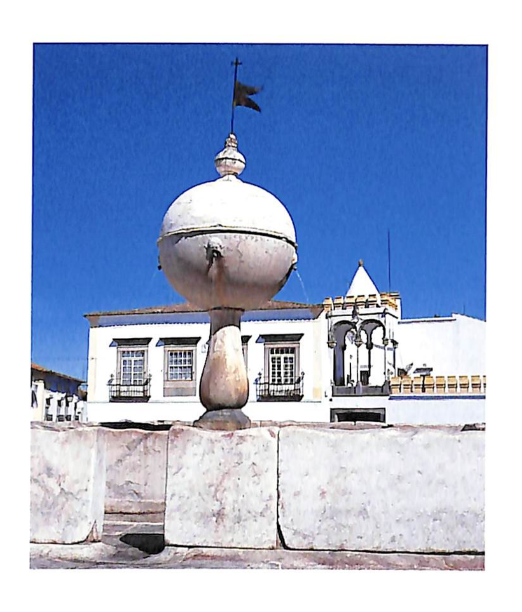
ومع أن هذه الأمثلة متواضعة، فإنها تشهد على حضور الفنانين المسلمين في الأراضي البرتغالية، وليس فقط في السجلات: فقد قام معلم البناء كالفو الموريسكي، في نهاية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، بتشييد قصر الأندورال (آلينتيخو)؛ وهناك معلم آخر ترك شكواه مكتوبة على جدران كاتدرائية كويمبرا، في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.



مسجد ميرتولا (تفصيل)

مقلوبًا إلى كنيسة. في القرن الـ 10 هـ/16 م. مع سمات مستلهمة من الفن الإسلامي موحدي (النصف الثاني من القرن الـ 6 هـ/ 12 م)

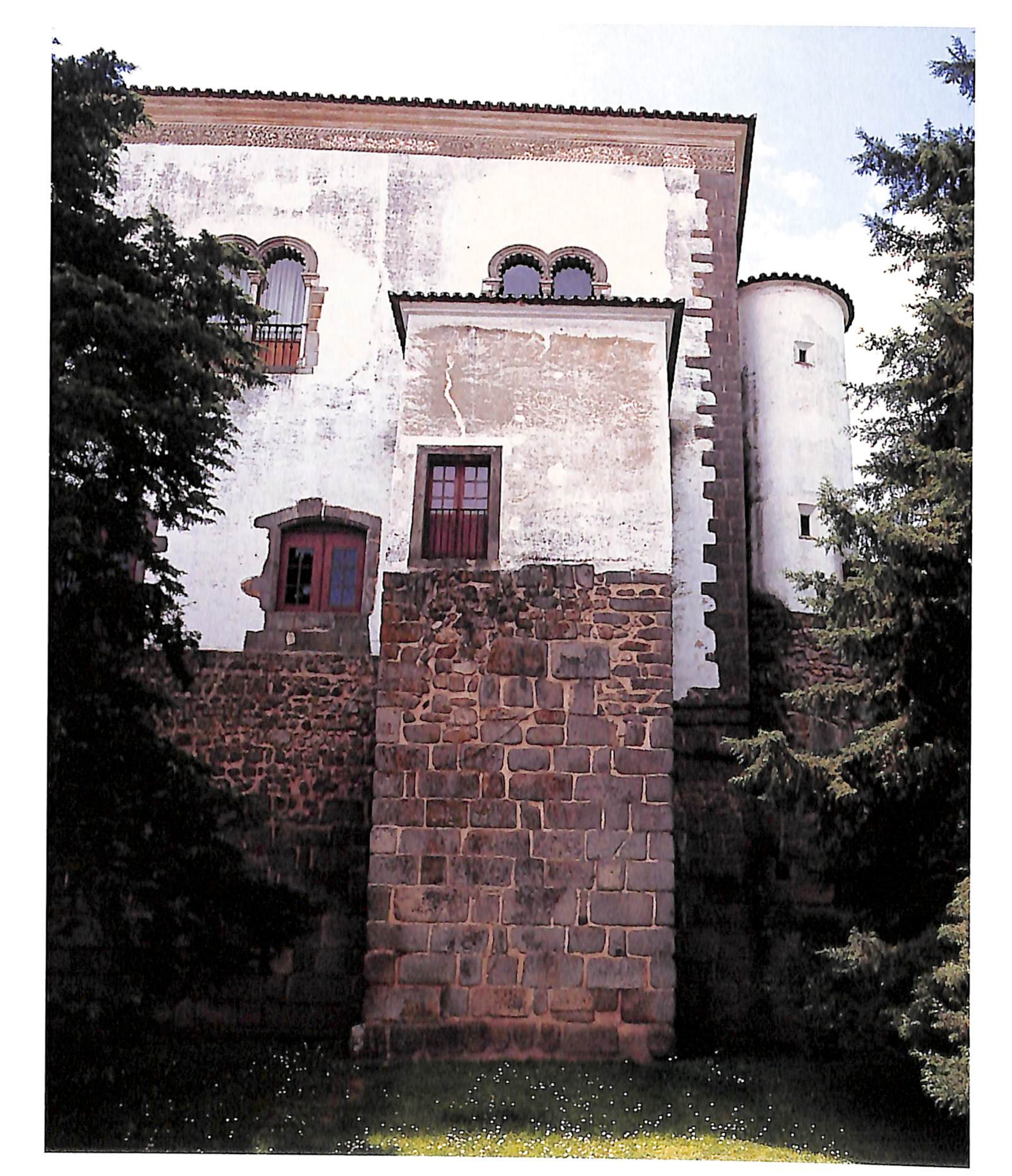
ميرتولا. البرتغال



قصر قرطبي

مُدجَّني (9–10 هـ/آخر القرن الـ 15– أول القرن الـ 16 م)

ايفورا. البرتغال



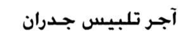
أسوار مدينة ايفورا

مشهد من قصر كونت باستو. الذي بُني فوق أسوار المدينة المهيبة.

أموي (301–302 هـ/913–914 م)

ايفورا. البرتغال





آجر تلبيس جدران

مدجني (القرن الـ 9 هـ/15 م)
معرض فن ومتحف كلفنغروف، متاحف غلاسكو
غلاسكو، المملكة المتحدة

حصلت في السنوات الأخيرة من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، والسنوات الأولى من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وثبة هامة لفن المدجّنين في البرتغال. وقد تعرّف مؤرخ الفن بيدرو دياس على أربعة مراكز أساسية، هي: كويمبرا، وبيرا آلتا/بيتا باكسا، ومنطقة سينترا، والآلينتيخو ومادير.

في حالة بييرا وأبعد شمالاً، يرتبط تأثير المدجنين بقربهم من ممالك قشتالة وليون. وبالتالي فإن هذه التأثيرات كانت غير مباشرة ومرت عبر مصفاة الفن المسيحي. أما إذا ما ذهبنا جنوبًا، فإن ذلك التأثير يدين بالكثير للعلاقة مع مملكة غرناطة، كما يدين جزئيًا للرحلة الطويلة التي قام بها الملك دون مانويل إلى إسبانيا في عام 903 هـ/1498 م.

وهكذا تزايد التقارب مع نماذج الفن الأندلسي الذي تشبعت به ذائقة البلاط البرتغالي في بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. فقد تم تلبيس جدران الكنائس والقصور بالقاشاني الأزرق الإشبيلي (أسوليخوس)، كما غُطيت صالات الاستقبال بسقوف آلفارج، وعاد القوس الحدوي (بشكل حدوة حصان) للظهور في المشهد العمراني.

كانت تلك إذن ظاهرة قصيرة، زخرفية أكثر منها معمارية، وسرعان ما تم استبدالها بنماذج عصر النهضة الإيطالي. لكن العناصر التي تركتها تبين رغم كل شيء أهمية الماضي الإسلامي الذي كان ما زال مستمرًا في تلك الفترة، والشغف الذي كان يوحي به.

الأعلام:

بيير الأول القاسي
(حكم ما بين عامي 750–770 هـ/1350–1369 م)
ملك قشتالة وليون. بسبب المجابهات التي حصلت بينه وبين بعض فرق الأرستقراطية، كانت فترة حكمه من أكثر الفترات اضطرابًا. لكنه كان من أهم من رعى فن المدجّنين. وندين له ببناء عدة قصور.

دون مانويل الأول
(حَكَم ما بين عامي 900–927 هـ/1495–1521 م)
ملك البرتغال. عندما بدأ الحكم فعليًا، قام بتحقيق تحديث الدولة، ومدَّ نفوذ البرتغال إلى ما وراء البحار. يُعتبر راعي الفنانين والأدباء. وقد أطلق اسمه في البرتغال على فن العصر الذي عاش فيه والمعروف باسم «الفن المانويلي».

الحقبة الأيوبية: بين الصراع والتعايش في سورية العصر الوسيط

عبد الرزاق معاذ، وإميلي شوفلتون



قلعة الحصن

كلابي - سلجوقي؛ أعيان طرابلس؛ اسبتاري ومملوكي؛ (القرن الـ 5–10 هـ/11–16 م)
منطقة حمص، سورية

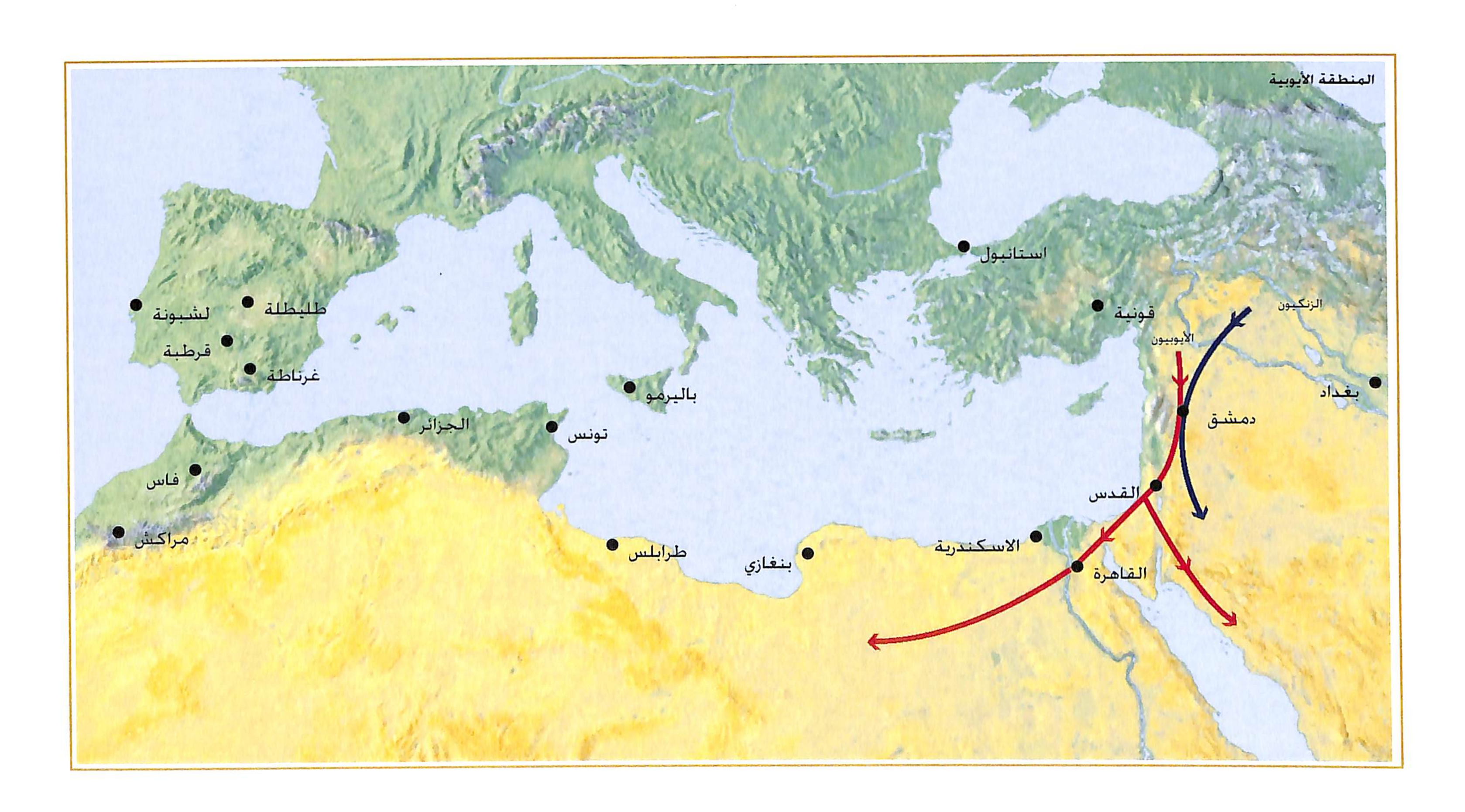
الحقبة الأيوبية: بين الصراع والتعايش في سورية العصر الوسيط

شهد العالم الإسلامي أزمات عديدة مع نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي: أزمات التمزق السياسي، وجود خلافتين متنافستين تتصارعان على حكم المسلمين مع عدد من الإمارات الساعية إلى الاستقلال.

وقد زاد هذا الوضع تعقيدًا حين قضى جميع القادة السياسيين المسلمين الرئيسيين الأربعة نحبهم في غضون أقل من سنتين، بدءًا بعام 484 هـ/1092 م: الوزير والسلطان السلجوقيان أولاً، ثم الخليفة الفاطمي، وأخيرًا الخليفة العباسي.

تلك كانت اللحظة الغارقة في الفوضى، التي اختارها البابا أوربان الثاني (488–669 هـ/ 1088–1099 م) لإطلاق حملة الفرنجة الأولى، بذرائع دينية، ولكن بدوافع سياسية، اقتصادية واجتماعية أيضًا. بين عامي 488 و669 هـ/1095 و1270 م، تمت أربع عشرة حملة للفرنجة: تسع منها على الأراضي المقدسة، اثنتان على بيزنطة، اثنتان على مصر، وواحدة على إفريقية (تونس).

تمكن بولدوين البولوني (نسبة إلى بولونيا الفرنسية) (حكم من عام 493–512 هـ/ 1100–1118 م) من اجتياح منطقة الرهاء، وتأسيس دولة الإفرنج الأولى في الرهاء عام 491 هـ/1098 م. أما مملكة القدس، وهي الدولة الثالثة والأكبر، فقد تأسست في



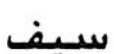


شاهدة قبر شاروا الحقاري
ابن إحدى العائلات الكردية الكبيرة الذي قاتل الصليبيين مع صلاح الدين

الأيوبي (587 هـ/1191 م)
المتحف الإسلامي، ومكتبة الأقصى
القدس



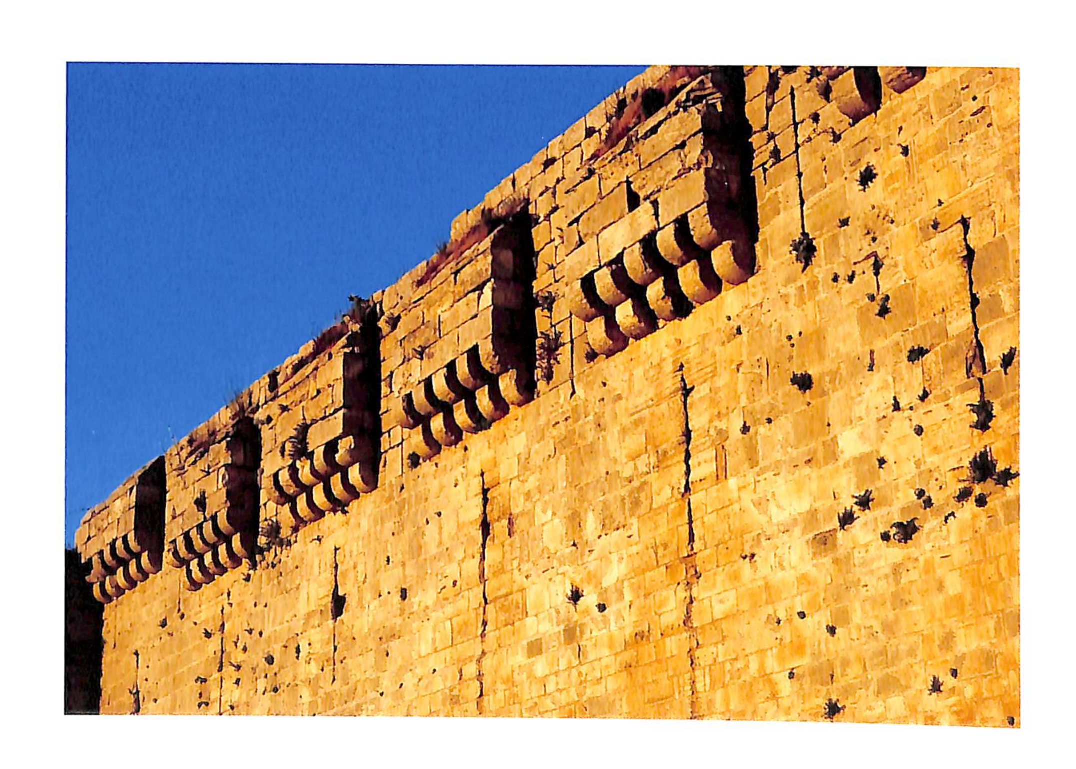
سيف



صليبي (القرن الـ 6 هـ/12 م)
مجموعة بورل، متاحف غلاسكو
غلاسكو، المملكة المتحدة

منتصف يمين
رسالة فرنجية
مرسلة إلى أخوية فرسان الهيكل

صليبي (575–579 هـ/1180–1188 م)
المتحف الإسلامي، ومكتبة الأقصى
القدس



قلعة الحصن
الجزء الجنوبي - الغربي من الحصن الخارجي (تفصيل)

كلابي - سلجوقي؛ أعيان طرابلس؛ فرسان الأخوية الاسبتارية ومملوكي
(القرن الـ 5–10هـ/11–16م)

عام 492 هـ/1099 م، بعد سلسلة من المعارك الطاحنة. كان غودفري دي بويون (حكم من عام 492–493 هـ/1099–1100 م) الذي أعطى نفسه لقب «بارون القبر المقدس وحاميه» أول ملوك هذه المملكة.

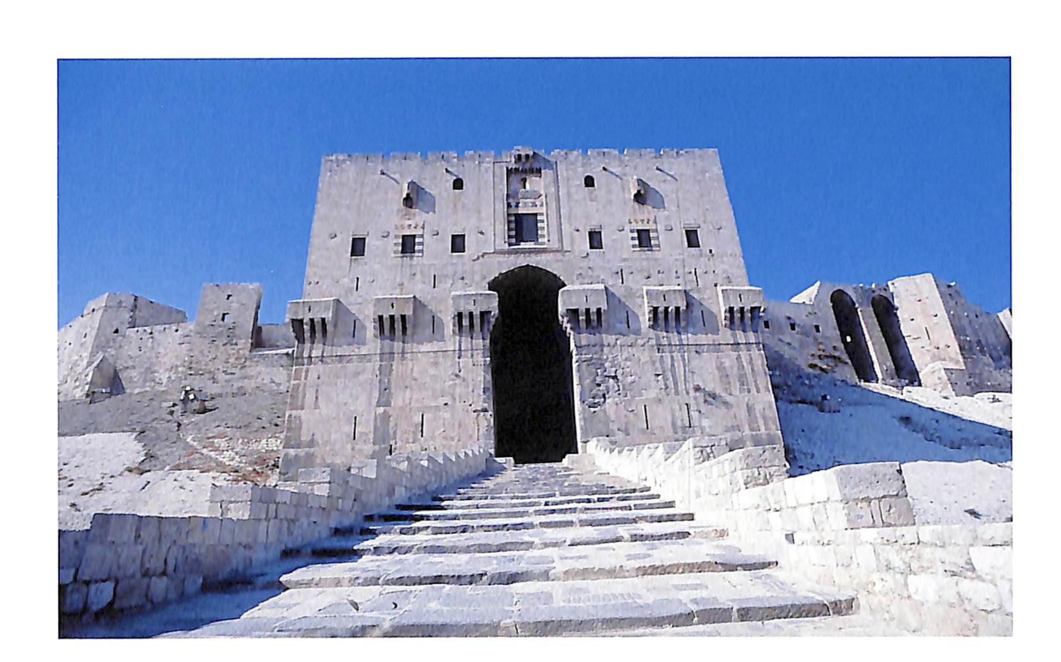
وعلى امتداد القرنين التاليين تم كسب وفقدان العديد من الدول، أو الإمارات، حتى الطرد النهائي للفرنجة في عام 690 هـ/1291 م، من قبل المماليك في عكا.

درج العرب على إعطاء الفرنجة الغزاة، الذين تمخض هجومهم المباغت عن تغييرات كبيرة في حياة المسلمين المدنية لقب «الفرنجة».

سائر الجماعات والفئات، في طول المنطقة وعرضها، تركزت على الجهاد، الحرب المقدسة. أعداد كبيرة من أهالي الأراضي المقدسة، من بيت المقدس لاذت بدمشق، ولاسيما في "حي الصالحية". وهكذا فإن روحًا مشبعة بالنزعة العسكرية النضالية طبعت القرن السادس الهجري/

قارورة حاج

مملوكي (آخر القرن الـ 7 هـ/13 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة

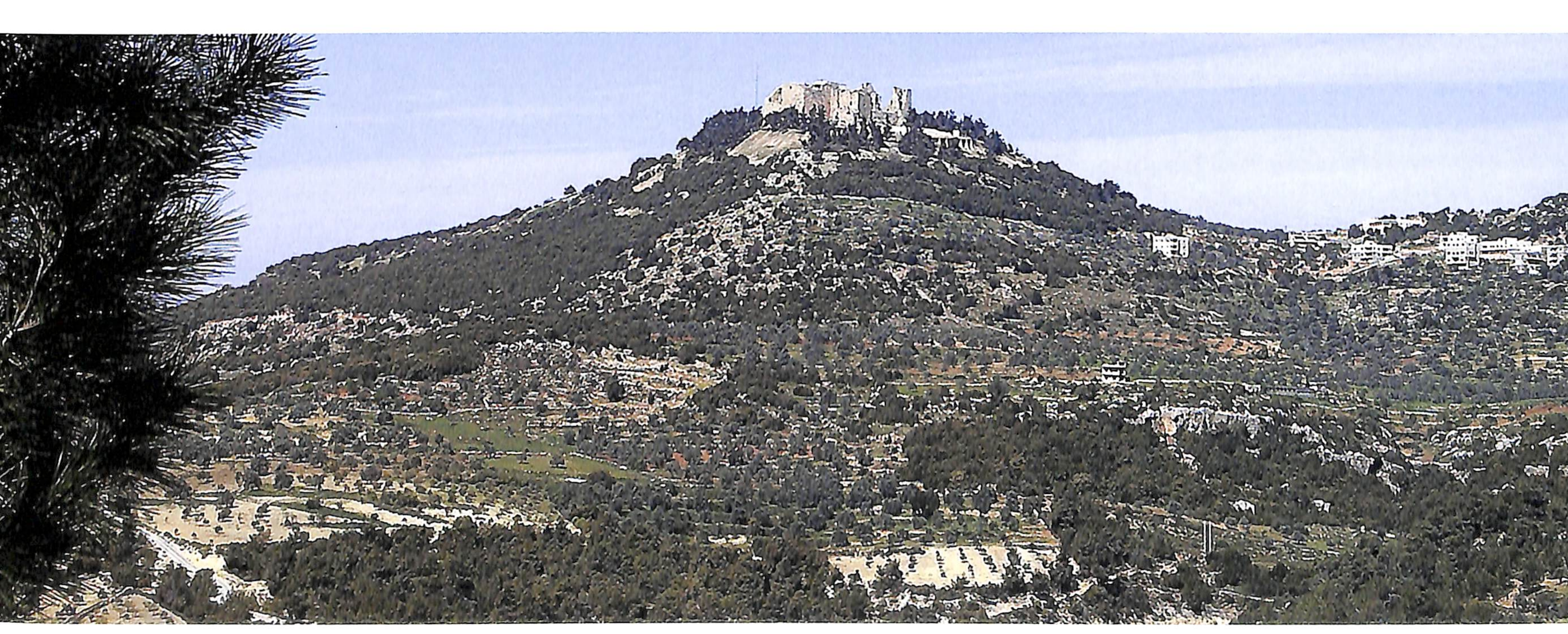


قلعة حلب

زنكي، وأيوبي، ومملوكي
(القرن الـ 6–7 هـ/12–13 م)
حلب، سورية

قلعة عجلون

أيوبي، مملوكي (579–658 هـ/
1184–1260 م)
عجلون، الأردن





تمثال مقاتل نافر

سلجوقي أناضولي (القرن الـ 6 هـ/12 م)
متحف الفنون التركية والإسلامية
استانبول، تركيا

الثاني عشر الميلادي، منعكسة على الحياة الاجتماعية، الأدب وفن العمارة، في تلك الفترة.

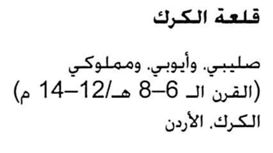
رغم المذابح والمعارك الحربية الدامية، بين الحين والآخر، تعلم الفرنجة والمسلمون فن التعايش عبر التجارة في المقام الأول. فالفرنجة جلبوا معهم تقنياتهم في البناء، وأساليبهم في العمارة، لإنشاء القلاع والحصون. وما إن استقروا في المنطقة حتى باتوا يتذوقون الفن «الغريب» (الإكزوتيك) لدى المسلمين. فعادوا إلى أوربا مصطحبين أعمالاً فاخرة، مصنوعة من الخزف، والمعادن، والكريستال، والزجاج، والنسيج.

الأتابكة والأيوبيون، غزاة آخرون، كانوا سيمارسون تأثيرًا كبيرًا على العالم العربي، في هذه الحقبة. تمثلوا بأبناء القبائل البدوية، الآتية من آسيا الوسطى: السلاجقة. فهؤلاء المقاتلون السُّنة نجحوا في الإمساك بزمام السيطرة على بغداد، وانتحلوا صفة حماة الخلافة العباسية المضعَّفة. حكموا مساحات واسعة عبر تعيين الأتابكة (الحكام المستخدمين لتعليم الأمراء فنون القيادة العسكرية) الذين تنامى نفوذهم، منقلبين في الغالب إلى حكام مستقلين.

نجح السلاجقة في إعادة توحيد أقاليم إيران، العراق، وسورية، تحت راية الإسلام السني، بل وتوغلوا في آسيا الصغرى في معركة ملاذكرد الحاسمة، عام 463 هـ/1071 م، آسرين الإمبراطور البيزنطي، مما أثار الذعر في أوربا اللاتينية.

على امتداد الحقبة الصليبية، بقيت مدينتا حلب ودمشق الاستراتيجيتان في سورية تحت السيطرة الأتابكية الإسلامية، متحولتين إلى قلعتين حصينتين للوحدة الإسلامية، والدعاية المعادية للفرنجة. تمثَّل أحد هؤلاء الأتابكة بعماد الدين زنكي (حكم من عام 521 إلى 541 هـ/ من 1127 إلى 1146 م)، الذي اتخذ في حلب مقرًا له، والذي نجح في طرد الفرنجة من الرهاء عام 539 هـ/1144 م. ثم ما لبث ابنه وخلفه نور الدين محمود بن زنكي (حكم من عام 541 إلى 569 هـ/1147–1174 م) أن استولى على دمشق في (549 هـ/1154 م) ووحد سورية. وفي عهده شهدت دمشق نهضة سياسية، اقتصادية ودينية، وغدت مركز جذب ثقافي بالنسبة إلى العالم الإسلامي.

كان صلاح الدين الشهير، صلاح الدين الأيوبي (حكم من عام 564 إلى 589 هـ/1169 إلى 1193 م)، من أصل كردي، وأحد ألمع معاوني نور الدين، وقادته. وقد تألق نجمه خلال حملاته الناجحة في مصر حيث ألحق الهزيمة بالفاطميين (567 هـ/1171 م). خلف نور الدين، وأسس الدولة الأيوبية. وبعد موته بادر أعضاء الأسرة، الأكثر ميلاً إلى إبرام معاهدات سلام مع إمارات الفرنجة المجاورة، بدلاً من شن الحروب، إلى تقاسم المملكة، ما أدى إلى استئناف التجارة وازدهارها بين أوربا والمشرق بين ثمانينيات القرن الثاني عشر، وخمسينيات القرن الثالث عشر الميلادي.



قلعة الكرك

صليبي، وأيوبي، ومملوكي
(القرن الـ 6–8 هـ/12–14 م)
الكرك، الأردن



رسم مشهد معركة

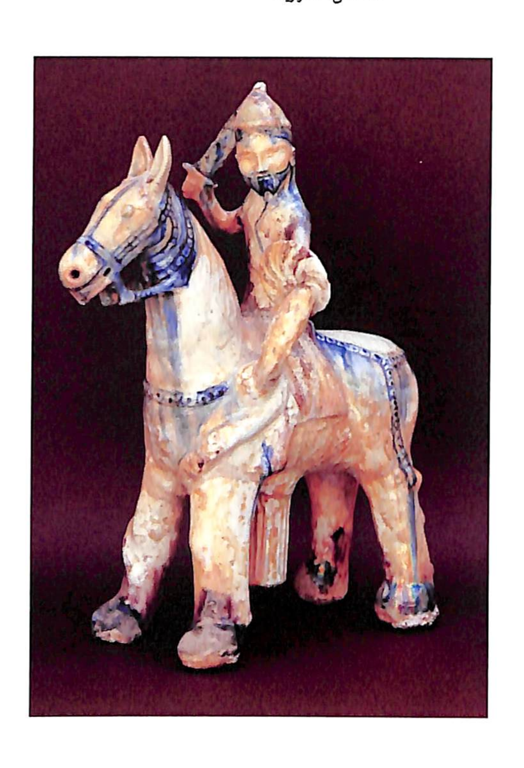
أيوبي (القرن الـ 7 هـ/13 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة

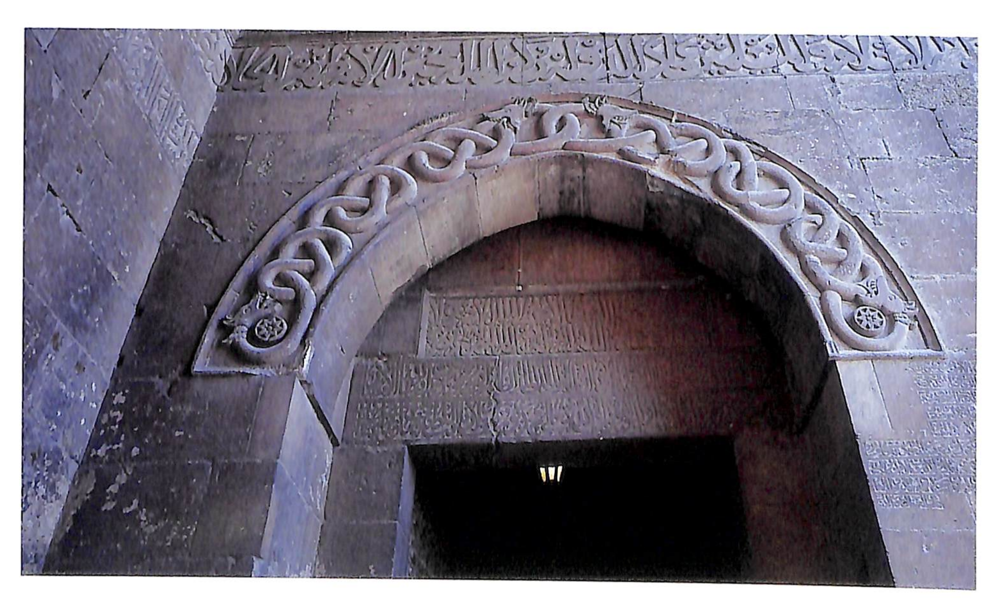
قلعة صلاح الدين

حمداني، وبيزنطي، وسلجوقي، وصليبي،
وأيوبي، ومملوكي (القرن الـ 4–7 هـ/
10–16 م)
محافظة اللاذقية، سورية

تماثل فارس
معروف بعنوان «فارس الرقة»

أيوبي (القرن الـ 6 هـ/12 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية





قلعة حلب، بوابة الأفعى
الأفاعي والتنانين تزين المداخل، ترمز إلى
قوة الحاكم وقدرته على حماية البلاد.

زنكي، وأيوبي، ومملوكي
(القرن الـ 6–7 هـ/12–13 م)
حلب، سورية



قلعة الشوبك

صليبي، وأيوبي، ومملوكي (القرن الـ 6–7 هـ/12–13 م)
الشوبك، الأردن

صلاح الدين والقلاع الصليبية

تولى صلاح الدين الأيوبي، أشهر أبطال المسلمين في حروب الفرنجة، ريادة إحدى ألمع مراحل التاريخ العربي. فبعد وفاة نور الدين محمود بن زنكي في عام 569 هـ/1174 م، قضى عشر سنوات في محاربة الأشقاء المسلمين، وتعزيز جيشه، قبل الالتفات والتنبه إلى الفرنجة.

تمخض توحيده لمصر وسورية (بل وحتى اليمن) عن تشكيل قوة عسكرية كبيرة. كان انتصاره الكبير في معركة حطين عام 583 هـ/1187 م، التي مهدت للاستيلاء على القدس. ولدى موته في عام 589 هـ/1193 م، ابتنى له أبناؤه ضريحًا بالقرب من جامع بني أمية الكبير بدمشق.

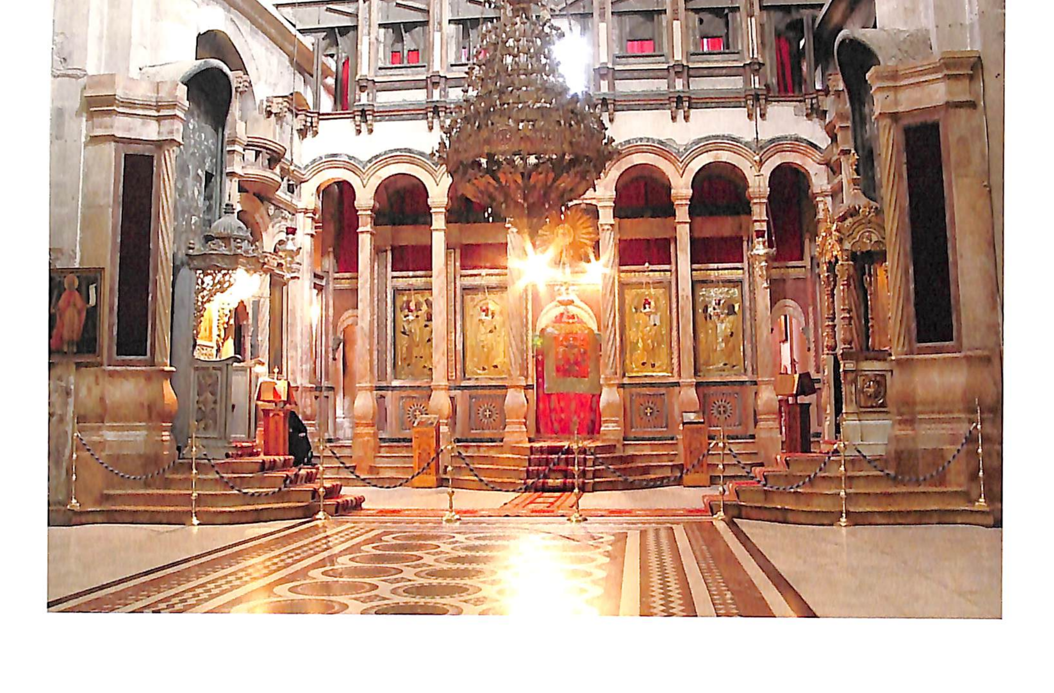
فرسان أتراك من آسيا الوسطى وإيران لعبوا دورًا حاسمًا في نجاح جيوش كل من نور الدين وصلاح الدين. فهؤلاء المقاتلون الأشداء درجوا على استخدام النبال، إذا كان العدو بعيدًا، والحراب أو السيوف إذا كان الاشتباك عن قرب.

كانت السرعة والخفة على ظهور الخيل توفران لهم قدرًا كبيرًا من التفوق على الفرنجة. كما أن تطوير أسلحة معينة كالمجانق، إضافة إلى تنظيم صلاح الدين العسكري القوي، قد شدَّ من أزر الجيش الأيوبي.

شكل المشرق، ولاسيما سورية، ساحة القتال الرئيسية للفرنجة. ونتيجةً لذلك باتت

قلعة شميميس
أتابكي وأيوبي، مع بعض الترميمات المملوكية، مُعادة التحصين، ومُوسَّعة إلى أبعادها الراهنة (في 628 هـ/1230 م)
منطقة السلمية، سورية





كنيسة القيامة (القبر المقدس)
تعود إلى الفترة البيزنطية، غير أن عددًا من التجديدات أدخلت في فترات لاحقة

البناء الأول (في 326–350 م): البناء الحالي (543 هـ/1149 م)
القدس

المنطقة مدروزة بعدد كبير من الحصون والقلاع الإسلامية والإفرنجية. وقد تكرر تناوب الفرنجة والمسلمين على هذه الأمكنة المحصنة. فحملات صلاح الدين المظفرة شهدت فتح نحو 50 موقعًا للفرنجة، بما فيها قلعة صهيون، التي حاصرها في عام 584 هـ/1188 م. وهي المعروفة الآن باسم قلعة صلاح الدين، ولعلها إحدى أبدع النماذج الباقية من قلاع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

دأب الأيوبيون والفرنجة على توسيع التحصينات واستعادتها، ثم جاء المماليك في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، لرعاية تحسينها وزخرفتها. قام الفرنجة بجلب تقنيات جديدة إلى المشرق، على صعيدي الفنون والعمارة، ثم عادوا مصطحبين تقنيات تعلموها من البنائين والفنانين الإسلاميين. وخير شاهد على تقاسم الحرفيين الفرنجة والمسلمين المساهمة في التحصينات، نجده في الأسلوبين المختلفين على صعيدي البناء والهندسة المعمارية.

الحج والسفر

ظلت طرق التجارة والحج فيما بين حوض البحر الأبيض المتوسط، آسيا الوسطى، والجزيرة العربية، خطرة حتى في أيام السلم. وكانت استثنائية الخطورة خلال الحقبة الصليبية. غير أن المسلمين والفرنجة واصلوا عبورهم المتكرر إلى مناطق بعضهم البعض، رغم مهالك السفر. فابن جبير (توفي عام 614 هـ/1217 م)، ذلك الحاج الفالنسي من أسبانيا المسلمة، الذي كان متجهًا من دمشق إلى عكا مع إحدى قوافل التجار في عام 580 هـ/1184 م، كتب: «ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج بلاد الإفرنج، وسبيهم يدخل بلاد المسلمين».

إذن، حتى في أزمان الحرب، بقي الطرفان، كلاهما، حريص على ضمان أمن طرق التجارة والسفر. شيدت سلسلة من القلاع والحصون في مواقع استراتيجية لحراسة الطرق، مثل قلعتي الكرك والشوبك. أعدادٌ من الحجاج، الجنود، الباحثين، الدارسين، التجار، والحرفيين، من سائر أرجاء حوض البحر المتوسط، ومناطق أبعد شرقًا، تم اجتذابهم إلى سورية وفلسطين، مما أحال المنطقة بؤرة لقاء مفعمة بالحيوية لجماعات عرقية متنوعة.



قارورة حاج

أيوبي، ومملوكي مبكر (القرم الـ 7 هـ/13 م)
متحف الآثار القديمة المتوسطية والشرق أوسطية
ستوكهولم، السويد

بالنسبة إلى الحجاج المسيحيين، كانت الأراضي المقدسة هي الهدف النهائي مع بقاء القدس، بيت لحم والخليل المحطات الأهم. سنويًا كان الحجاج المسلمون يسافرون إلى مكة لأداء فريضة الحج. كان ثمة طريقان لقوافل الحج: المصرية التي شملت المسلمين من البلدان الإفريقية، والسورية التي كانت توصل القادمين من الأقاليم الشرقية.

كثيرًا ما كان الحجاج المسلمون يسافرون عبر القدس، حيث يزورون قبة الصخرة والمسجد الأقصى في الحرم الشريف، ثالث الأمكنة الأقدس بعد مكة والمدينة. وكثيرًا ما كان التجار يسافرون مع قوافل الحجاج. كانوا يبيتون الليالي في النُزُل والخانات (محطات القوافل) المبنية على امتداد الطرق، خارج وداخل المدن الرئيسية، التي كانت توفر المأوى، الطعام والماء. فما إن يصل التجار إلى هذه المدينة، أو تلك، حتى كانوا يهتدون إلى الأسواق لبيع بضائعهم المثيرة واللافتة للأنظار: أصناف الحرير، العطور، المجوهرات، الحلي الذهبية، التوابل، ومختلف الأواني الزجاجية، المعدنية، والخزفية.

خان العروس

بُني بأمر من صلاح الدين الأيوبي لتوفير المأوى للمسافرين

أيوبي (577 هـ/1181–1182 م)

على طريق حمص – دمشق، سورية





الحرم الشريف

حيث قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

بدأ البناء فيه منذ عام 15 هـ/637 م، واستمر حتى عام 1336 هـ/1917 م.

القدس

مدرسة الفردوس
أحد أكبر المجمعات الدينية المقامة خلال الفترة الأيوبية من قبل امرأة قوية تدعى «ضيفة خاتون»

أيوبي. بدأ قبل (633 هـ/1235–1236 م). وأنجز في (642 هـ/1240 م)
حلب. سورية



أداة تنجيم

أيوبي (639 هـ/1241–1242 م)
المتحف البريطاني
لندن. المملكة المتحدة

المدارس (التكايا - الكتاتيب) ونشر المعرفة

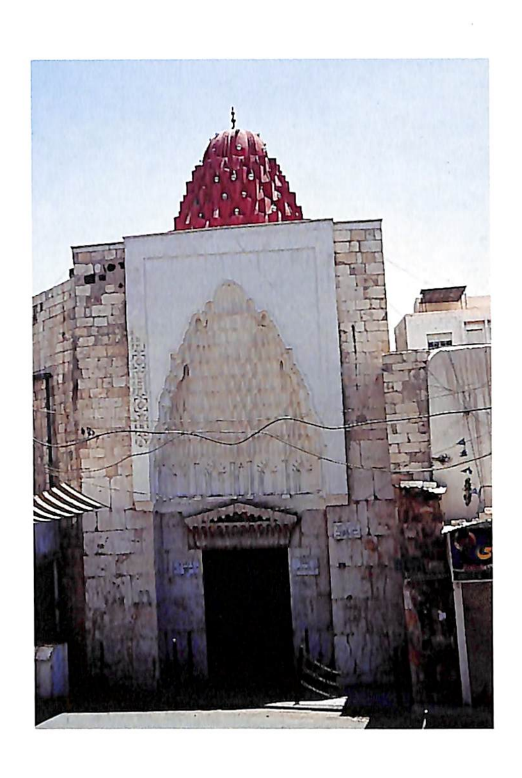
شيدت أقدم المدارس (كليات التعليم الديني وفق المذهب السني) بأيدي السلاجقة في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. وكان ثمة ازدهار ملحوظ لإنشائها في ظل الأتابكة الزنكيين والأيوبيين. وقد كان هذا جزءًا من حركة إنعاش سنية بعد غروب شمس الفاطميين الشيعة. فعبر كل من سورية، وفلسطين، ومصر، حظيت مئات المؤسسات الدينية بما فيها المدارس برعاية كل من نور الدين، وصلاح الدين، ومن خلفهما.

أعلن نور الدين صراحةً غايته من رعاية المدارس، معبّرا عن قناعته بأنها لنشر المعرفة، والقضاء على أشكال الكفر والهرطقة، وإحياء الدين. العديد من المسلمين الساعين إلى



مخطوطة في الجغرافيا

مملوكي (741 هـ/1340 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية



بيمارستان نور الدين

أتابكي (549 هـ/1154 م)
دمشق، سورية

التنور الديني والإطلاع العلمي انجذبوا إلى سورية. دارسون من العراق، وإيران، وآسيا الوسطى، والأندلس، والمغرب، ومصر، تدفقوا على المدارس السورية؛ جاؤوا طلابَ علمٍ من جهة، ومعلمين من جهة ثانية.

كثيرون كانوا فارين من الغزوات المغولية في الشرق، ومن الفرنجة في المشرق (شرق المتوسط)، ومن محاكم التفتيش (عودة الملكية الإسبانية) في الغرب. في ظل رعاية نور الدين الدقيقة، جرى تحويل دمشق إلى أحد أهم المراكز الثقافية والسياسية في العالم الإسلامي. كانت العادة أن تدار المدارس بمساعدة الأوقاف التي كانت تيسر المنح، المرتبات، أمكنة الإقامة للعلماء (رجال الدين) أو الدارسين. ثمة أعضاء من النخب التركية والكردية، من الجنسين كليهما، تلقوا العلوم في هذه المؤسسات من جهة، وقاموا برعايتها من جهةٍ ثانية.

كانت العلوم تُدرَّس جنبًا إلى جنب مع البحوث الدينية. جرى تصميم الاصطرلابات والكواكب الشمسية المجسمة لضبط رصد المجرات، فيما صُمِّمَتْ الأدوات الهندسية التماسًا للتنبؤ بالمستقبل. إضافةً إلى المدارس كانت المشافي (البيمارستانات) مراكز مهمة للتعليم الطبي والصيدلاني. خلال هذه الفترة أنجز أبو العز إسماعيل الجزيري، من بلاط الأرتقيين، المخطوطة المصورة الشهيرة عن الهندسة الميكانيكية والمائية. كذلك تم إنتاج التقاويم الشبيهة بتقويم أبي الفداء الأيوبي في حماه.

الأتابكة والأيوبيون رعاةً للفنون

كان الحكام الأتابكة والأيوبيون مولعين بالبناء. ابتنوا أعدادًا من المساجد، الأضرحة، الحمامات، الأسواق، المدارس، التكايا، والخانات. يتحدث مؤرخون معاصرون عن إنشاء 242 مسجدًا، جنبًا إلى جنب مع 100 مدرسة جديدة، شيدت في دمشق وحدها.

أنماط معمارية جديدة استُحدثت، وعُدِّلت، لتتناسب مع البيئة السورية الجديدة مثل المدرسة والبيمارستان المستلهمين من النماذج السلجوقية الإيرانية. ثمة ابتكارات فنية تحققت أيضًا على أصعدة طرق المعادن بالموصل، صناعة الخزف في الرقة، وحفر الخشب في دمشق وحلب.

الصفحة المقابلة
اصطرلاب

أيوبي (683 هـ/1240–1241 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة



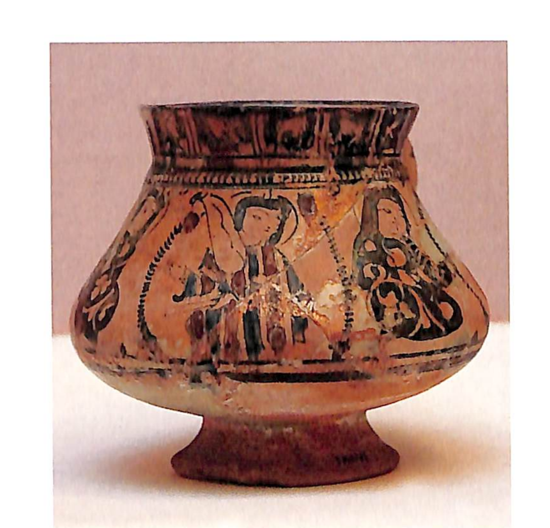
قام نور الدين وصلاح الدين بترميم المسجد الأموي بدمشق، بعد تعرضه لسلسلة من الحرائق الكارثية. كذلك شهدت قلاع وأسوار مدن دمشق، حلب، القاهرة، وغيرها، عمليات إعادة تحصين شاملة. ثمة قصور شيدت داخل القلاع حماية لها من تهديد الفرنجة المطّرد؛ لعل أفضل النماذج الباقية هو ذلك الموجود داخل قلعة حلب.

كانت القصور زاخرة بالسجاجيد الفاخرة، بالتحف المعدنية، وبالأواني الزجاجية. أعداد كبيرة من هذه الأشياء، ربما كانت هدايا من حكام آخرين، أو أعيان. فتبادل الهدايا كان يساهم في تعزيز العلاقات بين المناطق المتجاورة والحكام المتنافسين. والأرتقيون (وهم عائلة تركمانية من الأناضول أسست أمارتها في ديار بكر أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) اجترحوا سلسلة من العلاقات مع حكام الأقاليم المجاورة، عبر إغراقهم بالهدايا.

جرى أيضًا توظيف الهدايا الفاخرة لتيسير العلاقات الدبلوماسية في بلاط بدر الدين لولو

إبريق

أتابكي (أواخر القرن 6 هـ/12 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية





أعلى يسار
قلعة دمشق

أيوبي (599–610 هـ/1202–1214 م)
دمشق، سورية



قلعة ديار بكر

بُنيت في عهد الإمبراطور الروماني قسطنطين في 349 م؛ الإضافات والترميمات تمت في الفترتين البيزنطية والإسلامية
ديار بكر، تركيا



زبدية مطلية بالبريق المعدني من الرقة

أيوبي (أواخر القرن الـ 6– أوائل القرن الـ 7 هـ/ أوائل الـ 12– أواخر الـ 13 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية
برلين، ألمانيا

قطع قارورة

أتابكي، زنكي (521–541 هـ/ 1127–1146 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة





زبدية عليها فارس

سلجوقي (القرن الـ 6–7 هـ/12–13 م)
المتحف الوطني للفن الشرقي
روما، إيطاليا

علبة نحاسية

أتابكي، أيوبي (631–657 هـ/ 1233–1259 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة



(حكم من عام 615 إلى 657 هـ/من 1218 إلى 1259 م)، الذي كان أرمنيًا مهتديًا إلى الإسلام، ووزيرًا زنكيًا، قبل أن يصبح حاكمًا مستقلاً للموصل، في شمال العراق، بين عامي 615 و657 هـ/1218 و1259 م.

كان بدرالدين لولو شديد الاهتمام بالأدوات المعدنية المغشاة بالذهب والفضة. وعدد الأواني النحاسية المطعَّمة التي تحمل اسمه، شاهد على اضطلاعها بمهام السفراء.

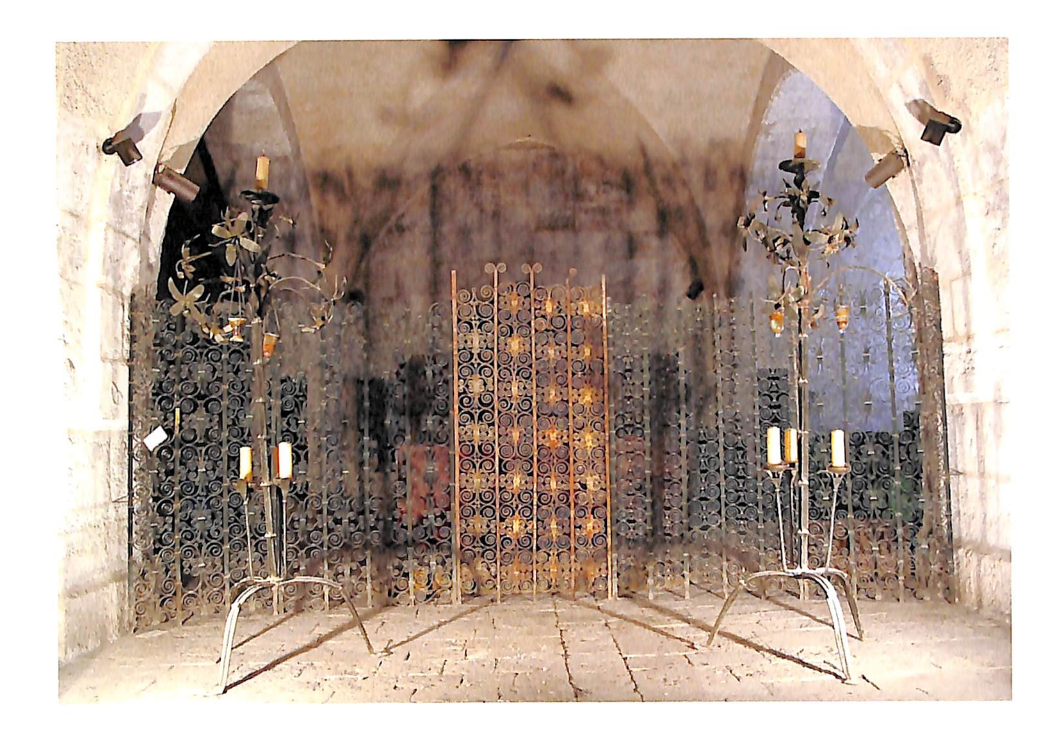
المسيحيون رعاةً للفنون خلال الحقبة الصليبية

في الوقت الذي شهد عملية إعادة تنشيط محمومة للعديد من المؤسسات الإسلامية، كانت سلسلة من الكنائس والأديرة المسيحية تعيش حركة نهضوية خاصة بها. مسلسلات جديدة من اللوحات الجدارية جرى الإيعاز بإنجازها، وهي لوحات لم تشهد سورية مثلها منذ اللوحات الفسيفسائية العائدة إلى الحقبة الأموية. فكنيسة ودير القديس يعقوب في القدس، ودير موسى الحبشي (القديس موسى الأثيوبي)، في سورية، أنموذجان ممتازان يجسدان الفن المسيحي القروسطي المنبثق في الشرق.



قطعة لوحة جصية

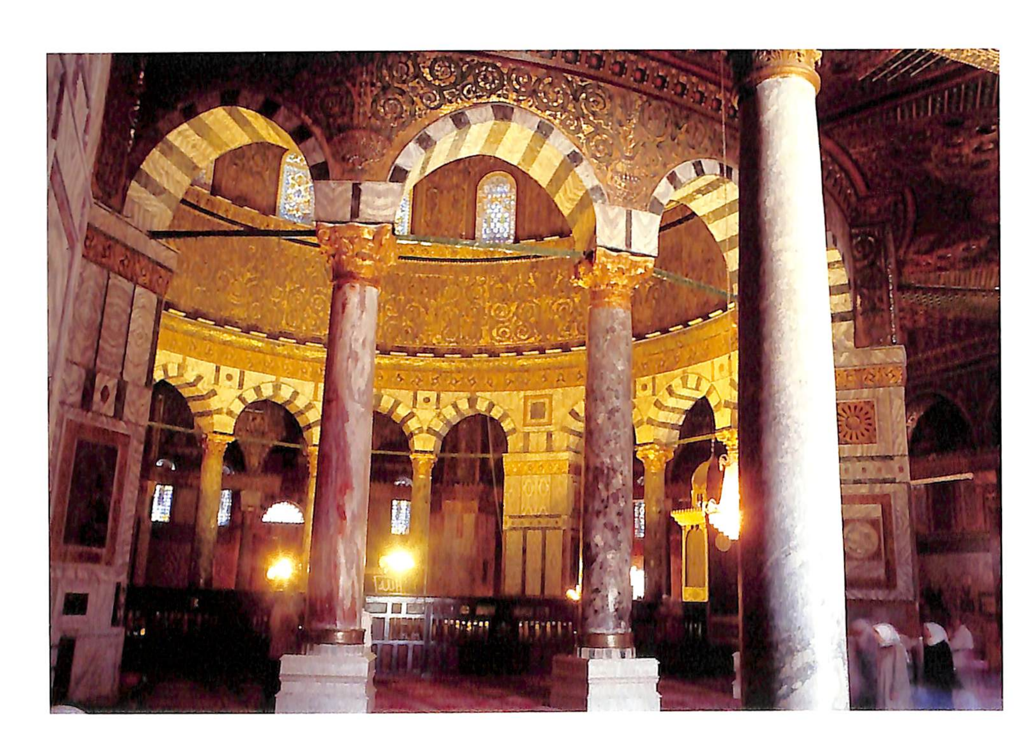
أيوبي (القرن الـ 6–7 هـ/12–13 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية



شبك أو سياج معدني

صليبي (القرن الـ 6 هـ/12 م)
المتحف الإسلامي، مسجد الأقصى
القدس





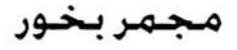
قبة الصخرة

أموي (72 هـ/691 م)
القدس



الحرم الإبراهيمي (مسجد إبراهيم)

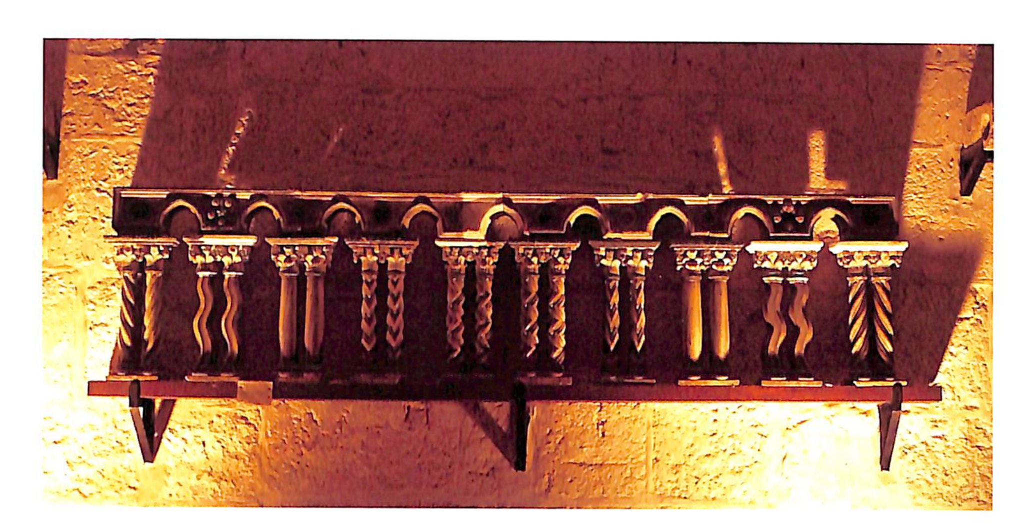
أحد أهم المواقع الدينية الإسلامية. يعود تأسيسه إلى الحقبة الرومانية. واستمر البناء في إلى نهاية الفترة العثمانية
الخليل، السلطة الفلسطينية



مجمر بخور

أيوبي (596–647 هـ/1200–1250 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة





درابزين رخامي

صليبي (القرن الـ 6 هـ/12 م)
المتحف الإسلامي، ومكتبة الأقصى
القدس

كثرة من الكنائس والمؤسسات المسيحية التي شيدت في هذه الفترة جرى تحويلها من منشآت إسلامية، كما أن مبانٍ صليبية قُلبت، بالمثل، لخدمة أغراض إسلامية. من الصعب غالباً، إذن، تحديد الأصل الدقيق لكل عنصر أسلوبي. ففي القدس تمَّ قلب قبة الصخرة والمسجد الأقصى، كليهما، إلى كنيستين، مع إيواء الثاني لفرسان فرنجة أيضًا.

كان الكاتب، الدبلوماسي والسياسي أسامة بن منقذ (487–584 هـ/1095–1188 م)، الذي عاش في قلعة شيزر، مطلعاً على أحوال كل من نور الدين وصلاح الدين، كما على أحوال خصومهما الفرنجة. يتحدَّث عن الذهاب للصلاة في الأقصى المشغول في جانب منه من قبل فرسان الهيكل. وهكذا فإن أفرادًا من النخبة العسكرية، العربية والإفرنجية على حدٍّ سواء، كانوا يتقاسمون شرعة فروسية مشتركة. ربما كانوا على علاقات ودية أيام السلم، كجزء من الحوار الدبلوماسي والتفاعل اليومي.

إن التبادل الثقافي بين الفرنجة، وبعض الجماعات من المسلمين، كان يتم رغم الحرب المستمرة بينهما. تمثلت مساهمة الفرنجة الرئيسية في هذه المنطقة بمجال هندسة

العمارة. قام الفرنجة بإطلاق أعداد من الورشات الحرفية. كما جرى استيراد أعمال يدوية أوربية إلى المشرق. غير أن الفرنجة سرعان ما بدأوا يتذوقون الأعمال الحرفية المحلية.

أشياء ثمينة من الخزف المزين بنقوش تحت التزجيج، الزجاج المغشى بالميناء والتحف المعدنية المطعمة. كان التجار والحجاج يأخذونها معهم وهم عائدون إلى أوربا. ثمة مجموعة استثنائية الإثارة من التحف المعدنية المطعمة باقية من هذه الفترة تمثل رسومًا مسيحية. ومع أنها من إنتاج حرفيين محليين، فإن من المفترض أنها صُنعت للفرنجة تحديدًا.

سلاطين المماليك ونهاية الحملات الصليبية

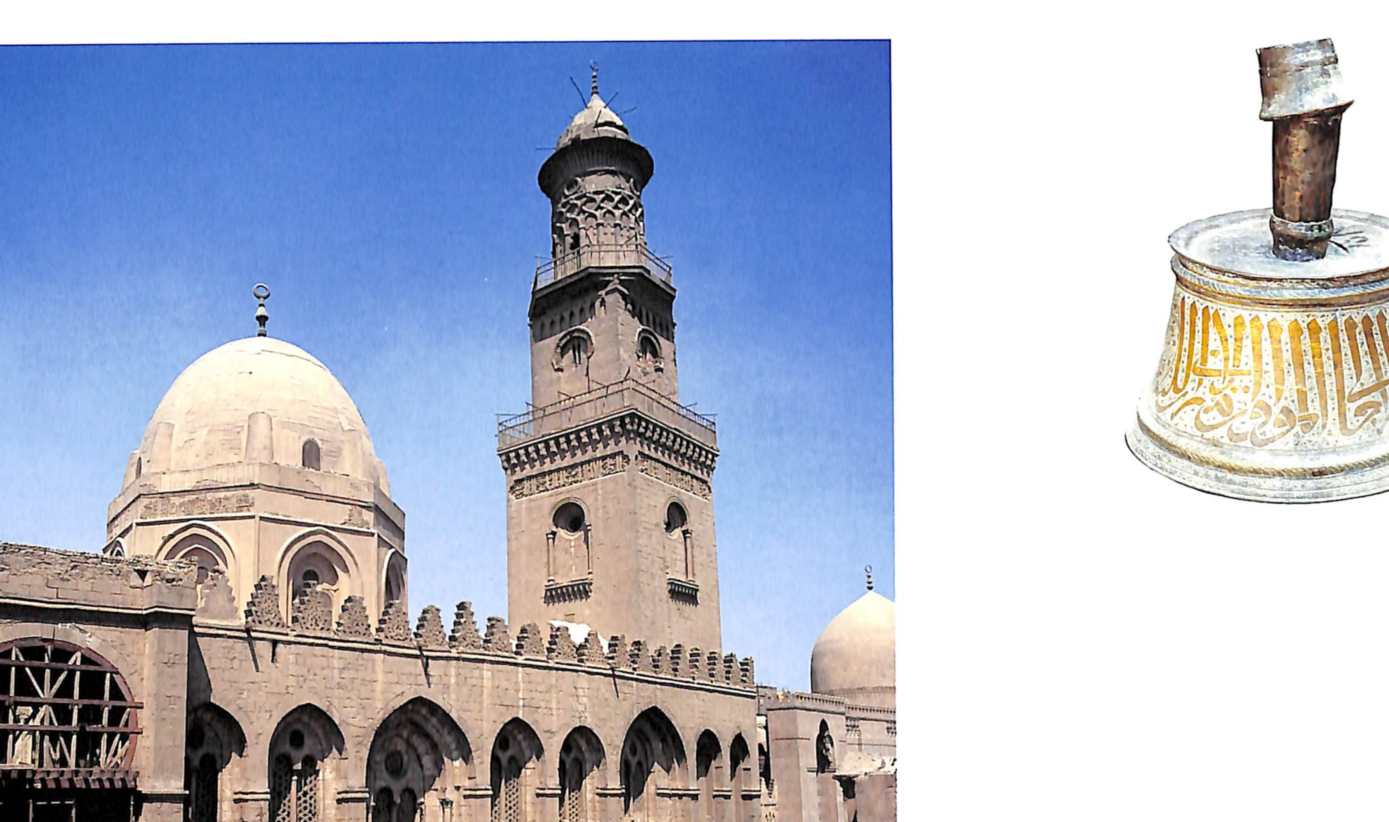
مع حلول عام 647 هـ/1250 م، كانت دويلات الفرنجة والإمارات الإسلامية غارقة في دوامة الصراع على السلطة. وعلى الرغم من أن الدولة الأيوبية كانت قد قطعت شوطًا كبيرًا على صعيد طرد الفرنجة من المشرق، فإن هذا النجاح لم يكن قد اكتمل تمامًا بعد. أدى ظهور المماليك على الساحة إلى إعادة تفعيل الحركة المناوئة للفرنجة. وبعد 50 سنة أخرى من

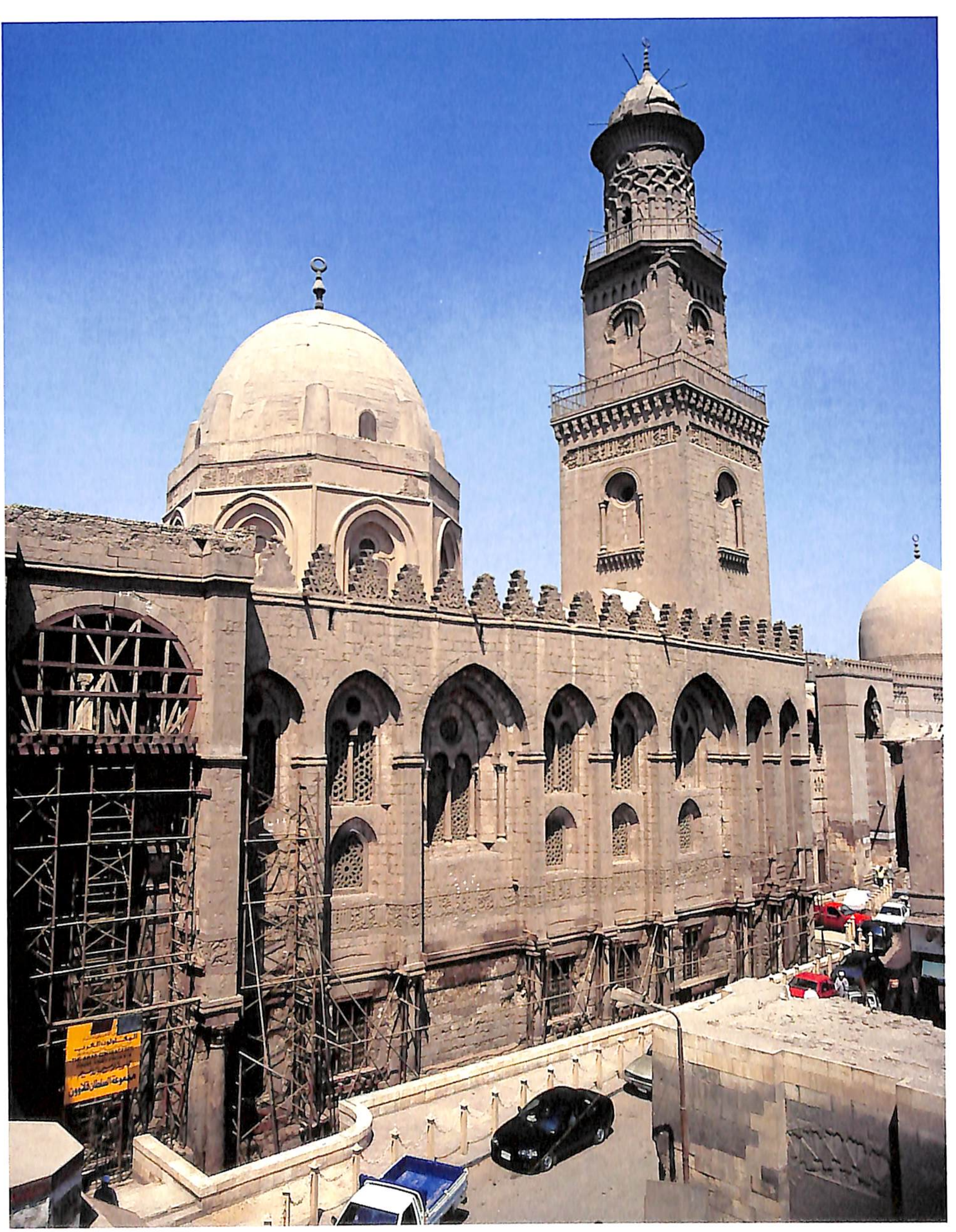
شمعدان قلاوون

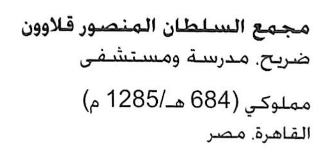
مملوكي (693–741 هـ/1294–1340 م)

المتحف الإسلامي، ومكتبة الأقصى

القدس





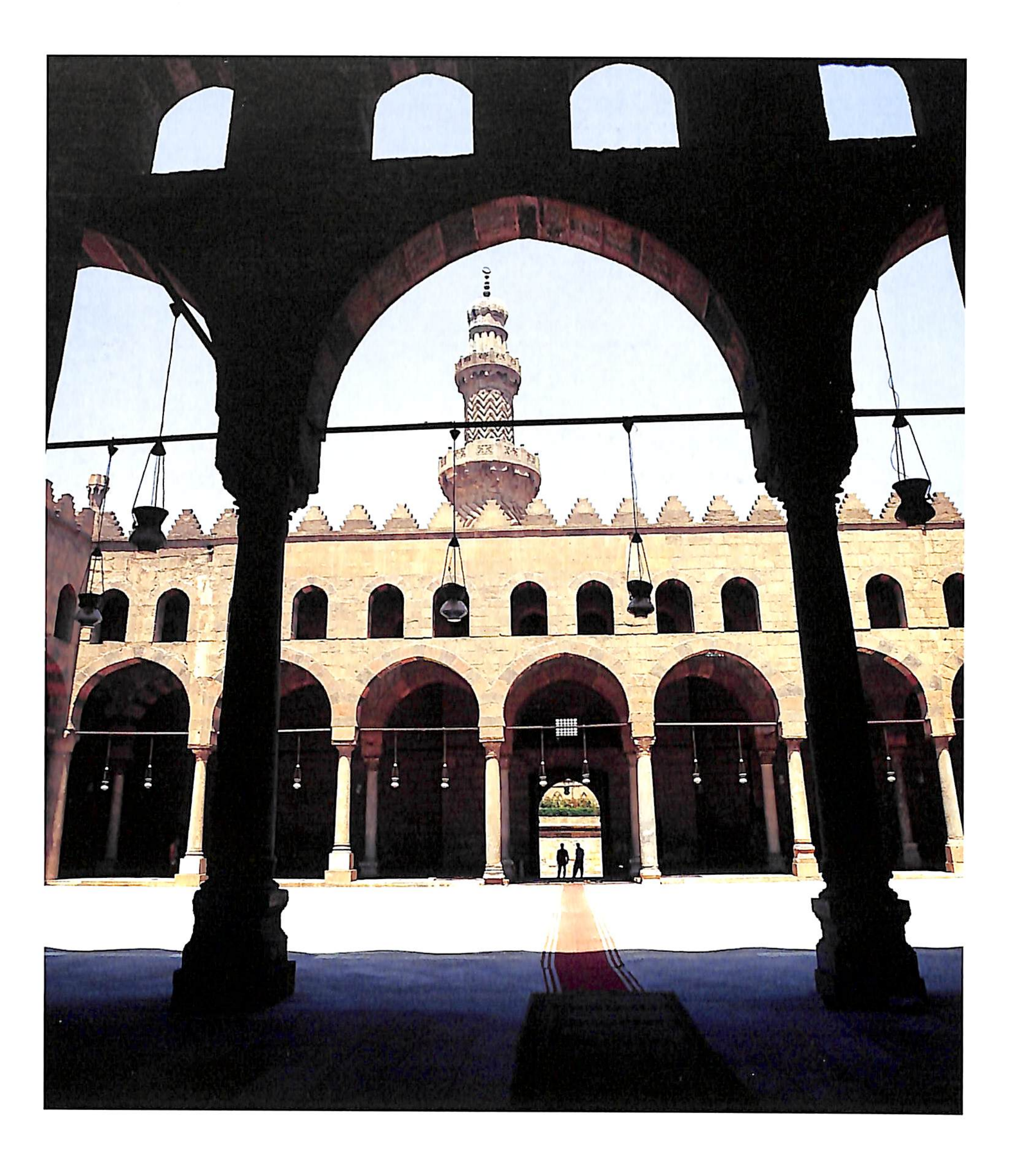


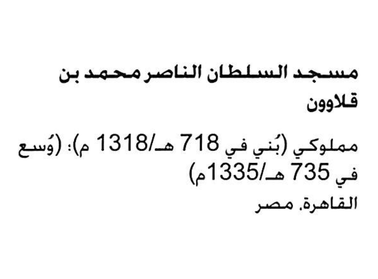
مجمع السلطان المنصور قلاوون

ضريح، مدرسة ومستشفى

مملوكي (684 هـ/1285 م)

القاهرة، مصر





مسجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون

مملوكي (بُني في 718 هـ/1318 م): (وُسع في 735 هـ/1335م)
القاهرة، مصر

الكفاح تمكن المماليك من إنجاز الهدف النهائي، المتمثل بطرد الفرنجة من الأراضي المقدسة، والساحل السوري، مرة وإلى أجل غير مسمى.

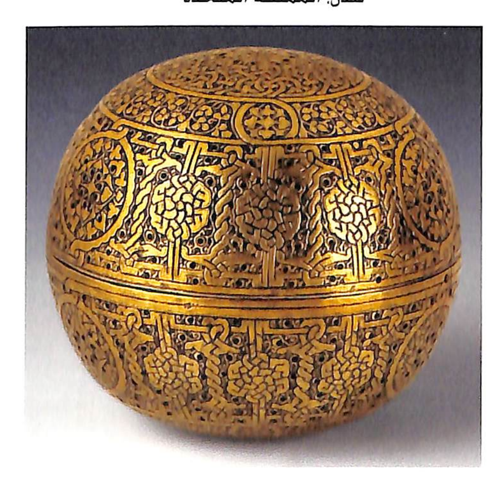
أما السلطان المملوكي الذي قاد العدد الأكبر من الحملات الظافرة ضد الفرنجة فقد كان الظاهر بيبرس البندقداري (حكم من عام 658 إلى 676 هـ/من 1260 إلى 1277 م). ومثل صلاح الدين الأيوبي، فإنه يُذكر بوصفه بطلاً إسلاميًا عظيمًا. وقد دُفن أيضًا في ضريح قريب من مسجد بني أمية الكبير في دمشق. كذلك كسب خَلَفُه المنصور قلاوون (حكم من عام 678 إلى 689 هـ/من 1279 إلى 1290 م) عددًا من المعارك. أخيرًا تولى الأشرف خليل برسباي (الذي حكم من عام 678 إلى 693 هـ/من 1290 إلى 1293 م) قيادة الحملة المظفرة في عكا عام 690 هـ/1291 م، التي وضعت حدًا للدويلات الصليبية.

رمزيًا، قام الأشرف برسباي بنقل بوابة كاتدرائية عكا الحجرية لاستخدامها بوابة لمدرسته في القاهرة. تولى الظاهر بيبرس رعاية إنجاز أشياء فاخرة، ومنشآت معمارية، ليس فقط في عاصمته القاهرة، بل وفي كل من سورية والأراضي المقدسة.

ومع بقاء هندسة العمارة العسكرية شغله الشاغل، فإن الظاهر بيبرس أمر أيضًا ببناء مسجد جامع كبير في القاهرة، يُعدُّ أقدم المساجد المملوكية الباقية في المدينة. وقد كان قلاوون راعيًا، وأكثر ولعًا، للمشروعات العمرانية في طول المنطقة وعرضها. لعل منشأته الأكثر إثارةً هو المجمع المهيب في القاهرة الذي يضم مدرسة، وضريحًا، ومستشفى.

مجمر بخور

مملوكي (675–677 هـ/1277–1279 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة







برج الظاهر بيبرس
أسد منحوت (تفصيل)

مملوكي (658–676 هـ/1260–1277 م)
القاهرة، مصر

وهذا المجمع استلهمه قلاوون من بيمارستان نور الدين في دمشق، حيث استشفى من مرض هدد حياته. واتباعًا لتقاليد توفير الرعاية الخيرية المجانية للمرضى، والمشردين، جرى وقف هذا المستشفى للمسلمين من الجنسين، بصرف النظر عن وضعهم الاجتماعي.

إن التبادل العابر للثقافات الذي تم على نحوٍ متقطع خلال الحقبتين الأتابكية والأيوبية تواصَلَ مع المماليك، حتى بعد إلحاق الهزيمة بالفرنجة. وهذا يمكن أن نلمسه في المباني التي أقيمت برعاية ابن قلاوون الناصر محمد (حكم ثلاث فترات، هي: من عام 693 إلى 694 هـ/1293 إلى 1294 م؛ من 698 إلى 708 هـ/1299 إلى 1309 م؛ من 709 إلى 741 هـ/1310 إلى 1341 م) فواجهة مدرسة السلطان الناصر بالقاهرة، تشي بملامح قوطية ورومانية مستلهمة من فن العمارة اللاتيني.

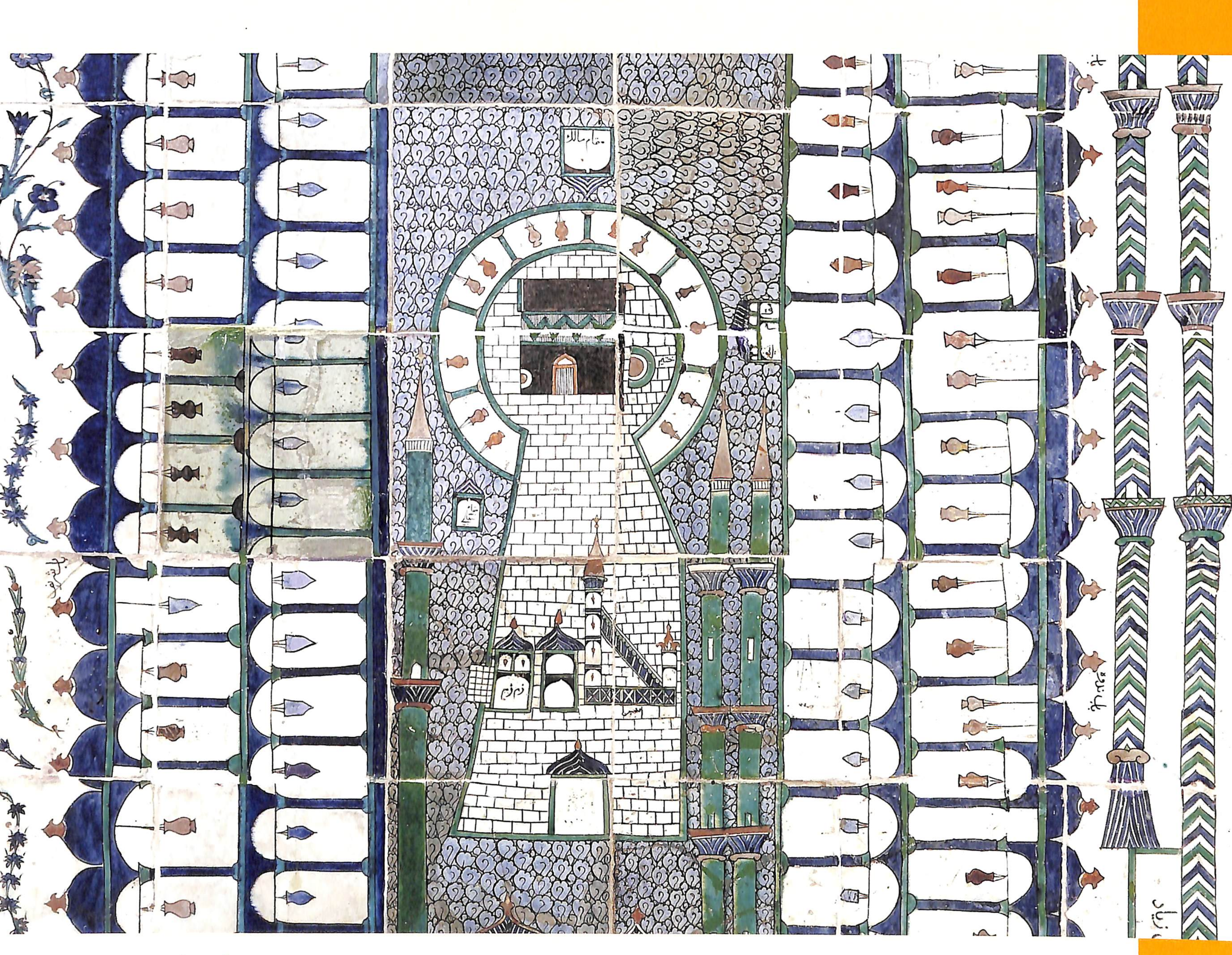


مجمر بخور

أيوبي (أوائل - أواسط القرن الـ 7 هـ/13 م)
المتحف الملكي، متاحف سكوتلندا الوطنية
أدنبره، المملكة المتحدة

الحج في الإسلام

نظمي الجعبة



لوح آجر خزفي
يصور الكعبة في مكة

عثماني (1087 هـ/1676 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر

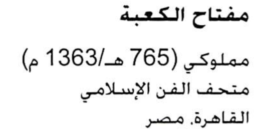
الحج في الإسلام

الحج ركن من أركان الإسلام الخمسة، وهو أحد أقصر الطرق للتقرُّب إلى الله تعالى. ليس من المعروف تمامًا متى بدأ الحج إلى مكة، لكنه بالتأكيد بدأ في مرحلة ما قبل الإسلام حيث أنه يُنسب إلى فترة الجاهلية، وهي الفترة التي سبقت الإسلام.

اكتسبت مكة، وهي إحدى مدن الحجاز الصغيرة في فترة ما قبل الإسلام، أهميتها عبر تحكمها بالطرق التجارية الرئيسية، التي كانت تصل الأسواق المختلفة لإفريقيا والهند والشرق الأوسط وغرب حوض المتوسط. فقد كان تجار مكة يعمدون إلى السفر في رحلتين، كل سنة: الأولى تتجه شمالاً في فصل الصيف، والثانية تتجه جنوبًا في فصل الشتاء. وفي المقابل، عمد التجار من كافة أنحاء الجزيرة العربية وخارجها إلى التجمُّع في مكة، وخصوصًا خلال موسم الحج السنوي، لأداء طقوس الولاء لمجموعة من الآلهة المحلية (الأوثان) التي كانت موجودة بالكعبة.

قام النبي إبراهيم، وفقًا للرواية الإسلامية، ببناء الكعبة في الموقع نفسه الذي شيد عليه النبي آدم «أول بيت وضع للناس» لعبادة ربهم. حيث قام النبي إبراهيم بنفي زوجته هاجر وابنها إسماعيل إلى «واد غير ذي زرع» في مكة. فقامت هاجر بالسعي بين الصفا والمروة بحثًا عن الماء لابنها الرضيع، حيث تفجَّر ماء زمزم المقدس بين قدمي وليدها إسماعيل. وكشكر لله تعالى، قام النبي إبراهيم ببناء الكعبة كبيت لله، وقام بتقديم الأضاحي به. وقد أمر الله تعالى، فيما بعد، النبي إبراهيم بالطواف حول الكعبة سبع مرات، كنوع من العبادة والولاء.

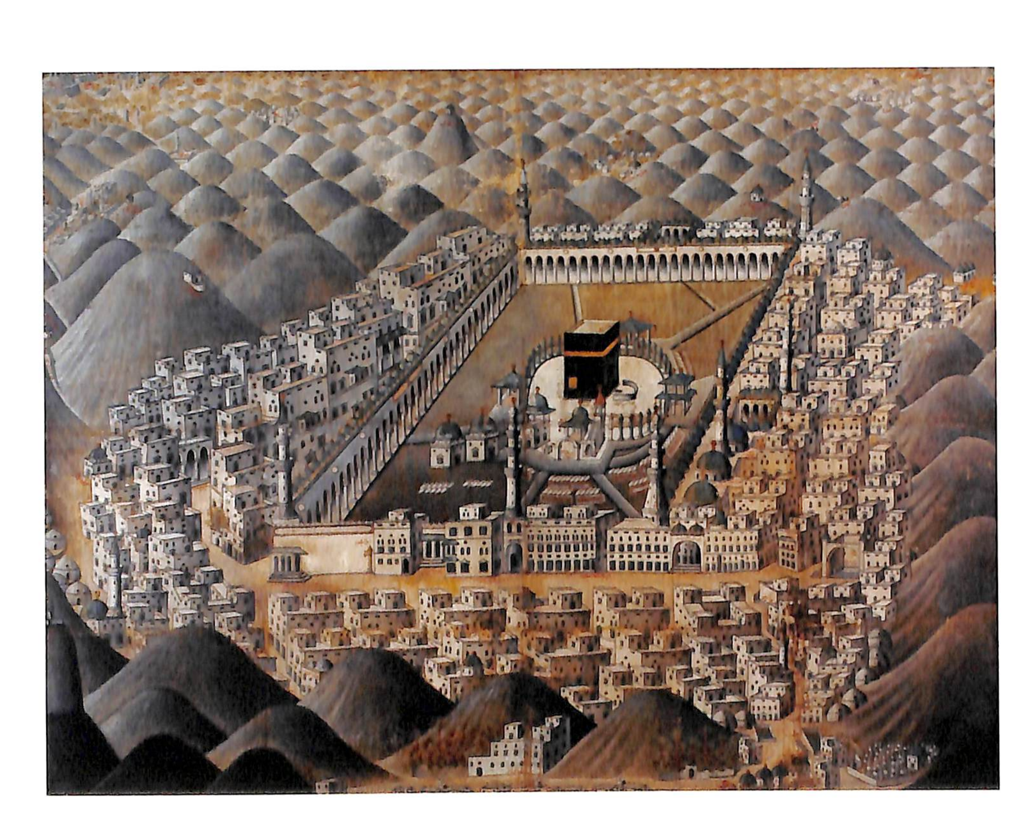
أصبحت الكعبة خلال فترة الجاهلية مركزًا لعبادة الأوثان، في الوقت الذي سيطرت فيه قبيلة قريش القوية على الكعبة والكثير من أنشطة مكة التجارية. وقد شهدت مكة مولد النبي محمد



مفتاح الكعبة

مملوكي (765 هـ/1363 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر





مشهد طوبوغرافي لمكة
يبين توجهات الحجاج أثناء الحج

عثماني (أوائل القرن الـ 12 هـ/18 م)
مكتبة جامعة أوبسالا
أوبسالا، السويد



صحن وجهة القبلة
تستخدم للإشارة إلى جهة الكعبة

عثماني (918–926 هـ/1512–1520 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية

الحرم الشريف
حيث قبة الصخرة والمسجد الأقصى. باركه الله في القرآن الكريم، وجعله القبلة الأولى للمسلمين

بدأ البناء في 15 هـ/637 م، واستمر إلى 1336 هـ/1917 م.
القدس

عام 570 م، من عائلة فقيرة تنتمي إلى قبيلة قريش، ونشأ بدوره تاجرًا، ولكن سرعان ما أساءه الجشع المادي والانغماس بالشرك الذي تميز به أقرانه. فعمد وكخاتم الأنبياء المرسلين وبوحي من الله تعالى إلى نشر الإسلام بين الناس، وحضهم على العيش حسب تعاليمه. وتحول موسم الحج السنوي من عادة تقليدية إلى ركن من أركان الإسلام، حسب الأمر الإلهي.

قام الإسلام عبر الآيات القرآنية الموحاة الى الرسول بتحويل الحج إلى واجب مفروض على كل مسلم، من استطاع إليه سبيلاً جسديًا وماليًا، ولمرة واحدة في العمر. حيث تخلت مكة عن دلالتها الوثنية، وأضحت محط الأنظار العالمي لمجتمع مسلم متنام، عبر دلالتين مهمتين: الأولى، أمر الله تعالى نبيه محمد بجعل الكعبة قبلة المسلمين كافّة، بعد أن كانوا يتجهون بالصلاة خلال السنوات الأولى من الإسلام نحو القدس. الثانية، أصبحت مكة والكعبة مركزًا لحج المسلمين يؤدونه خلال شهر ذي الحجة من كل عام.

أما فيما يتعلق بشعائر الحج، فقد قام النبي محمد بتبني غالبية المناسك التي كانت سائدة في فترة الجاهلية، مع إعطاء توجيهاته للحجاج بضرورة ارتداء الملابس البيضاء الخفيفة، غير المخيطة، للطواف حول الكعبة، بدلاً من الطواف عراة، كما كان الحال في الجاهلية. ويرتدي المصلون المسلمون الذكور جميعًا الثياب البيضاء، والتي تعرف بملابس الإحرام داعين الله تقبل توبتهم، مبتهلين له قائلين: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك».

للحج مناسك متعددة، تبلغ نهايتها بالوقوف على جبل عرفات، وتختتم بتقديم الأضاحي لله تعالى ايذانًا ببدء عيد الاضحى وهو أهم الأعياد عند المسلمين. إضافة إلى واجبات الحج، يقوم الحجاج أيضا بزيارة قبر الرسول، ومسجده، في المدينة المنورة، وكذلك مزارات أخرى، كما تعتبر زيارة مدينة القدس ذات أهمية بالغة لدى المسلمين.

أما العمرة، وهي القيام بمناسك الحج دون تحديد أوقات معينة لأدائها، فقد اكتسبت في العقود الاخيرة أهميةً كبيرةً، لأن موسم الحج أصبح لا يستوعب الأعداد الهائلة للحجاج المسلمين. ولهذا فقد قامت المملكة العربية السعودية مؤخرًا بتحديد أعداد الحجاج في كل عام، لتبقى العمرة هي البديل لهؤلاء المتشوقين لزيارة مكة.

قارورة حاج

مملوكي (742–746 هـ/1341–1345 م)

المتحف الوطني

دمشق، سورية





قطعة من كسوة الكعبة

مجددة سنوياً قبل موسم الحج

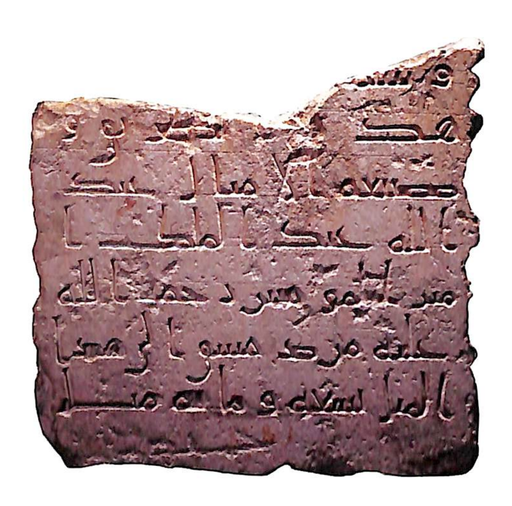
عثماني (القرن الـ 13 هـ/19 م)

المتحف الإسلامي، ومكتبة الأقصى

القدس

لفافة تفويض بالحج
أولئك الذين كانوا يرسلون مندوبين، كانوا يحصلون على شهادة كهذه، تؤكد أن جميع فرائض الحج قد تمَّت.

أيوبي (602 هـ/1206 م)
متحف الفنون التركية والإسلامية
استانبول، تركيا

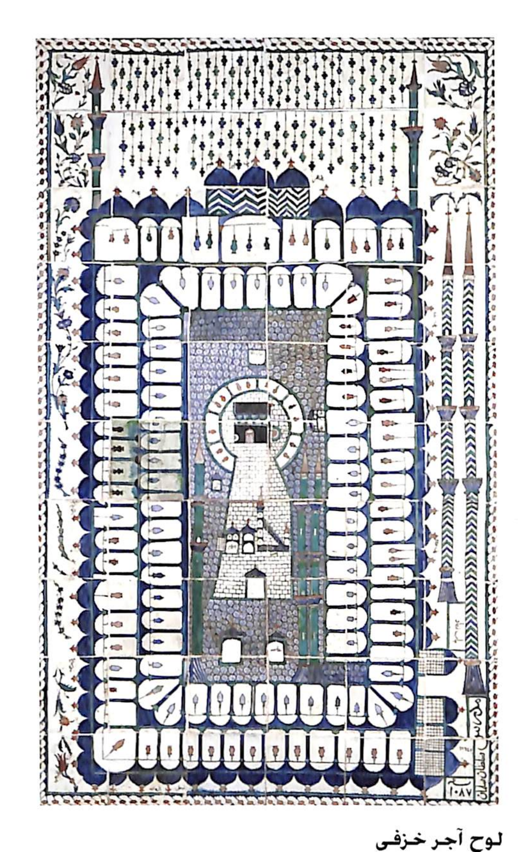


مَعْلم
أقيم للدلالة على المسافة بين محطتين على طريق الحج، أو التجارة

أموي (66–86 هـ/685–705 م)
متحف الفنون التركية والإسلامية
استانبول، تركيا

تواظب الحكومة السعودية، ومن منطلق العناية بالمدن المقدسة، والالتزام بتنظيم رحلة الحج، على تقليد محدد زمنيًا، يفتخر الحكام المسلمون بقدرتهم ليس فقط على تسهيل شعائر الحج في مكة، ولكن أيضا بالقدرة على تنظيم رحلة الحج من كافة بقاع العالم الإسلامي البعيدة.

ولم يُعتبر توفير هذه الخدمات واجبًا سياسيًا وإداريًا فقط، وإنما مصدرًا للشرعية السياسية، والأهم من ذلك، طلبًا للأجر والثواب من الله، أيضًا. فقد تم بناء طرقات متواصلة لقوافل الحجيج (تُعرف بدرب الحج) تنطلق من كافة مناطق العالم الإسلامي، مجهزة بكافة الخدمات والتجهيزات الضرورية لراحة الحجاج. كما تم إيجاد نظام معقد من الاستراحات على طول امتداد درب الحج، لتلبية الاحتياجات المتزايدة للقوافل، والتي كانت تتضمن بالإضافة إلى الحجاج تجارًا وإداريين، وترافق قوافل الحج قوات عسكرية، وموسيقيون، وموكب رسمي في حال كان ضمن القوافل خلفاء وسلاطين.



لوح آجر خزفي

عثماني (1087 هـ/1676 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر

المصطلحات:

الحج: الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو فرض لمرة واحدة على كل مسلم قادر جسديًا وماليًا.

كعبة مكة أو كعبة قريش: كان لكثير من القبائل العربية قبل الإسلام أكثر من مكان مقدس، ألغاها الإسلام، وثبت مكانًا واحدًا هي كعبة مكة. **الكعبة:** بناء مكعب، مستطيل الشكل أقرب إلى المربع، وتعتبر أقدس موقع لدى المسلمين، وقبلتهم في الصلاة. يطوف حولها الحجاج سبع مرات حال وصولهم إلى مكة ويسمى هذا "طواف القدوم"، كما يطوفوا حولها قبل مغادرتهم مكة ويسمى هذا "طواف الوداع" الإفاضة.

واد غير ذي زرع: اصطلاح قرآني للتعبير عن وادي مكة القاحل.

الصفا والمروة: هي مسافة بين موقعين في مكة، حيث سعت بينهما هاجر بحثًا عن الماء لسقاية ابنها إسماعيل الذي أصابه عطش شديد من شدة الحر.

عيد الأضحى: هو عيد يأتي في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة، ويسمى يوم النحر، أو العيد الكبير، أو عيد القرابين. ويعيد التراث هذه التضحية إلى النبي إبراهيم، ويعتبر أهم أعياد المسلمين حيث تنتهي به مناسك الحج.

مناسك الحج:

أ. النية: أن ينوي المسلم تأدية فريضة الحج، وتتم عند مغادرته بلده متوجهًا إلى مكة.

ب. الإحرام: يُحدد ويُعين الإحرام بمعنيين: الأول جسدي حيث يتم خلع الملابس المخيطة، ولبس قطع قماش بيضاء، وكذلك يتم حلق أو تقصير شعر الرأس. أما الثاني فهو معنى معنوي، حيث يتم الامتناع عن كل ما يُبطل الحج من إيذاء الآخرين، أو القتل أو الصيد أو ما شابه ذلك من أمور أخرى، ويتوجب على المرء الاستمرار بالعبادة والتركيز الروحي لأن الحج وقوف بين يدي الله، وبالتالي يجب أن يتم على أعلى درجات من الأدب واللياقة والخشوع.

ت. الطواف: وهو الدوران حول الكعبة سبع مرات حال الوصول وعند المغادرة.

ث. السعي: أي السعي بين الصفا والمروة.

ج. الوقوف في عرفة: التقاء كل الحجاج على هضبة واسعة في مكة تسمى "جبل عرفات".

ح. رمي الجمرات: وهي قذف رموز الشر (الشيطان) بحصى صغيرة بقصد الابتعاد عن الشر.

زمزم: هي بئر مكة، ومصدرها المائي الدائم الوحيد، انطلق النبع، حسب الرواية الإسلامية، بقدرة الله، عندما ضرب الطفل الرضيع العطش إسماعيل الأرض بقدميه، في حين كانت أمه تبحث عن الماء. وتعتبر مياه زمزم مقدسة، يتبرك بها الحجاج ويحملون كميات منها إلى ديارهم لتقديمها لعائلاتهم وأصدقائهم.

وداع الحجاج: هو جزء من التراث الشعبي الذي تحول إلى يوم وطني، تنشد فيه أغان خاصة تختلف من بلد إلى آخر، ويشارك عادة في وداع قافلة الحج الممثلون الرسميون للسلطة، ويشبه ذلك استقبال الحجاج عند عودتهم. وكان في الماضي يتم الخروج إلى حدود الإقليم لاستقبال قافلة الحج.

درب الحج: طريق محددة، قد تتغير أحيانًا، يسلكها الحجاج من كافة بقاع العالم الإسلامي باتجاه مكة، وعادة ما يتم إنشاء الخدمات الضرورية على امتدادها، وخاصة خدمات أمن الطرق، من قبل السلطة، وتتلاقى

الصفحة المقابلة
غطاء قبر

عثماني (القرن الـ 11 هـ/17 م)
المتحف الملكي، متاحف سكوتلندا الوطنية
أدنبره، المملكة المتحدة


الله
محمد
الله ربي
لا إله إلا الله محمد رسول الله

القوافل في أوقات وأماكن محددة. ومثال ذلك التقاء قافلة تركيا بقافلة الشام معًا، والتحرك سويًا ليلتقوا بقافلة الأردن وفلسطين.

زيارة بيت المقدس: كان من الشائع في صدر الإسلام اعتبار زيارة القدس حج الفقراء الذين لا يستطيعون جسديًا أو ماليًا الوصول إلى مكة. والقدس هي أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين. وبالتالي أصبحت هذه المدينة ضمن هذا المثلث المقدس. وقد جرت العادة على زيارة بيت المقدس ضمن رحلة العودة. واشتهر الأمر أكثر ما اشتهر بين أهل الأندلس وشمال إفريقيا (غرب العالم الإسلامي).

العمرة: تُؤدّى العمرة على مدار السنة. وذلك بسبب زيادة أعداد المسلمين الراغبين في الحج. وعدم قدرة المكان على استيعاب الأعداد الكبيرة (تتجاوز 3 ملايين). وهي مثل مناسك الحج تقريبًا. وتتمُّ في غير موسم الحج. وتتضمن زيارة كافة الأماكن المقدسة. والقيام بكافة الشعائر الدينية.

موسم الحج: يتضمن زيارة جميع الأماكن المقدسة. وكذلك الالتزام بزيارة كافة المقامات الدينية.

الحجر الأسود: يُعتبر الحجر الأساس في مبنى الكعبة. وهو محاط بإطار فضي لحمايته. ويعمد الكثير من الحجاج إلى تقبيله أسوةً بالنبي محمد.



طابعة

عليها الأمكنة المقدسة في إقليم فلسطين

عثماني (القرن الـ 13 هـ/19 م)

المتحف الإسلامي، ومكتبة الأقصى القدس

المماليك: حين صارت القاهرة قلب العالم الإسلامي الجديد

محمد عباس سليم



اثنان من أبراج قلعة صلاح الدين الأيوبي
برج الرملة، وبرج الحداد. استُخدما لإيواء الجنود منذ عهد السلطان المملوكي قلاوون

أيوبي (579 هـ/1184 م)
القاهرة، مصر

المماليك: حين صارت القاهرة قلب العالم الإسلامي الجديد

حكمت دولة المماليك مصر وبلاد الشام (الهلال الخصيب، بما في ذلك سوريا، وفلسطين) طيلة ثلاثمائة سنة (648–923 هـ/1250–1517 م)، وكانت واحدة من أقوى الممالك الإسلامية في العصور الوسطى، حيث تمكن سلاطينها من مواجهة تهديدات غزو المغول والفرنجة التي شكلت تهديدًا خطيرًا للعالم الإسلامي. وقد أمّن المماليك مكانتهم وحكمهم باتخاذهم مصر مركزًا للخلافة العباسية، والتي أعيد إحياؤها بعد سقوط بغداد في يد المغول عام 656 هـ/1258 م.

كان المماليك أصلاً مجموعة من الأرقّاء الذين تم امتلاكهم عن طريق الأسر، أو الشراء، أو المهاداة، لتقديم مهام الحراسة والأمن الشخصي للخلفاء العباسيين، وقدم معظم هؤلاء المماليك من بلدان بعيدة، فكان من بينهم المماليك الأفارقة، والشركس، واليونان، والأكراد، والصقليون، والأتراك.

يتحتم على المملوك الجديد، ومنذ لحظة شرائه، اجتياز نظام صارم حيث يتم أولاً إخضاعه للفحص الطبي، وبعد ثبوت لياقته البدنية يتم ضمه للوحدات العسكرية حسب جنسيته، حيث يقوم الفقهاء المسلمون بتعليمه أصول الإسلام وأساسيات اللغة العربية، ومن ثم يتم تدريبه على فنون الحرب والمهارات العسكرية التي تليق



سترة واقية (مزردة)

مملوكي (القرن الـ 7–8 هـ/13–14 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية

المماليك
(684–923 هـ/1250–1517 م)
العاصمة: القاهرة

استانبول
قونية
بغداد
دمشق
القدس
القاهرة
الاسكندرية
بنغازي
طرابلس
باليرمو
تونس
الجزائر
فاس
مراكش
لشبونة
طليطلة
قرطبة
غرناطة

١٨٠١٩

وكذلك لعب الطراده لابد منه والله الموفق

باب كسر العامود والخلاص منه

ينبغي لمن أراد أن يكسر العامود وأن يسمى من
الفرسان أن يتخذ رمحا من مقدار يكون طوله باعين
ويشمعه حتى لا يسلح يده ويتخذ له نصلا حديدا يكون
زنته رطلين ويكون رأسه على صفة رأس نصاب
المراه وينصبه فيه ثم يعمد إلى فرس غليظ القوا
قوي ثابت الرقبة ويقطع من الجبل عامودا على قدر
قوته ويحفر له في الأرض مقدار ذراع ويعمل بالجبس

صفحة من مخطوطة عن الفروسية
فيها عدد من الفقرات عن الحرب والفروسية

مملوكي (القرن الـ 9 هـ/15 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر



درع مدرَّجة وسيف

مملوكي (القرن الـ 7 هـ/13 م)
متحف الآثار الأردني
عمان، الأردن

بحرس النخبة. وعند انتهاء فترة التدريب، يتم منح المملوك لقب فارس بعد أداء يمين الولاء لسيده في موكب سلطاني يجوب شوارع القاهرة التي هي مركز سيادة السلطان.

يعتبر السلطان الأيوبي "الصالح نجم الدين أيوب" (حكم ما بين عامي 637–647 هـ/1239–1249 م) أول من امتلك عددًا كبيرًا من المماليك، وأسكنهم في جزيرة الروضة على نهر النيل، قرب العاصمة القاهرة، وعرف هؤلاء باسم المماليك البحرية، الذين زاد نفوذهم إلى درجة كبيرة، حيث تمكنوا من

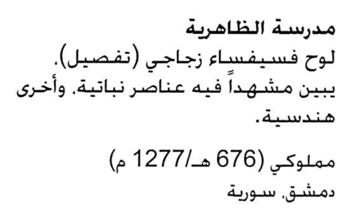
السيطرة على مقاليد الحكم بعد وفاة نجم الدين ايوب، ومقتل ابنه وخليفته توران شاه، وقاموا بتنصيب زوجته شجرة الدر سلطانة على البلاد، الأمر الذي أثار حفيظة ومعارضة الخليفة العباسي. ومن أجل حل هذا النزاع، تزوجت شجرة الدر من الأمير المملوكي عز الدين أيبك، وتنازلت له عن الحكم سنة 648 هـ/1250 م، وكانت بذلك بداية دولة المماليك البحرية في مصر.

تميزت السنوات التي تلت ذلك بالتهديدات الخارجية والقلاقل السياسية الداخلية حيث قام سيف الدين قطز في العام 658 هـ/1259 م بخلع ابن السلطان عز الدين أيبك من الحكم، وتنصيب نفسه سلطانًا، وتعهّد بصد تهديدات المغول والفرنجة لدولة المماليك، فتمكن من هزيمة المغول في معركة عين جالوت، في فلسطين في عام 659 هـ/1260 م، ليوقف زحفهم ولينقذ العالم الإسلامي وأوروبا من أخطارهم، وقد بسط هذا السلطان سيادته على فلسطين وسوريا (ما عدا إمارة الكرك). وبدل مكافأته على أفعاله تم اغتيال قطز عند عودته إلى مصر بمؤامرة دبرها صديقه بيبرس البندقداري الذي استولى على السلطة. بالرغم من وصول بيبرس للسلطة بشكل عنيف، تميز عصره بالقيادة الحكيمة والتطور والإصلاح.

قرآن
نُسخ بأمر السلطان جقمق
مملوكي (842–857 هـ/1438–1453 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر







مدرسة الظاهرية
لوح فسيفساء زجاجي (تفصيل).
يبين مشهداً فيه عناصر نباتية، وأخرى هندسية.

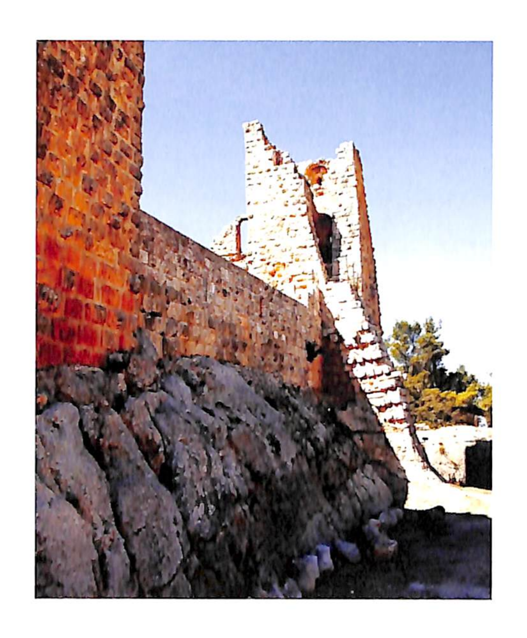
مملوكي (676 هـ/1277 م)
دمشق، سورية

عندما تولى المنصور قلاوون الحكم في عام 678 هـ/1279 م، قام باستحداث نظام الحكم بالوراثة، فيما كان سلفه يتولون الحكم عن طريق قرار من مجلس شيوخ المماليك، أو بتلاعب من الأسرة الحاكمة أو بالخديعة والعنف. وبقي الأمر كذلك حتى نهاية دولة المماليك البحرية في عام 784 هـ/1382 م. وقد كانت فترة حكم أسرة قلاوون مرحلة هامة، ليس فقط في تاريخ المماليك، ولكن أيضًا في تاريخ الحضارة الإسلامية، بشكل عام.

وضع السلطان الظاهر برقوق في عام 784 هـ/1382 م ، قواعد وأسس دولة المماليك الثانية التي كانت تدعى بالبرجية أو الشركسية (شركس من القوقاز) نسبة إلى تربيتهم وتدريبهم في أبراج قلعة القاهرة، واستمر حكمها حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. وقد تميزت الدولة البرجية في عهد السلطان برقوق بجهود صد التهديدات الخارجية المتمثلة في صعود الدولة التيمورية واعتداءاتها في قارة آسيا، وكذلك التركيز على تحقيق الإنجازات السياسية والاقتصادية والفنية.

أما في عصر السلطان الأشرف برسباي (حكم فيما بين عامي 825–842 هـ/ 1421–1438 م) فقد امتدت سيادة المماليك لتغطي معظم مناطق الشرق الأوسط، وطول حوض البحر المتوسط وموانئ البحر الأحمر، كما لعب ميناء الإسكندرية دورًا احتكاريًا على صعيد التجارة الداخلية والخارجية ليصبح بالتالي مركزًا رئيسيًا لاستقبال ممثلي التجار الأجانب والمستشارين التجاريين. أما السلطان الظاهر جقمق (حكم فيما بين عامي 842–857 هـ/1438–1453 م) فقد سار على خطى برسباي، حيث أمَّن مكانة الإمبراطورية في البر والبحر، وفي صد تعديات القراصنة في المياه المملوكية.

وعندما تولى السلطان قايتباي الحكم في عام 874 هـ/1468 م، أضحت مصر أقوى دول العالم الإسلامي، ولا يعود السبب في ذلك إلى حالة الاستقرار الداخلي



قلعة عجلون
خلافًا للقلاع الأخرى في المنطقة، كانت هذه القلعة من بناء المسلمين من الألف إلى الياء.

أيوبي، مملوكي (579–658 هـ/ 1184–1260 م)
عجلون، الأردن

وحسب. وإنما إلى وضعها السياسي وسلطتها الدينية أيضًا. الأمر الذي انعكس في عظمة المنشآت العمرانية التي أقيمت في مناطق المماليك في مصر، وسوريا، وفلسطين.

استمرت روعة وتفوق المماليك حتى بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، حيث قام السلطان الأشرف قانصوه الغوري (حكم ما بين عامي 906–921 هـ/1501–1516 م) وهو آخر السلاطين المماليك، بتعزيز وجود حضارة المماليك برعاية التجهيزات العسكرية وإنشاء الحصون على سواحل الإسكندرية ورشيد. كما قام بتشييد منشآت معمارية لا تزال قائمة ليومنا هذا في شارع المعز لدين الله في القاهرة.

ولكن، وبعد ثلاثمائة عام من حكم المماليك شارفت النهاية، ولم تستمر هذه الفترة من الازدهار حيث تأثرت الحالة السياسية والاقتصادية في مصر بالتطورات الجديدة بما فيها اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح التي حولت طرق قوافل التجارة





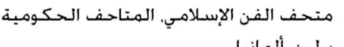


صينية

مملوكي (نحو 800 هـ/1400 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة

قارورة عليها صور لاعبي البولو

كانت لعبة البولو محببة كثيرًا لدى حكام المماليك، إذ جمعت بين التدريب العسكري، ورياضة اللهو.



مملوكي (700 هـ/1300 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية
برلين، ألمانيا

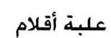


علبة غداء (سفرطاس)

مملوكي (القرن الـ 9 هـ/15 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة







علبة أقلام

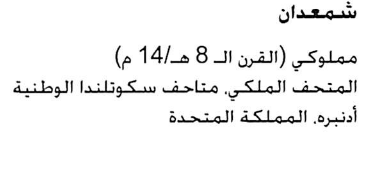
مملوكي (أواسط القرن الـ 8 هـ/14 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة

مدرسة ومسجد السلطان حسن

مملوكي (764 هـ/1362 م)
القاهرة، مصر

التي كانت تمر بمناطق المماليك إلى المحيط الاطلسي وشواطئ غرب إفريقيا. كما تزامن هذا مع أطماع العثمانيين الضاغطة في التوسع من الأناضول وحتى البسفور. وفي نهاية الأمر، تم القضاء على دولة المماليك بقتل السلطان الغوري في معركة مع العثمانيين في مرج دابق قرب حلب في عام 921 هـ/1516 م. وما كان إمبراطورية مملوكية أصبح مناطق عثمانية.

كانت التركيبة الهيكلية للمماليك معقدة، وكان السلطان المملوكي على رأس الهرم وهو القائد الأعلى للدولة ومسؤولاً عن حماية الإسلام ونظام الخلافة الإسلامية. وقد حرص السلاطين على الإقامة في القلعة التي كانت واجهتها تطل على ميدان ازدان بالقصور الفخمة، وأحاط السلطان نفسه بمجموعة من الأمراء الذين كان لكل



شمعدان

مملوكي (القرن الـ 8 هـ/14 م)
المتحف الملكي، متاحف سكوتلندا الوطنية
أدنبره، المملكة المتحدة





أعلى يسار
علبة بهارات

مملوكي (القرن الـ 9 هـ/15 م)
المتحف الملكي، متاحف سكوتلندا الوطنية
أدنبره، المملكة المتحدة

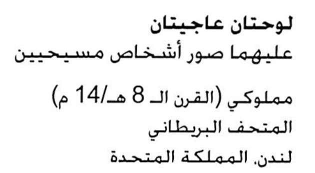


كفّة ميزان

مملوكي (القرن الـ 9 هـ/15 م)
المتحف الملكي، متاحف سكوتلندا الوطنية
أدنبره، المملكة المتحدة

منهم وظيفة محددة في خدمة السلطان وكان يرمز لها بشعار معين عرف بالرنك، أو شعار النبالة، مثل السيف الذي يرمز إلى حامل سلاح السلطنة (السلحدار)، وعصا البولو الذي يرمز إلى الأمير المسؤول عن رياضة البولو (الجوكندار)، وغيرها من الوظائف التي كان يسندها السلطان المملوكي لأمرائه المخلصين.

شكل المماليك طبقة النخبة التي كانت تعيش بشكل منفصل عن بقية طبقات الشعب التي تشكلت من مختلف الأعراق من مصريين، وعرب، وأرمن، ويونان، ورغم أن المسلمين كانوا يشكلون أغلبية المجتمع، إلا أنه كانت هناك طوائف أخرى من الكاثوليك، الأرثوذكس، الأقباط وكذلك اليهود. وبحماية الإسلام كان لهذه الطوائف دور اقتصادى هام في المجتمع المملوكي وخاصة الأقباط الذين ساهموا



لوحتان عاجيتان
عليهما صور أشخاص مسيحيين

مملوكي (القرن الـ 8 هـ/14 م)
المتحف البريطاني
لندن، المملكة المتحدة



مدرسة ومسجد السلطان قايتباي
مشهد داخلي

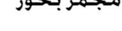
مملوكي (877 هـ/1472 م)
القاهرة، مصر

بشكل كبير في الثقافة والفنون لا سيما في مجال صناعة المنسوجات والخزف والأخشاب.

أظهر سلاطين المماليك قوتهم وسلطتهم عبر إقامة المواكب في المناسبات المهمة. وكان حفل تتويج السلطان من أكثر المواكب إغداقًا وعظمة، حيث ينطلق السلطان من خلف القلعة ويتجه شمالاً ليدخل القاهرة عبر باب النصر، ومن ثم يتابع جنوبًا عبر شارع المعز، مرورًا بباب زويلة، وصولاً إلى القلعة، حيث كانت تزين شوارع القاهرة بأفخم الزينات، وتُفرش الطرق بالحرير أمام السلطان.

ومن المناسبات الأخرى الهامة موكب الحج السنوي والذي كان يطلق عليه موكب (المحمل) الذي تشكل من قافلة تحمل كسوة الكعبة الحريرية المزخرفة والمتجهة إلى مكة. وكان هذا الموكب يأخذ نفس المسار السابق، وصولاً إلى ميدان القلعة حيث ينتظر السلطان على حصانة بأبهى حلله على منصة معدة خصيصًا لذلك محاطًا بأمرائه ومماليكه.

ومن الاحتفالات الشعبية الجديرة بالذكر تلك التي كانت تقام عند رصد هلال شهر رمضان وعيد الفطر (نهاية شهر الصوم) حيث كان يقوم السلطان بتوزيع الملابس الجديدة والهدايا والنقود. وكان هناك أيضا احتفالات شعبية أخرى مثل الاحتفال بارتفاع منسوب نهر النيل، حيث تكثر عندها المباريات الرياضية المختلفة وخاصة الفروسية ورياضة الصيد.



مجمر بخور

مملوكي (القرن الـ 9–10 هـ/15–16 م)
معرض ومتحف فن كلفنغروف، متاحف غلاسكو
غلاسكو، المملكة المتحدة



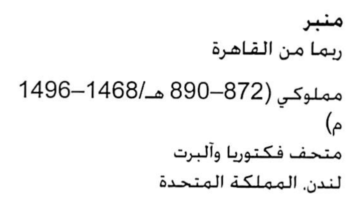


مدرسة ومسجد السلطان حسن
مشهد المحراب

مملوكي (764 هـ/1362 م)
القاهرة، مصر

بالرغم من عرض القوى الذي كانت تقوم به الدولة، كان النظام المملوكي متقلبًا وغير ثابت داخليًا حيث يصعب من خلاله تأمين دخل ثابت مدى الحياة . لهذا قام المماليك باستحداث نظام الوقف لحماية ممتلكاتهم من المصادرة، ولتأمين مصدر دخل ثابت. ويتضمن هذا النظام توفير أراضي وقف دينية لتأمين الموارد المالية اللازمة للمرافق العامة والخدمات مثل إمدادات المياه العذبة والتعليم. وبالوقت ذاته تأمين مصدر دخل للمملوك المتبرع (الواقف) وعائلته.

بالإضافة إلى المسؤوليات الاجتماعية والدينية والعسكرية، أقام السلطان وحاشيته علاقات دبلوماسية مع أوروبا والشرق، حيث كان يتم صنع التحف الفنية



منبر
ربما من القاهرة

مملوكي (872–890 هـ/1468–1496 م)
متحف فكتوريا وآلبرت
لندن، المملكة المتحدة



قارورة

مملوكي (أواسط القرن الـ 8 هـ/14 م)
متحف كالوستي جولبنيكيان
لشبونة، البرتغال

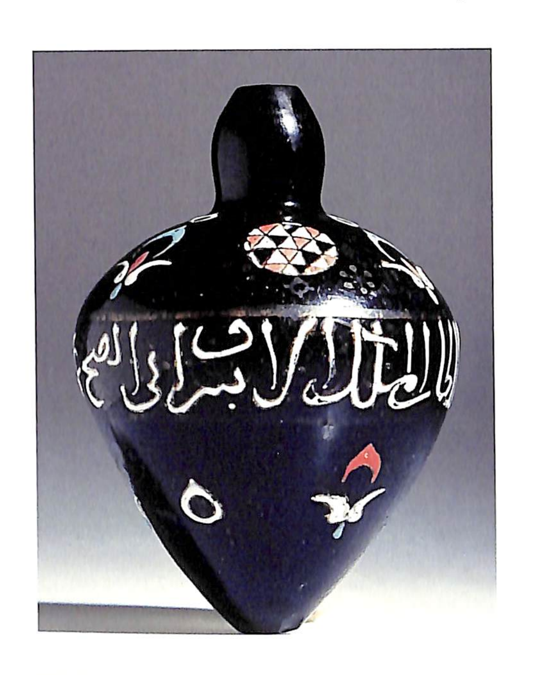
اليدوية والهدايا القيمة لإرسالها لملوك وسلاطين البلدان المختلفة. كما إنهم قاموا بتطوير علاقات تجارية عالمية وخاصة مع أوروبا والهند والصين، وأنشأوا الأسواق والوكالات التجارية والخانات في كل من دمشق والقاهرة، والتي لا يزال معظمها قائمًا حتى يومنا هذا.

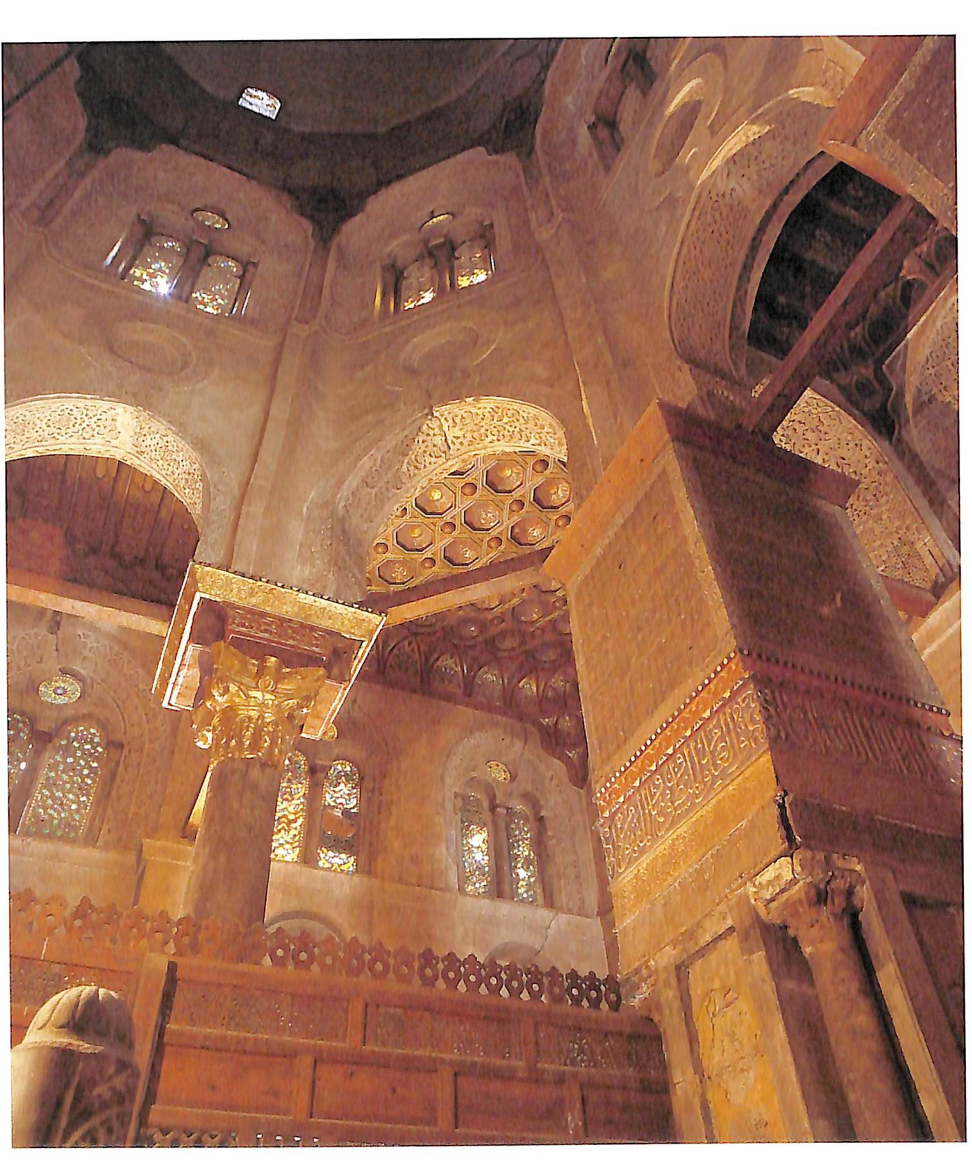
أنشأ المماليك الفنادق والخانات والوكالات الخاصة بالتجار لتمكينهم من تخزين بضائعهم والاتجار بها، حيث كان تجار جنوة والبندقية يصدرون من إيطاليا إلى مصر الخشب، والصمغ، والحديد، والنحاس، ويستوردون البهارات والحرير والكتان، التي كانت ترد إلى مصر من الهند واليمن والصومال. وقد سيطر سلاطين المماليك على عائدات التجارة ليتم استعمالها في تسيير أمور الدولة.

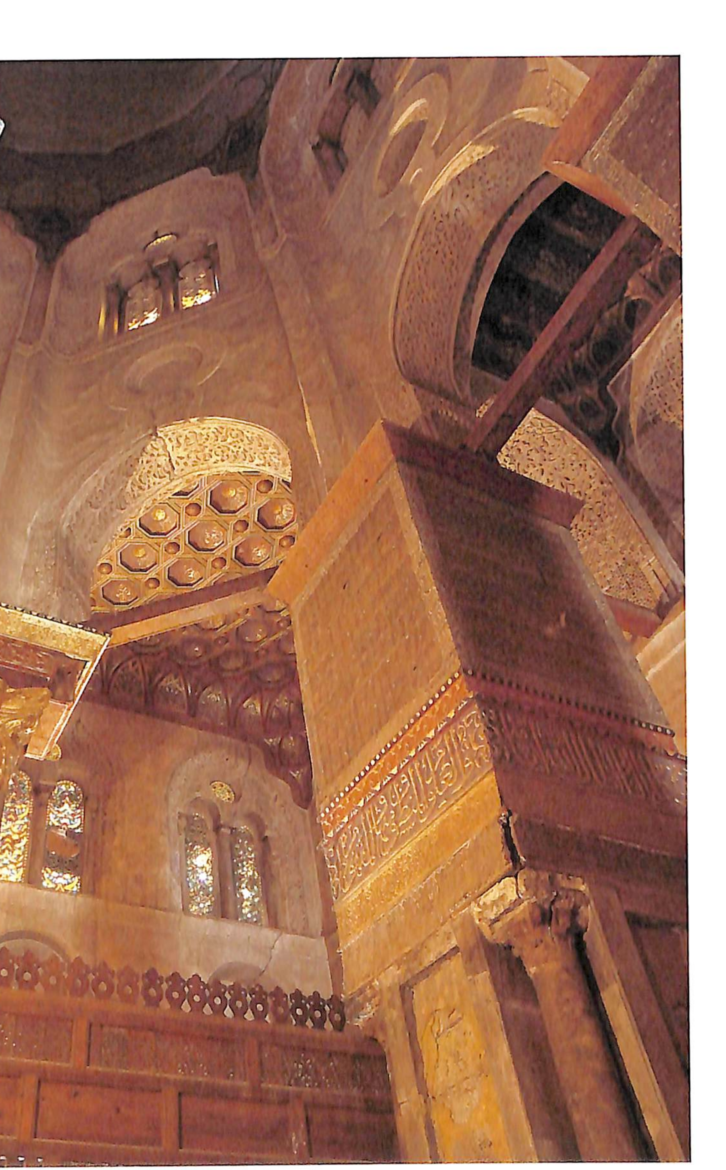
ازدهرت الأنشطة العلمية والاقتصادية والفنية في العصر المملوكي، وكانت مصر ودمشق والقدس من أهم المراكز الحضارية في ذلك العصر، وأضحت القاهرة عاصمة المماليك من أغنى مدن الشرق وأُطلق عليها عاصمة العالم، يفد إليها العلماء والدارسون والتجار والفنانون، من كافة أنحاء العالم لتبادل الأفكار والبضائع.

رشّاش

مملوكي (694 هـ/1295–1296 م)
متحف فكتوريا وآلبرت
لندن، المملكة المتحدة







مجمّع السلطان المنصور قلاوون
مشهد داخلي للضريح

مملوكي (684 هـ/1285 م)
القاهرة، مصر

وصفة طبية
تصف علاج الاضطرابات المعوية

مملوكي (القرن الـ 9 هـ/15 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر



شمعدان

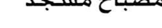
مملوكي (694 هـ/1294 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر

كانت معظم عائدات الدولة تُصرف على رعاية فن العمارة الذي بلغ ذروته في عهد المماليك بوجود عناصر متنوعة جديدة تمثلت في تصاميم المباني والزخارف الدينية والمدنية. ويعود الفضل لهذا التنوع بشكل أساسي لتعدد أجناس المماليك الذين جاءوا من خلفيات عرقية مختلفة وأحضروا معهم تقاليدهم وعاداتهم الفنية الخاصة بهم. كما استحدث المماليك عناصر معمارية جديدة مثل نظام المدارس والذي كان شائعًا في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي وخاصة في إيران، وأدخلوا أساليب جديدة من سوريا متمثلة في القباب كما في ضريح قلاوون. وكذلك بيمارستان قلاوون الذي تأثر ببيمارستان النوري في دمشق.

وتم إدخال عناصر الفن المغربي على العمارة المملوكية مثل الأقواس "الحدوية" التي كانت على شكل حدوة الفرس، وقواعد المآذن المربعة كما في مدرسة قلاوون ومدرسة وضريح سلار وسنجر الجاولي. وقد تجلَّت مظاهر الإبداع العمراني في نظام المباني متعددة الأغراض الدينية والتعليمية والخيرية والأسبلة الملحقة (نوافير لتوزيع مياه الشرب مجاناً) في الجوامع والمدارس. كما تعدَّدت أشكال المآذن وزخارفها المتنوعة حيث اتسعت قبابها وزينت مداخلها بالمقرنص.

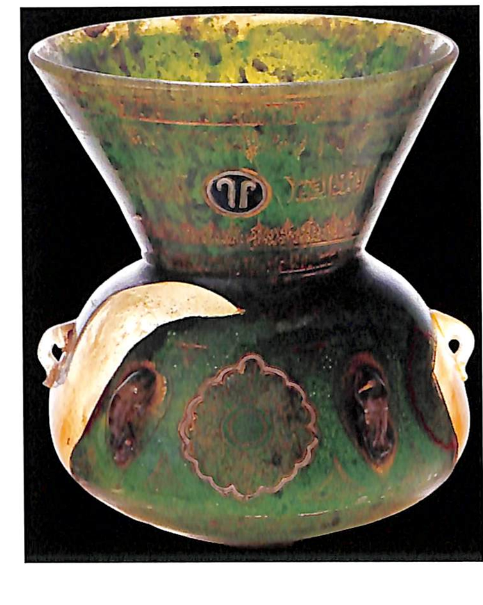
أدَّت رعاية المماليك واعتناؤهم بالفنون إلى إنشاء أماكن متخصصة لإنتاج التحف المختلفة للأسواق المحلية والعالمية. وقد كان الطلب كبيرًا في كل من العالم الإسلامي وأوروبا على صناعة الزجاج وصناعة المعادن وتكفيتها بالذهب والفضة وكذلك صناعة الخزف والسجاد والمنسوجات. الأمر الذي كان له كبير الأثر على الذوق الأوروبي.

أعجبت بعض الدول الأوروبية بهذه الثروة الفنية لدرجة أن حرصت بعض المدن مثل البندقية على استخدام أسلوب التكفيت على المعادن متأثرة في ذلك بالفن المملوكي، كما وضح التأثر الأوروبي بالفن المملوكي باستعمال خط الثلث على



مصباح مسجد

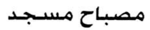
مملوكي (النصف الأول من القرن الـ 8 هـ/14 م)
متحف الفنون التركية والإسلامية
استانبول، تركيا



سبيل ومدرسة كُتّاب السلطان قايتباي

مملوكي (884 هـ/1479 م)
القاهرة، مصر



مصباح مسجد

مملوكي (بعد 721 هـ/1321 م)
متحف كالوستي جولبنيكيان
لشبونه، البرتغال

التحف المختلفة. فيما تأثرت بعض المباني الأوروبية مثل أبراج النواقيس في أواخر عهد النهضة بنمط المآذن الإسلامية.

قام الفنانون إضافة إلى استخدام العناصر الإسلامية في الأعمال الفنية مثل الكتابات المنقوشة بخطي النسخ والثلث وزخارف الأرابيسك. باستخدام العناصر المستوحاة من مجموعات أجنبية جاهزة مثل استخدام العناصر الزخرفية الصينية مثل العنقاء والتنين وزهرة عود الصليب لتزيين مصنوعات الخزف والنسيج والأخشاب وعناصر أخرى من إيرن أو الغرب.

كان لفترة المماليك روعة متأصلة في تاريخ الحضارة الإسلامية يستطيع المرء أن يستشعر إرثها الفني والثقافي والديني حتى يومنا هذا.



مخطوطة عن الجراحة
«تركيب المعارف لمن ليس قادراً على تأليفها بنفسه» بقلم الطبيب الأندلسي أبو القاسم (المتوفى بعد 400 هـ/1009 م)

مملوكي (القرن الـ 8–9 هـ/14–15 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية

الأعلام:

الظاهر بيبرس البندقداري
(حكم ما بين عامي 659–676 هـ/1260–1277 م)
يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك، وقد تميزت فترة حكمه بالانتصارات الحربية على المغول والفرنجة، كما قام بالقضاء على الثورات الداخلية وخفض الضرائب وإصلاح الطرق وتجديد الأسطول وغيرها من الإصلاحات، كما حقق الاستقرار السياسي والاقتصادي. ومن أهم الأحداث في عصره إحياء الخلافة العباسية بمصر. ومن أهم إنجازاته المعمارية مسجده القائم حتى الآن بحي الظاهر بالقاهرة.

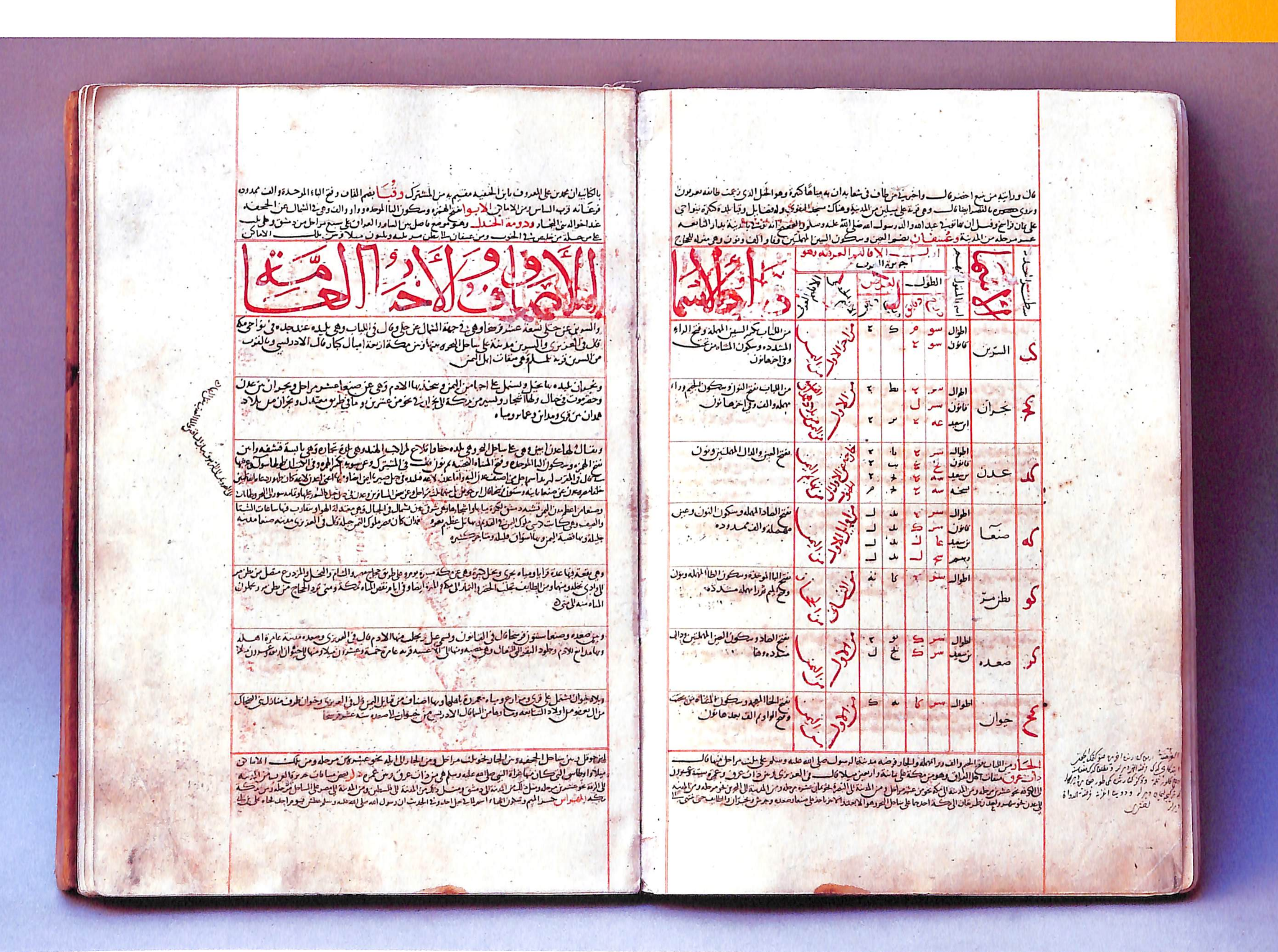
المنصور سيف الدين قلاوون
(حكم ما بين عامي 678–689 هـ/1279–1290 م)
يعتبر الأب الثاني لدولة المماليك وقد حكم هو وأبناؤه من بعده على مدى مائة عام. من أهم إنجازاته المعمارية المجمع الشهير الذي يضم ضريحا وبيمارستانا ومدرسة، ويقع في شارع المعز لدين الله، ويعتبر هذا المجمع بداية ظهور طراز معماري جديد هو نظام المجمعات المعمارية ذات الوحدات متعددة الأغراض. وقد توفى أثناء حصار عكا. وتعتبر فترة حكم أسرة قلاوون من أزهى العصور في تاريخ الفنون في العصر المملوكي.

الظاهر سيف الدين برقوق
(حكم ما بين عامي 784–802 هـ/1382–1399 م)
هو أول سلاطين المماليك الشركسية (البرجية) المتمركزين في القلعة، ومن أهم إنجازاته المعمارية بيمارستان ومدرسة بشارع المعز بجوار مدرسة السلطان قلاوون . وهي أولى المنشآت المعمارية التي شيدت في زمن المماليك الشراكسة.

الأشرف أبو النصر قايتباي
(حكم ما بين عامي 873–902 هـ/1468–1496 م)
ولد عام 827 هـ/1423 م وتدرج في المراتب حتى تولى السلطنة عام 1468 م. وقد حكم لمدة 29 عامًا وهي أطول فترة حكم لسلطان مملوكي.
تميزت فترة حكمه بالانتصارات العسكرية الباهرة، وأقام العديد من المباني في القاهرة وفي مدن مصرية أخرى وكذلك في سوريا والحجاز. ومن أهم إنجازاته المعمارية مدرسة ومسجد السلطان قايتباى والتي تقع في مقبرة المماليك بالقاهرة، إضافة إلى قلاع تحمل اسمه في كل من الإسكندرية ورشيد، وسبيل قايتباي في الحرم الشريف في القدس.

العلوم والموسيقى

مونيكا ريوس



مخطوطة عن الجغرافيا

يُعتقد أنها مستندة إلى ترجمات وتعديلات لبطليموس

مملوكي (741 هـ/1340 م)

المتحف الوطني

دمشق، سورية

العلوم والموسيقى

لقد تمَّ التأكيد، في مناسبات عديدة، على الدور الذي لعبته الحضارة العربية الإسلامية في نقل العلوم، المأخوذة عن الشرق، وعن العصر القديم إلى أوروبا. لكننا يجب ألا نغفل أيضًا الدور الأصيل والمبدع الذي لعبه الإسلام في التطوّر العلمي للإنسانية. ولا شك في أن الخليفة العباسي المأمون، كان من أكثر الخلفاء مساهمة في التطور العلمي، وذلك بفضل "بيت الحكمة" الذي أسّسه. ففي مركز الدراسات ذاك، تمَّت ترجمة الأعمال الموروثة عن تقاليد سابقة (إغريقية، وسنسكريتية)، مما سهّل التعرف على علوم الجبر، وحساب المثلثات، والمنطق، وعلم الفلك، والطب، الذين استمر تطوّرهم حتى تلك الفترة. من المساهمات الفريدة الهامة أيضًا تطوير الجداول الفلكية، أو قياس خط الزوال الأرضي. ومن أشهر العلماء في تلك الفترة كان الخوارزمي (توفي عام 232 هـ/846 م).



إناء زجاجي
ربما مستخدم للكيمياء

عباسي (القرن الـ 3–4 هـ/9–10 م)
المتحف الوطني
دمشق، سورية

لقد كان علم الفلك جزءًا من العلوم التي عرفت درجة كبيرة من التطور اللامع، ونجاحه يرتبط جزئيًا بتطبيقاته العملية في مجال الشعائر الإسلامية (تحديد اتجاه المساجد، وتحديد ساعات الصلاة، إلخ)، وفي وضع الأبراج. ولقد تجلّت أهمية الأسطرلاب الكبيرة، في هذا المجال، نظرًا لأنه كان يقلّص بشكل كبير، الزمن الذي كان على عالم الفلك أن يكرّسه للقيام بحساباته. ومن أهم علماء الفلك البيروني (عاش ما بين عامي 362–440 هـ/973–1048 م)، الذي كان في الوقت نفسه، عالم رياضيات محنكًا وفيلسوفًا شهيرًا.

في مجال الطب، تجلّى اجتماع التقاليد الإغريقية والإيرانية في شخص أبو بكر الرازي (عاش فيما بين عامي 250–311 هـ/864–923 م)، الذي كان موسيقيًا في شبابه، ثم صار مدير مشفى الدودي في بغداد. والواقع أن الإسلام كان وراء تشكيل مؤسستين، تمّ نقلهما إلى الغرب، هما المصحات من جهة، والامتحانات التي كان لا بد من اجتيازها للحصول على الإذن بممارسة الطب من جهة أخرى. وبشكل عام كان البيمارستان يمتلك بعض الأراضي الملحقة به، حيث تُزرع النباتات الطبية، كما كان يحتوي على مدرسة



مخطوطة
نسخ أحد أجزاء دراسة طبية
موحدي (610–619 هـ/1213–1223 م)
المكتبة الوطنية
الرباط، المغرب



مبضع جراحي

عباسي (القرن الـ 3 هـ/9 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر

مرتبطة به. وكانت بعض المشافي قادرة على أن يشتغل بها ما يقارب ثمانين طبيبًا، من اختصاصات مختلفة (أطباء عيون، وجراحين، ومختصين بالجروح والرضوض، إلخ)، بالإضافة لقيامهم بالتدريس. وقد كان هناك اهتمام متزايد بدراسات الصيدلة، وعلم النبات، كما بدأت محاولات للتصنيف العلمي للنباتات. وتشهد أدوات الطب، وأوعية الصيدلة، التي وصلت إلينا، بأن الصيادلة والكيميائيين كانوا يقومون داخل المخابر بتجارب تمَّ استثمار نتائجها، في مجالات تبدو بعيدة كبعض الحرف اليدوية التي كان يمارسها الدبّاغون والعطارون على سبيل المثال.

وفي بغداد العباسية، تحت حكم هارون الرشيد، نجد أكثر الحقب الموسيقية أصالة. فقد كان إسحق بن ابراهيم الموصلي (توفي عام 235 هـ/850 م)، وتلميذه زرياب (توفي عام 230 هـ/ 845 م) الذي اضطر للجوء إلى الأندلس، معلمين في مجال التأليف الموسيقي. وإننا لندين لزرياب بتحسين تقنية العود، هذا بالإضافة إلى أنه أسس مدرسة الغناء في قرطبة.

كذلك تم بناء مؤسسات أخرى خاصة بالتعليم العالي في الشرق، وفي الغرب الإسلامي، وهي المدارس.

قطعة من وصفة طبية
تذكر فوائد الصبر لعلاج بعض الأمراض

عباسي (أوائل القرن الـ 2 هـ/8 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر

لوحة جصية من قصيّر عمرة
صورة عوّاد

أموي (القرن الـ 2 هـ/القرن الـ 8 م)
الزرقاء، الأردن



كأس مزين بعازف ربابة

عباسي (القرن الـ 4 هـ/القرن الـ 10 م).
المتحف الوطني للفن المشرقي
روما، إيطاليا

أما في الأندلس، فإن أكثر المساهمات العلمية فرادة تعود إلى الجرّاح أبو القاسم الزهراوي (توفي عام 404 هـ/1106 م) ، وإلى عالم الفلك الطليطلي ابن الزرقالوه (توفي عام 493 هـ/ 1100 م). كذلك عرفت التقنيات نهضة جديدة مرتبطة بشكل كبير بضرورات الاستخدام (مثل إدخال تقنيات الزجاج المقصوص، أو الخزف المزجّج). ويجب ألا ننسى الأشكال المتحركة التي كانت تعتبر أعمالاً فنية تنمّ في الوقت ذاته عن براعة حقيقية. ومن الابتكارات الجديدة الرائعة، التطوير الملموس لآلات الحرب. أما التقنيات الهيدروليكية (وسائل جرّ المياه، ومنظومة الري، مثل النواعير، أو القنوات) فكان لها بلا شك تأثير لا مثيل له، لأنها حسّنت وسهّلت مردود الإنتاج الزراعي.

إن فترة الاكتشافات الكبيرة، في القرن الخامس عشر الميلادي، تدين بالشيء الكثير لأعمال الجغرافيين، والبحارة المسلمين، الذين كانوا يستطيعون التباهي بتجربة متينة، نظرية وعملية، في آن معًا. فقد كانوا خبراء مشهود لهم بما يتعلق بالمحيط الهندي (ويبدو ذلك بشكل واضح في حكايا "ألف ليلة وليلة") وبالبحر المتوسط، وبجزء من المحيط الأطلسي. كما كانوا قادرين ببراعة أيضًا على صنع خرائط الإبحار (وهي الخرائط نفسها، التي سوف تستخدم فيما بعد من قبل المكتشفين الأوروبيين). ولقد تابعوا، من جانب آخر، نشاطًا مكثفًا في مجال بناء السفن، في ورشات التصنيع التي خرجت منها نماذج جديدة للمراكب.

المدرسة البوعنانيا

مارني (751–756 هـ/1351–1356 م)

فاس، المغرب





ناعورة في حماه

أتابكي، وأيوبي، ومملوكي، وعثماني (القرن الـ 6–10 هـ/12–16 م)

حماه، سورية

مخطط شبكة مياه السليمانية

عثماني (النصف الثاني من القرن الـ 12 هـ/18 م)

متحف الفنون التركية والإسلامية

استانبول، تركيا



زبدية
رسوم سفن ظهرت للمرة الأولى زمن إعادة الاحتلال

ناصري (أواخر القرن الـ 8–834 هـ/أواخر القرن الـ 14–1430 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية
برلين، ألمانيا



زبدية

ناصري (الربع الثاني من القرن الـ 9 هـ/15 م)
متحف فكتوريا وآلبرت
لندن، المملكة المتحدة

ولقد استطاع الجغرافيون العرب أن يحسّنوا، في الوقت ذاته، علم الخرائط من خلال وضعهم لخرائط العالم المعروف، مثل تلك التي رسمها الإدريسي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، للملك روجيرو الثاني، ملك صقلية.

العثمانيون: سلطنة دامت ست مئة سنة

فيرينا دايبر، وإنجي قويولو إرصوي



مسجد السليمية (مشهد داخلي)

عثماني (982 هـ/1574 م)

أدرنه، تركيا

العثمانيون: سلطنة دامت ست مئة سنة



المسجد الأخضر
المئذنة (تفصيل)
عثماني (780–795 هـ/1378–1392 م)
ازنيق، تركيا

هاربة من المغول في آسيا الوسطى، حَطَّتْ عشيرةُ قايي، وهي أحد فروع قبائل الأوغوز التركية، رحالها في سُوُوُتْ ودومينيتش الواقعتين في إقليم مَرْمَره الحالية، وأصبحت إمارةً خلال حكم الغازي عثمان بيك (679–724 هـ/1281–1324 م).

حَمَلَتْ الإمارة اسم مؤسسها عثمان، ودامت 622 عامًا دون انقطاع، أي منذ تاريخ تأسيسها في عام 698 هـ/1299 م، إلى عام 1340 هـ/1922 م.

بدأ العثمانيون، الذين كانوا في صراع متواصل مع الإمبراطورية البيزنطية، وإمارات تركية أخرى، توسيع حدودهم خلال حكم أروهان بيك (724–763 هـ/1324–1362 م). وما إن تم الاستيلاء عليها في عام 726 هـ/1326 م، حتى أصبحت بورصة العاصمة الجديدة.

وهذه المدينة، التي كانت مركزًا تجاريًا، قبل ظهور الإمبراطورية العثمانية، شكلت التربةَ التي أَنْبَتَتْ الفنونَ والهندسةَ المعمارية العثمانيتين. ثمة مساجد، وخانات (فنادق، استراحات)، ومدارس، وحمّامات، وأضرحة، شُيِّدت بأسلوب جديد، تزاوَجَ مع ما هو محلي، وباتت هذه التركيبة مميزة، ولاسيما على الواجهات، بالاستناد إلى المواد المستعملة.

وبعد "بورصة" مباشرة نجح العثمانيون في احتلال "أزنيق"، التي ما لبثت أن باتت مركزًا مهمّا لإنتاج الخزف الذي اشتهر في طول العالم وعرضه (731 هـ/1331 م). ثم ما فتئ العثمانيون أن عبروا مضيق الدردنيل (مضيق جنة قلعة) إلى تراقيا، التي وسّعوا حدودهم فيها.

العثمانيون
إدرنة
استانبول
بورصة
قونية
لشبونة
طليطلة
قرطبة
غرناطة
باليرمو
الجزائر
تونس
بغداد
دمشق
فاس
مراكش
القدس
الاسكندرية
طرابلس
بنغازي
القاهرة

كان احتلال أدرنه، التي سرعان ما أصبحت عاصمة الإمارة الجديدة (769 هـ/1368 م)، وذلك أثناء حكم مراد الأول (763–791 هـ/1362–1389 م) بمثابة الإشارة الأولى إلى أن العثمانيين يتجهون لبلوغ فترة مجدهم المعماري المتفوق.

ومع الاستيلاء على كل من بلغاريا، مقدونيا، وصربيا، أصبحت علامةُ وصول العثمانيين إلى قلب أوربا واضحة أيضًا. وهذه المساعي التوسعية استمرت خلال حكم بايزيد الأول (المعروف بالصاعق، وقد دام حكمه من عام 791 إلى 804 هـ/1389 إلى 1402 م). كما أن محاولة العثمانيين الأولى للاستيلاء على القسطنطينية كانت في هذه الفترة.

ظهرت الدلائل الأولى على التفوق المعماري، الذي كان العثمانيون سيحققونه، هنا في مدينة أدرنه. كانت فترةُ الفراغ الناشئة عن هزيمة تيمور وقواته لبايزيد الأول وأَسْره في عام 804 هـ/1402 م، فترةَ تشوُّش وضياع، جراء تقاتل أنجال بايزيد، إلى أن تمكَّن محمد الجلبي (محمد الأول، الذي دام حكمه من عام 815 إلى 823 هـ/1413 إلى 1421 م) من وضع حدٍّ لهذا الوضع الانتقالي، بعد انتصاره على إخوته الثلاثة: عيسى، سليمان، وموسى.

ومحمد الأول هذا، يُعَدُّ صاحبَ فضلِ إعادة لَمِّ شملِ الإمارة التي كانت قد بدأت تتفكك خلال فترة الفراغ. وفي عهد نجله مراد الثاني (الذي دام حكمه من عام 823 إلى 847 هـ/1421 إلى 1444 م؛ من عام 849 إلى 854 هـ/من 1446 إلى 1451 م)، تواصلت هذه المساعي. والإمارات التي كانت قد استعادت استقلالها بعد معركة أنقرة (804 هـ/1402 م) عادت وخضعت للحكم العثماني.

تمثَّلَ حدثٌ مهم آخر من أحداث المرحلة بهزيمة حملة الفرنجة الجديدة المجردة بهدف طرد الأتراك من البلقان، إثر معارك حاسمة، في فارنا (847 هـ/1444 م)، وكوسوفو (851 هـ/1448 م).

خلال حكم محمد الثاني (وقد حكم من عام 854 إلى 885 هـ/1451 إلى 1481 م)، زادت حدود الإمبراطورية العثمانية اتساعًا، حتى وصلت إلى الفرات في الشرق، والدانوب في الغرب.

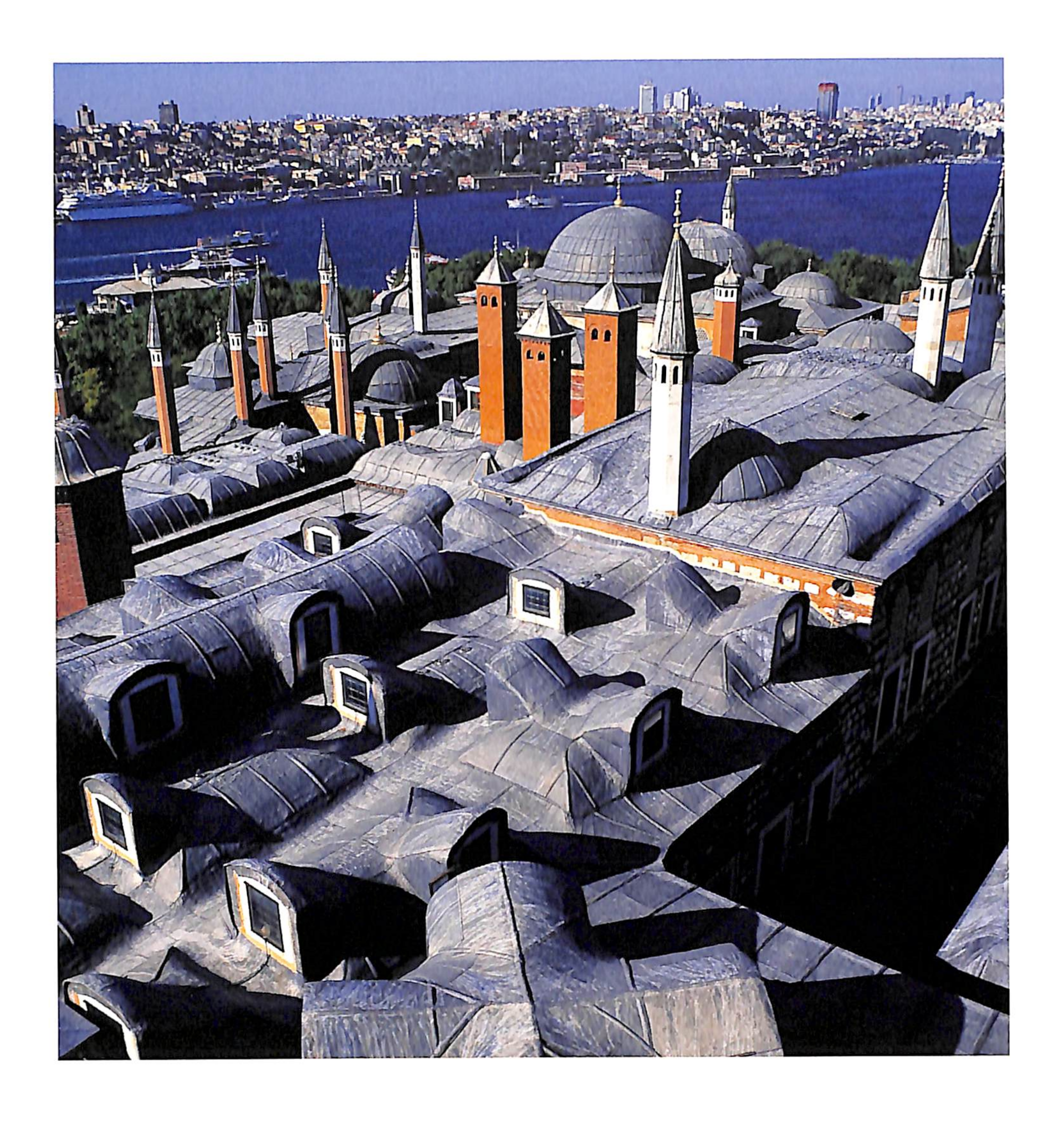
قميص مطلسم
مطرز بآيات قرآنية، وأدعية، وتعاويذ.

عثماني (أواخر القرن الـ 8– أوائل القرن الـ 9 هـ/ أواخر القرن الـ 14– أوائل القرن الـ 15 م)
متحف الفنون التركية والإسلامية
استانبول، تركيا



الضريح الأخضر
قبر السلطان محمد الأول

(حكم 815–823 هـ/1413–1421 م)
عثماني (822 هـ/1419–1420 م)
بورصة، تركيا



قصر توب قابي

بُني القصر على موقع من شبه جزيرة استانبول، يتحكم بالقرن الذهبي، من جهة، وبمضيق البوسفور وبحر مرمرة، من الجهة المقابلة

عثماني (بداية القرن الـ 9 هـ/15 م). إضافات أخيرة (في القرن الـ 13 هـ/19 م)
استانبول، تركيا

حصن قلعة بحر

بناه السلطان محمد الثاني ليفرض حكمه على الداردنلين
عثماني (866 هـ/1463 م)
قلعة بحر، جنة قلعة، تركيا



عُرف محمدٌ الثاني بلقب محمد الفاتح، عقب فتحه القسطنطينية، وهو في الحادي والعشرين من العمر (في عام 856 هـ/1453 م)، وهو حدث وضع حدّا أيضًا للإمبراطورية الرومانية الشرقية المعروفة أكثر باسم الإمبراطورية البيزنطية.

بادر محمد الثاني إلى استقدام الرسام الإيطالي جنتايل بليني ليرسمه على الطريقة الأوربية، في تصرف يُرى اليوم دليلاً على نظرة محمد الثاني المنفتحة إلى العالم. فمحمد الفاتح المعروف بعبقريته في ساحة القتال، كان في الوقت نفسه قائدًا حصيفًا وحكيمًا، ذا نظرة ليبرالية متحررة إلى السياسة والعلم والفن.

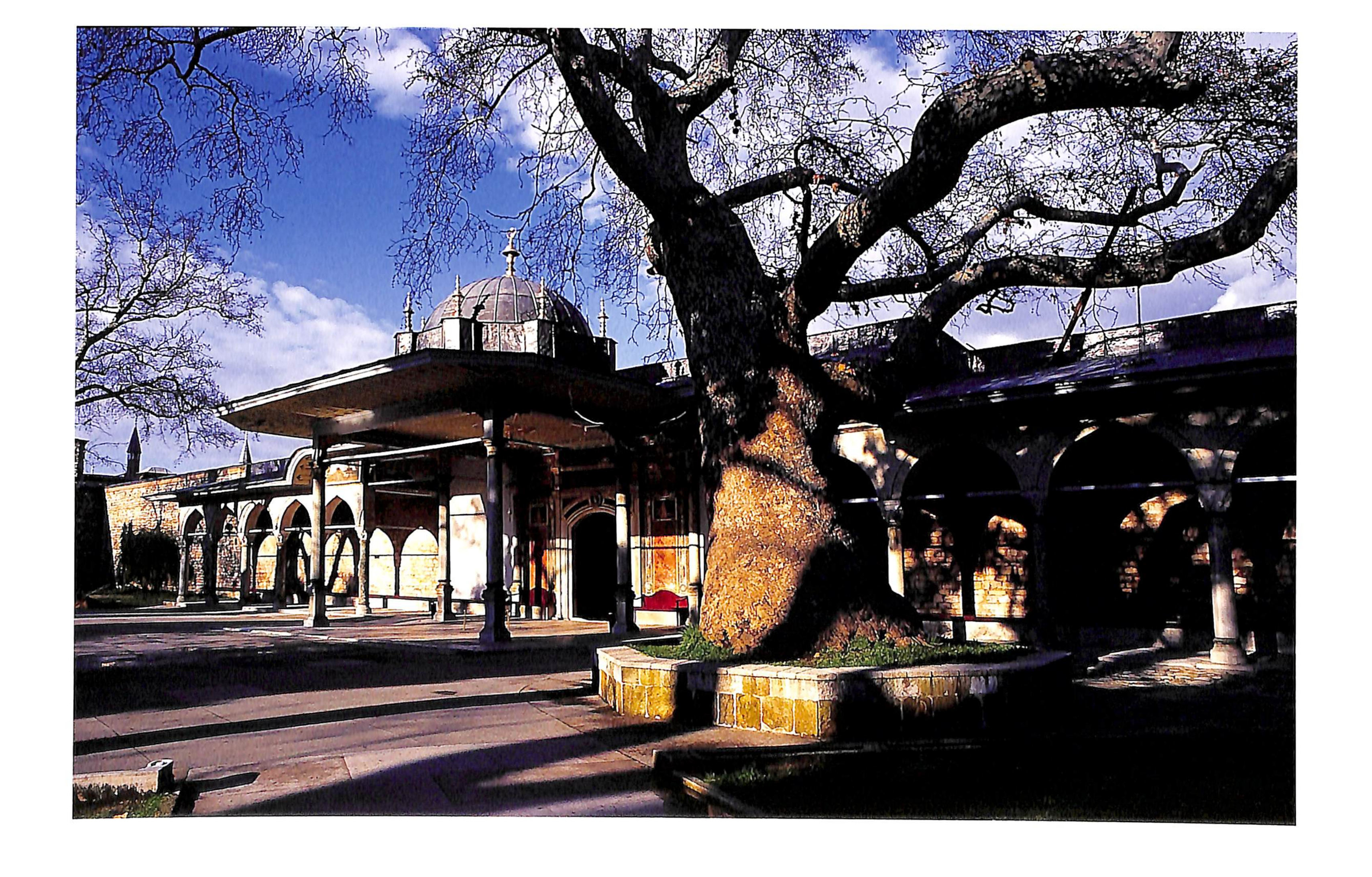
وبفضل هذه الرؤية ما لبثت استنبول أن أصبحت عاصمة الحضارة الإسلامية التركية، ولوحة فسيفسائية ثقافية، مزركشة بباقةٍ من الثقافات الغربية والشرقية، من خلال حماية جملة النماذج الموروثة عن العالم البيزنطي.

شكّلَ مجمَّعُ الفاتح الذي ابتناه محمد الثاني، المجمَّع التذكاري التاريخي الأولَ الذي يُقْدِم أيُّ سلطان على تشييده. أما قصر توب قابي، الذي تم بناؤه أيضًا تحت إشراف محمد الثاني مركزًا حكوميًا، فسرعان ما غدا مقر السلطان، ومدرسة البلاط لتخريج إداريي المستقبل. وقصر توب قابي اليوم ليس إلا نتيجة سلسلة متصلة من الإضافات والإغناءات التي جرت حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي.

ما من موظف رفيع المستوى في البلاط العثماني، إلا وقد ساهم في الرصيد الهائل من المرافق العامة التي أضفت على العاصمة استنبول، وبلدات السلطنة الأخرى، ثوبًا عثمانيًا مميزًا.

قصر توب قابي
باب السعادة

عثماني بُدئ (في القرن الـ 9 هـ/15 م)؛
إضافات أخيرة (في القرن الـ 13 هـ/19 م)
استانبول، تركيا



على صعيد آخر، كان ثمة اهتمام خاص بتعزيز القوات البحرية، التي عُدَّتْ ركيزة لبناء قوة ذات شأن، لا في البحار فقط، بل وفي بعض جزر الحوض الشرقي للمتوسط، التي كانت قد انتُزعت من أيدي الجنويين والبنادقة. كذلك تم اجتياح القرم نتيجة جهود استهدفت جعل البحر الأسود جزءًا آمنًا من الإمبراطورية. في الوقت نفسه جُردت حملات جديدة في كل من الأناضول وأوربا على حدٍّ سواء.

وعلى الرغم من أن هذه الحملات تباطأت خلال عهد ابن محمد الثاني بايزيد الثاني (الذي حكم من عام 885 إلى 917 هـ/1481 إلى 1512 م)، فإن عددًا من الحصون على الشواطئ الشمالية للبحر الأسود، مثل إسماعيل، آكرمان وكيلا، قد جرى الاستيلاء عليها.

تمثلت إحدى آيات التسامح العثماني المهمة، بقبول اللاجئين اليهود المطرودين من إسبانيا في عام 897 هـ/1492 م، والسماح لهم باستيطان أراضٍ عثمانية.

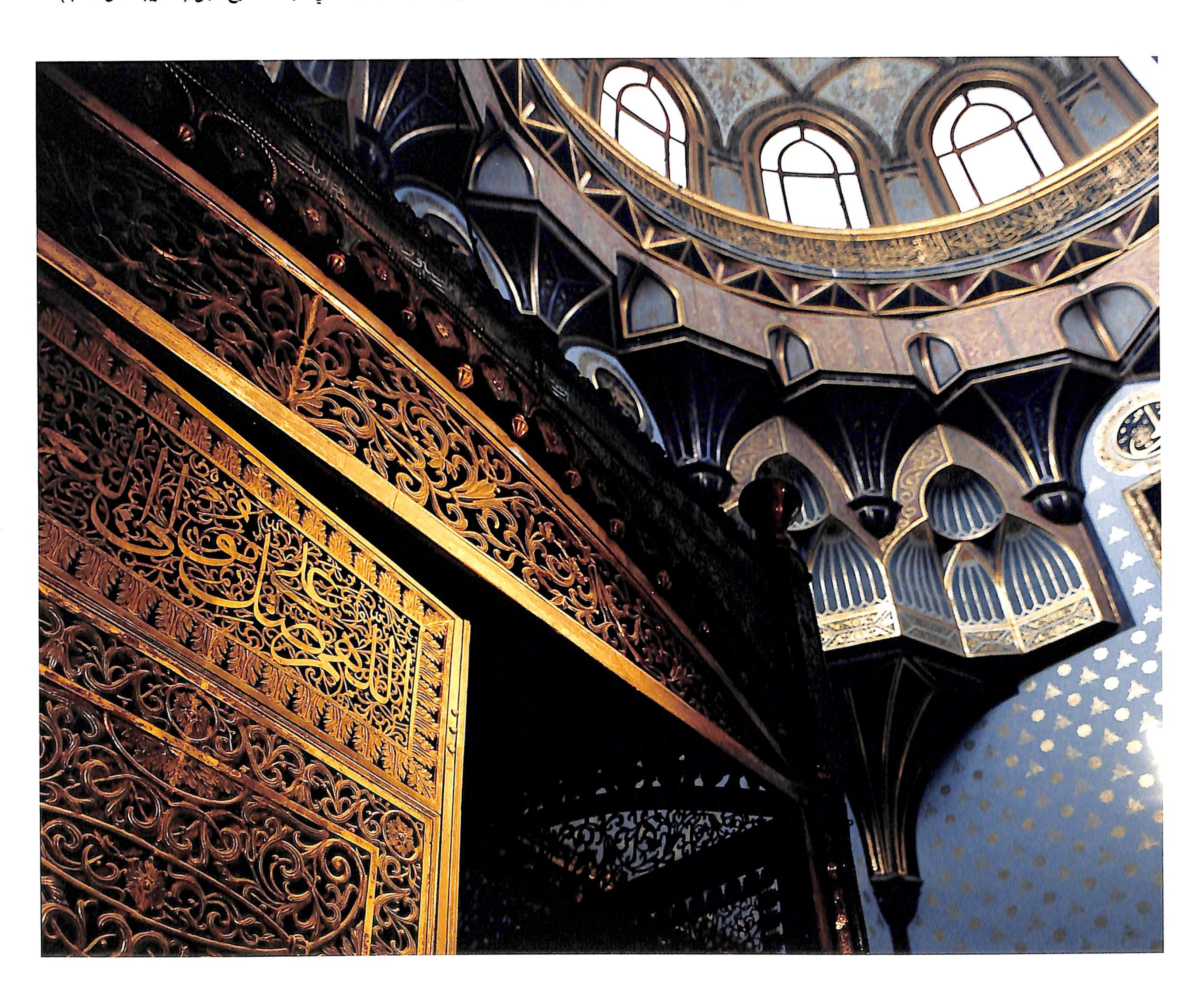
نجح السلطان سليم الأول (المعروف بالمهول، وقد دام حكمه من عام 917 إلى 926 هـ/1512 إلى 1520 م) في إكراه أبيه على التنازل له عن العرش، ثم ما لبث أن استأنف توسيع رقعة السلطنة شرقًا وجنوبًا، ملحقًا الهزيمة بالمماليك في موقعة مرج دابق (القريبة من حلب)

الصفحة المقابلة
مجمع السليمانية
بناه المعماري الشهير سنان

عثماني (957–964 هـ/1550–1557 م)
استانبول، تركيا

قصر توب قابي
جناح الخرقة النبوية والأمانات المقدسة

عثماني، بُدئ في (القرن الـ 9 هـ/15 م)؛
إضافات أخيرة (في القرن الـ 13 هـ/19 م)
استانبول، تركيا







وزير وجنود
تزيين مخطوطة (مخطوطة مسجلة برقم 8626)

نحو 998 هـ/1590 م
مكتبة النمسا الوطنية
فيينا، النمسا

عام 921 هـ/1516 م، فوضع حدّا لحكم المماليك، واستولى على المناطق المملوكية السابقة، في كل من مصر، وبلاد الشام، وحاضرتي الحرمين الشريفين في الحجاز.

باتت استنبول قلب العالم الإسلامي، وأقدم سليم الأول على إعلان نفسه خليفة، ونقل رفات النبي (ما بقي من آثاره، وأشيائه الخاصة) إلى استنبول. ولقد أصبح العثمانيون قوة كوكبية في عهد سليم الأول، الذي كان أيضًا رائدًا للعالم السني، المتصدي للصَّفَويين الشيعة في الشرق. وتواصل الصراع بين الدولتين خلال حكم سليمان الأول (المعروف بلقب سليمان القانوني، الذي دام حكمه من 926 إلى 973 هـ/من 1520 إلى 1566 م).

تمخضت الحملات العسكرية في الغرب عن إخضاع بلغراد (في عام 927 هـ/1521 م) وبودابست (في عام 932 هـ/1526 م) لحكم بني عثمان، غير أن حصار فيينا الأول في عام 935 هـ/1529 م، لم يكون موفقًا. جرى الاستيلاء على جُلّ جُزُر بحر إيجة، فيما تم استكمال إخضاع البحر الأبيض المتوسط للنفوذ العثماني، مع احتلال بعض الجزر الأخرى القريبة من الشواطئ الإيطالية والإسبانية.

ثمة علاقات عثمانية فرنسية طويلة الأمد، بدأت مع التماس الملك شارل الخامس، إمبراطور آل هابسبورغ، مساعدة سليمان القانوني في أسر الملك الفرنسي فرانسوا الأول. تَمَّ في عام

942 هـ/1536 م إبرام اتفاقيات امتيازات تجارية بين الإمبراطور والسلطان، بهدف تفعيل العلاقات بين أوربا والسلطنة العثمانية. ثمة اتفاقات مشابهة جُدِّدَتْ مراتٍ عديدة في الأعوام والقرون اللاحقة.

كانت استنبول، عاصمةُ الحكم، مركزًا للفن العثماني أيضًا. كان الإنتاج الفني خاضعًا لتحكم القصر، الذي احتكر توزيعه على أرجاء السلطنة. فمهندسو العمارة، والمصممون، والحرفيون والخطاطون، كانوا يُجمَّعون في ورشات القصر، حيث كانوا يعملون تلبية لرغبات الأسرة الحاكمة وحاشيتها. والتصاميم (أو النقوش) كانت تُجمع في كتب نموذجية، وتُطبق بوسائل عديدة متباينة، بما كان يضمن تماثُل النماذج.

صحيح أن خزف أزنيق وسجاد أوشاق كانا يُنتجان خارج ورشات عمل القصر، غير أنهما بقيا على الدوام ملتزمين بالموضوعات المصممة من قبل القصر؛ وكانا يُباعان في الأسواق المحلية، كما كان يجري تصديرهما.

في هذه الفترة أخذت العاصمة العثمانية طابعًا جديدًا حَمَل توقيعَ سنان كبير مهندسي العمارة في القصر، وجامع السليمانية المُشيَّد فوق تلة مطلة على استنبول، والذي هو أحد مآثره، يشكل نوعًا من التزاوج بين عبقرية سنان من ناحية، وهيبة سليمان القانوني من ناحيةٍ ثانية. ينتصب الجامع بوصفه الأنموذج التاريخي والتذكاري الأهم بين سلسلة من المجمعات الكبرى، التي تولّى سنان إنجازها، والتي بدأت بمجمع الفاتح.

استمر توسع أراضي السلطنة خلال حكم سليم الثاني، وهو ابن سليمان القانوني، (الذي دام حكمه من عام 973 إلى 981 هـ/1566 إلى 1574 م). فحدود الإمبراطورية العثمانية باتت شاملة لمساحة أوسع من أي وقتٍ سابق. خلال حكم مراد الثالث (وقد حكم من عام 981 إلى 1003 هـ/من 1574 إلى 1595 م)؛ إذ أصبحت تضم أجزاء من أوربا وآسيا وإفريقيا، فيما تحول البحر الأَسْوَد، وبحر إيجة، وجزء كبير من البحر الأبيض المتوسط، إلى بحيرات عثمانية.

بعد خسارة موقعها كعاصمة لمصلحة استنبول، احتفظت أدرنه بأهميتها الاستثنائية، مقرّا ومنطلقًا للحملات العسكرية الموجهة إلى قلب أوربا. كانت متوَّجة بتحفة سنانية أخرى هي تحفة جامع السليمية، الذي ابتناه سليم الثاني تجسيدًا للحقبة الأخيرة من فن العمارة العثماني الكلاسيكي بخطته المركزية.



سجاد أوشاقي
كان السجاد التركي يُصدر بكميات كبيرة إلى الأسواق الأوروبية

عثماني (القرن الـ 10 هـ/16 م)
متحف الفنون التركية والإسلامية
استانبول، تركيا



قصر إبراهيم باشا
مشهد الفناء

عثماني، ربما شُيِّد (أواخر القرن الـ 9–10 هـ/15– أوائل القرن الـ 16 م)
استانبول، تركيا



التكية السليمانية
كانت التكية فندقًا يقدم الطعام المجاني للحجاج

عثماني (973 هـ/1566 م)
دمشق، سورية

جامع الدرويشية

عثماني (979–981 هـ/1571–1574 م)
دمشق، سورية

في الأقاليم، ظهرت ملامح جديدة للمعمار والزخرف العثمانيين، مندمجة بالمخزون المحلي، ومنبثقة بوصفها أساليب جديدة مبتكرة. ما لبثت القاهرة التي كانت يومًا عاصمة الأيوبيين، والمماليك، البهية، أن تدهورت من حيث المرتبة إلى مجرد مدينة إقليمية، بقدر أقل من النشاط العمراني التاريخي. الأضرحة المقبَّبَة اختفت إلى حدٍّ كبير، وأعداد كبيرةٌ من المباني الدينية، وخصوصًا المدارس المزودة بمناهل الماء (الأسبلة)، انبثقت.

بادر والي مصر سليمان باشا الخادم إلى ابتناء مسجد سليمان باشا في عام 935 هـ/ 1528 م. وهو ينتصب شاهدًا حيّا يوثّق لعمارة استنبول الملهمة، إذ كان تقليدًا لجامع وتكيّة السليمانية بدمشق، هذا المُجمَّع الذي بُني برعاية سليمان القانوني.

تشكّل تكيّة السليمانية المنجزة في عام 973 هـ/1566 م، رمزًا معماريًا لقوة سليمان خلال حكمه، مثل تجسيد التفوق العثماني المتجلي في بناء مسجد سليمان باشا المُنجز في عام 394 هـ /1528 م. تقف التكيّة السليمانية داخل مساحة مسورة، وتضم مسجدًا، مدرسة، وغرف خان، ودار عمارة لإيواء المشردين، وإطعام الجائعين.

ألبوم الخطاط الشهير أحمد قره حصاري

عثماني (القرن الـ 10 هـ/16 م)
متحف الفنون التركية والإسلامية
استانبول، تركيا



مصباح مسجد

عثماني (نحو 963 هـ/1557 م)
متحف فكتوريا وآلبرت
لندن، المملكة المتحدة

يقع المجمع على ضفة نهر بردى، مشكلاً مكان اجتماعات، من ناحية، ومأوى للحجاج القادمين من سائر الأمصار الإسلامية، والذاهبين إلى الأمكنة المقدسة، من ناحيةٍ ثانية.

والمجمع من تصميم المعماري الشهير سنان، الذي أرسل مخططاته إلى دمشق، حيث تولى معماريون وبناؤون محليون إنجاز المشروع وفقًا لخطته.

ثمة علامة مميزة للنفوذ العثماني تتمثل في نمط الجامع الجديد التي باتت مترسخة: مسبوقًا بنوع من الرواق، كان المسجد مسقوفًا بصفوف من القباب، ومزوداً بعددٍ من المآذن الشبيهة بأقلام الرصاص.

بدأ في دمشق إنتاج موسع لألواح القاشاني من الطراز الأزنيقي. وقد استخدمت هذه الألواح في تزيين بعض المباني، مثل جامع الدرويشية. إنها تبين المخزون التزييني المشترك للبلاط العثماني، ولكنها تحافظ على طابعها المحلي، على صعيدي التلوين والتفصيل.

في غضون القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، جرى بناء عدد غير قليل من الخانات، مطبوعة جميعًا بعناصر عثمانية، من حيث التصميم، وطراز الزخرف، في العواصم الإقليمية المتمثلة بدمشق، حلب وطرابلس. وكانت هذه الخانات رمزًا، ليس فقط للسلطة الجديدة، بل وشاهدًا على الازدهار الاقتصادي في بداية الحكم العثماني، ذلك الازدهار الذي كان يلقى التشجيع من القوافل التجارية الآتية من جميع المناطق الإسلامية، مارة بالمدن الرئيسية الواقعة على الطريق إلى الحجاز.

وفي القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، بدأت القوة العسكرية والمالية للسلطنة العثمانية تتدهور، وصولاً إلى نقاط ضعف، ما لبثت أن ازدادت تفاقمًا جراء سلسلة

الصفحة المقابلة
خيمة
عثماني (القرن الـ 11 هـ/17 م)
متحف الجيش
ستوكهولم، السويد

مسجد السليمية
بناه المهندس المعماري سنان
عثماني (982 هـ/1574 م)
أدرنه، تركيا







عرش السلطان أحمد الأول

عثماني (1011–1026 هـ/1603–1617 م)
متحف قصر توب قابي
استانبول، تركيا



صورة السلطان أحمد الأول

عثماني (النصف الأول من القرن الـ 11 هـ/17 م)
المتحف الملكي، متاحف سكوتلندا الوطنية
أدنبره، المملكة المتحدة

من الصراعات الداخلية، والحروب المتواصلة، ولاسيما بسبب الهزيمة العثمانية التي تمثلت فى إخفاق الحصار الثاني لفيينا في عام 1094 هـ/1683 م.

وبمبادرة من البابا تشكل اتحاد أوروبي مسيحي بهدف طرد العثمانيين من أوربا، مما جعل هؤلاء في مواجهة حشد من الأعداء. ومع توقيع معاهدة كارلوفيتز تجرع العثمانيون أول كؤوس فقدان الأرض في أوروبا. ومنذ ذلك التاريخ استمرت عملية خسارة الأراضي العثمانية في أوروبا، على الرغم من بعض الانتصارات قصيرة النَّفَس بين الحين والآخر.

على الرغم من تدهور السياسة العثمانية، فإن الحقبة المعروفة بعهد الزنبق، خلال حكم أحمد الثالث (الذي دام من عام 1114 إلى 1142 هـ/من 1703 إلى 1730 م) شهدت نمطًا جديدًا من الحياة، مع المؤثرات الغربية التي وصلت إلى قلب الأراضي العثماني.

من الممكن رؤية المناظر الطبيعية العائدة إلى تلك الفترة بوصفها تجديدات في الفن العثماني تحت تأثير الغرب. فغرفة الفاكهة للسلطان أحمد الثالث في قصر توب قابي، إضافةً إلى منهل الماء الذي يحمل اسمه (1141 هـ/1729 م) شاهدان على تأثُّر الفن العثماني

بالغرب خلال حقبة الزنبق. وبعد هذه الحقبة تتخذ العمارة العثمانية ملامح الروكوكو، المتزاوج مع الباروك. لعل مسجد نوروعثمانية (1158–1169 هـ/1746–1756 م)، هو المبنى الأهم الذي شيد وفق طراز الباروك، في استنبول. ثمة مساجد أخرى مثل: آيازما (1173 هـ/1760 م) لالَلِي (1176 هـ/1763 م) في استنبول؛ جيهانوغلو في آيدن (1169 هـ/1756 م)، قره وزير في غولشهر (1192 هـ/1779 م)، تشابانوغلو في يوزقات (1208 هـ/1794 م)، خضر بيك في سوما (1206 هـ/1791–1792م) في الأناضول، تمثِّل فنّا معماريًا من طراز الباروك متأثراً بالغرب.

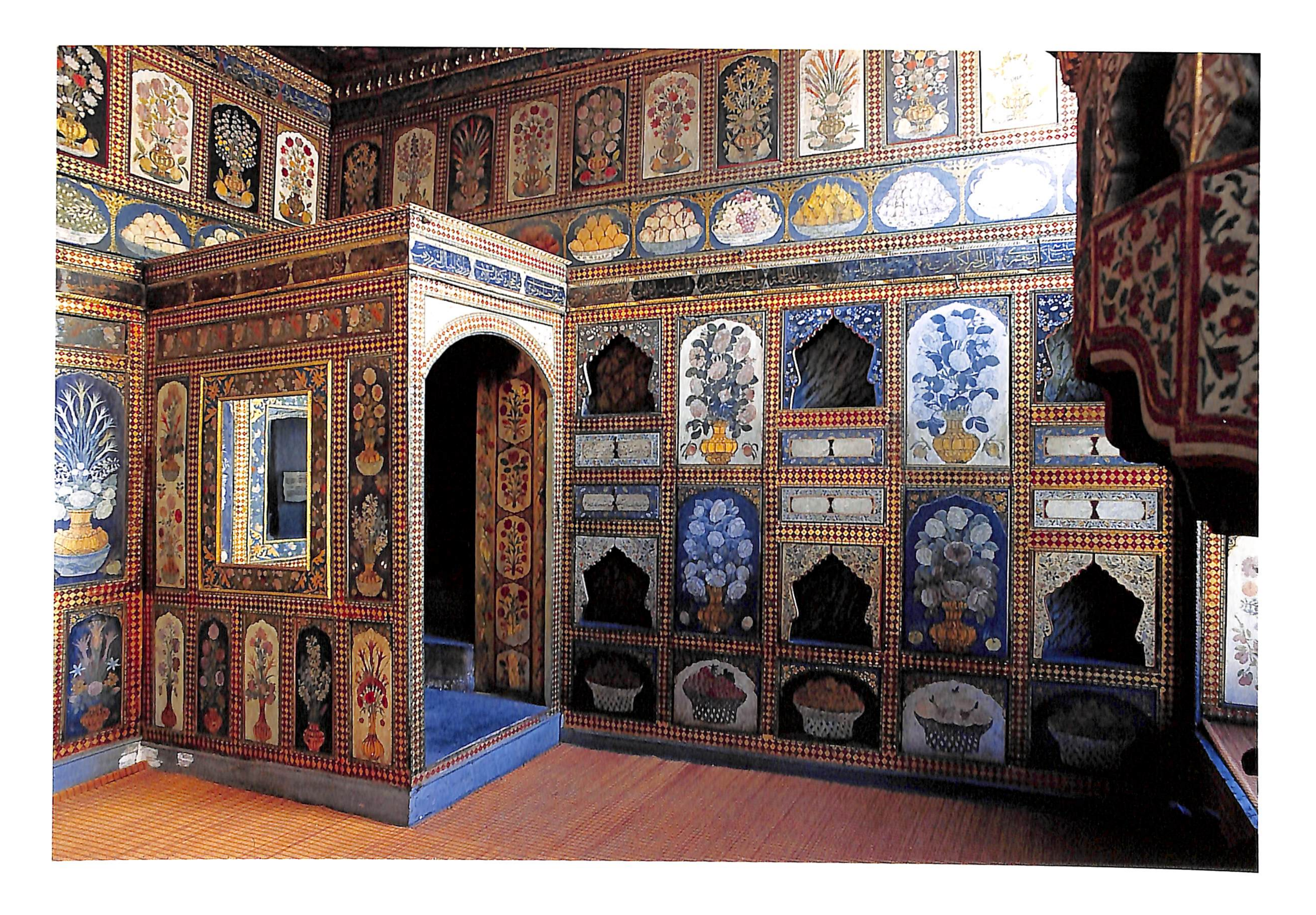
لم يصبح الطراز الأوربي ذا تأثير في الأقاليم، إلا في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي. أما قبل ذلك فإن السمات المحلية والعثمانية كانت تتضافر لخلق أسلوب استثنائي الجاذبية، ولاسيما في المساكن الخاصة، حيث مازالت تضفي على مدينتي حلب ودمشق القديمتين طابعهما الخاص.

لعل أبهى هذه البيوت، أو المساكن، هو قصر العظم بدمشق، وقد شيد عام 1163 هـ/1749 م، مسكنًا لوالي دمشق أسعد باشا العظم وعائلته. بُني المنزل على النمط المحلي بفناءين اثنين، زُينت واجهاتهما الداخلية الزخارف الحجرية المنزلة بالمعجون الملونة، التي كانت كثيرة الرواج في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي.

وتعبيرًا عن الحنين إلى أيام عزِّ السلطنة الغابرة، جرى اتخاذ بعض الخطوات الإصلاحية. بدأت الإصلاحات أواخر القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، وأوائل القرن الثالث عشر

غرفة فواكه أحمد الثالث، في حرملك القصر

عثماني (1117 هـ/1705 م)
قصر توب قابي
استانبول، تركيا



الهجري / التاسع عشر الميلادي. وكانت بقيادة سلاطين متعاطفين مثل سليم الثالث (الذي دام حكمه من عام 1203 إلى 1221 هـ/من 1789 إلى 1807 م). ومحمود الثاني (الذي دام حكمه من عام 1222 إلى 1254هـ/من 1808 إلى 1839 م)؛ وقد تمخضت هذه الحركة عن برنامج إصلاحات. عُرف باسم مرسوم أو فرمان التنظيمات الصادر عام 1254 هـ/ 1839 م.

وحركات الإصلاح الخارجة من رحم العلاقات الحميمة مع أوربا. ما لبثت أن عَبَّرَت عن نفسها من خلال الفن والعمارة. وصولاً إلى تفكيك الأشكال والصيغ التقليدية. والتغييرات الحاصلة في إدارة الدولة. كما في حياة المجتمع بالذات. ما فتئت أن تمخضت عن أنماط بناء جديدة. تجلّتْ في مباني محطات القطارات. مكاتب البريد. المصارف. المسارح. المتاحف. مراكز الأعمال (الأسواق التجارية). كما في كل من الثكنات العسكرية. الوزارات والمدارس. التي صُممت. شيدت وزُيِّنَتْ وفقًا للطراز الغربي.

وخلال هذه الفترة تتجلى تأثيرات الطرازين الإمبراطوري والكلاسيكي الجديد. جنبًا إلى جنب مع كل من طرازي الروكوكو. والباروك. وجملة هذه الأساليب كانت تُستخدم أحيانًا بطريقةٍ انتقائية. ثمة مبانٍ مثل: النصرتية (1241 هـ/1826 م). دولمة باختشه (1270 هـ/ 1854 م). وجامعي أورتاكوي (1271 هـ/1855 م) وآقساراي بيرتفنيال والدة سلطان (1287 هـ/1871 م) في استنبول. هي أمثلة معروفة جيدًا تبرز السمات العامة للمرحلة.

أما جوامع باشتشاو وشوغلو (1215 هـ/1801 م) في يوزقات. إلياس آغا (1226 هـ/ 1812 م) في سوكه. تشفْتَجايْلار (1281 هـ/1865 م) في قِرْق آغاتش. والحاج ضياء بيك (1312 هـ/1895 م) في سوكه. فيمكن عدها من أمثلة الطراز نفسه في ربوع الأناضول.

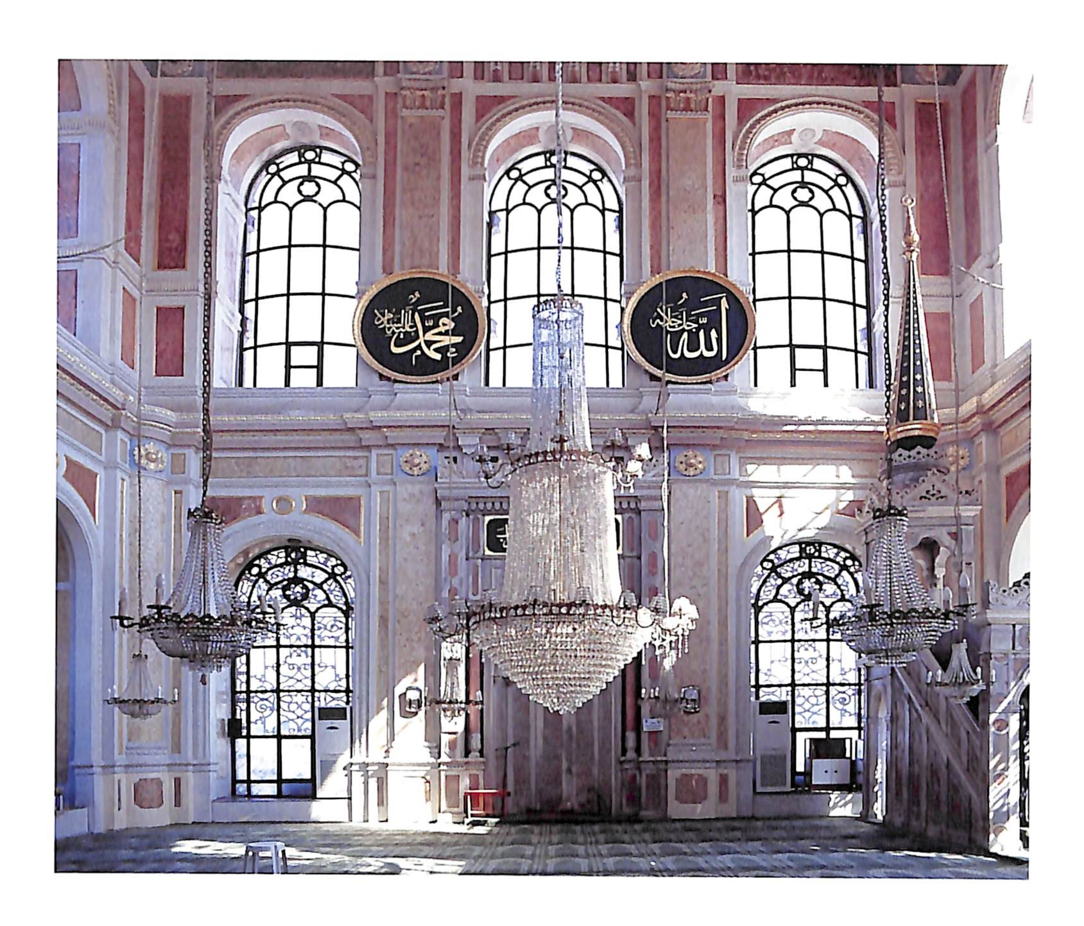
ليست القصور المبنية حديثًا. مثل الدولمة باخشته (1270 هـ/1854 م) الذي انتقلت إليه العائلة الملكية تاركة قصور توب قابي. يلدز. وبيلر بيي. إلا أمثلة قليلة مؤكدة لذهنية «الطراز الانتقائي» كما اعتُمد في استنبول.

إضافةً إلى الهندسة المعمارية المحلية. فإن تحسينات طارئة على الحياة التجارية أثرت في الحياة المادية. مفضية. مثلاً. إلى إقامة سفارات دائمة. إضافة إلى أن انبهار أوربا بالشرق. أدى إلى تشذيب الآراء المسبقة عن نمط الحياة العثماني. وشجع على امتلاك وعي بحياة فكرية متجاوزة لحدود الإمبراطورية الموشكة على الانهيار.



نافورة وسبيل أحمد الثالث

عثماني (1141 هـ/1729 م)
استانبول. تركيا



مسجد أورتا كوي
مشهد داخلي
عثماني (1270 هـ/1853 م)
استانبول، تركيا



غطاء أداة فلكية
مُزيَّن وفق ذوق مرحلته.
عثماني (1151 هـ/1738 م)
متحف الفنون التركية والعثمانية
استانبول، تركيا

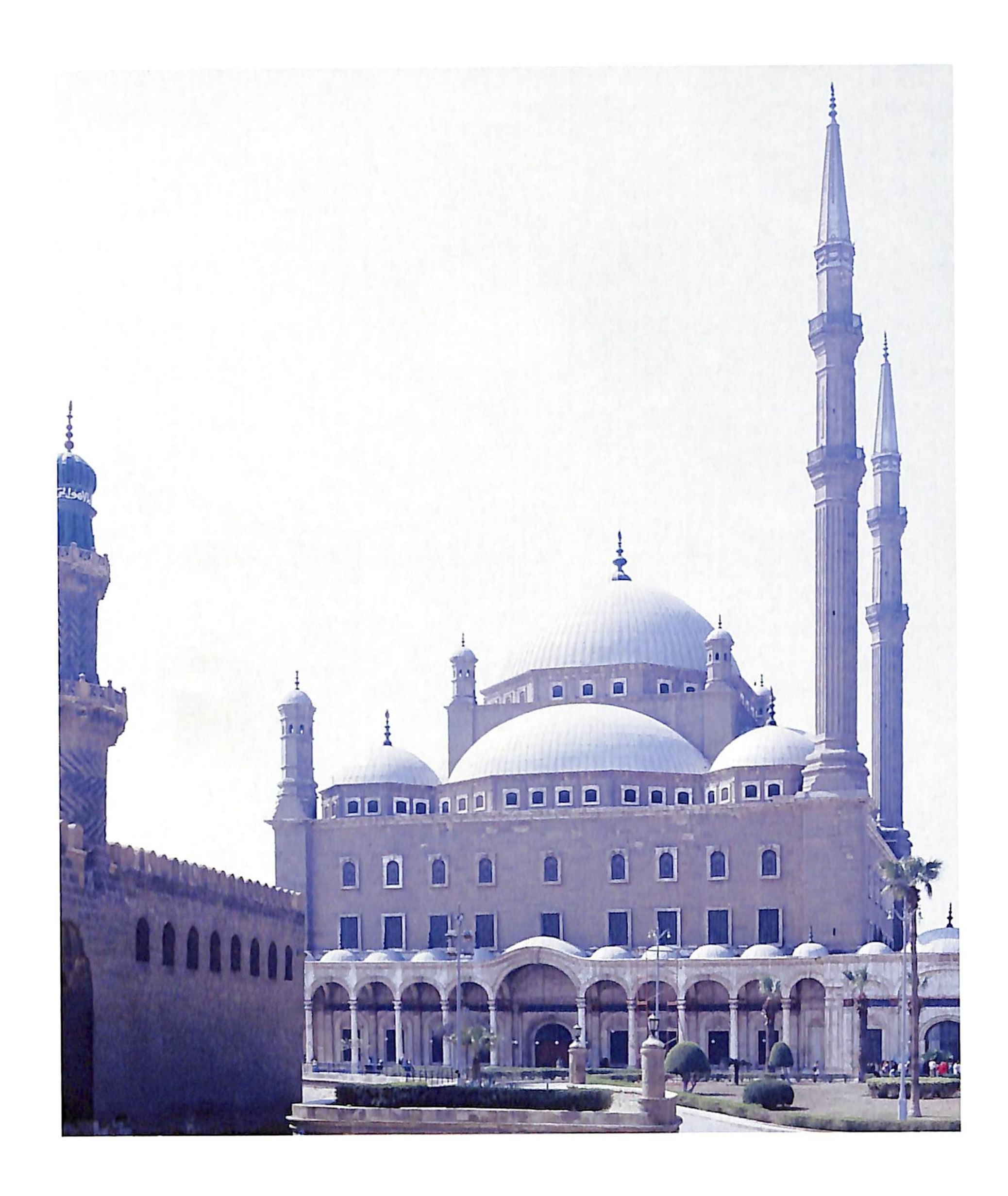
جاءت فترة التنظيمات (الممتدة من عام 1254 إلى 1325 هـ/من 1839 إلى 1908 م) بإدارةٍ أكثر تشددًا وحزمًا، عملت على اختزال المسافة بين العاصمة والأقاليم. تمخَّض الأمر عن انتشار التأثير الأوروبي، مما ولّد حركة ملموسة، ليس فقط على صعيد العمارة، بل وفي مجال تخطيط المدن.

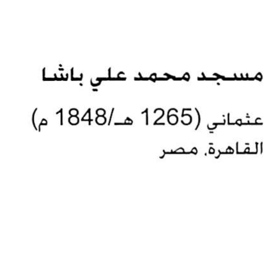
صارت الزخارف في البيوت الأرستقراطية وفق طراز «الباروك - العثماني» البهي مشتملاً على منحوتات رخامية مذهَّبة بأشكال بديعة. وأواخر القرن الثالث عشر الهجري/القرن التاسع عشر الميلادي أدت الإنجازات التكنولوجية لعصر الصناعة، إلى ظهور الزوارق البخارية العابرة للبوسفور، بل وصارت حتى الطائرات موضوعات للوحات الجدارية المزيِّنة لغرف استقبال البيوت الأكبر. وبالمثل فإن مركز مدينة دمشق، وهي إحدى المدن الرئيسية في الأقاليم، جرى نقله إلى خارج أسوار المدينة القروسطية، وتم إيجاد مركز مديني جديد تمامًا، بشوارع رئيسية، ساحة تتوسطها البلدية، مقاهٍ، سينما، وفنادق، على الطريقة الأوربية، حول ساحة المرجة.

بادر عبد الحميد الثاني (الذي دام حكمه من عام 1292 إلى 1326 هـ/من 876 إلى 1909 م) إلى تجديد منطقة الأسواق التقليدية، المؤلفة من أزقة ضيقة، وبنى بدلاً منها شريانًا رئيسيًا عملاقًا للتسوُّق مستلهمًا من معارض التسوق في ميلانو، وبروكسل، وباريس.

أما في القاهرة، فإن جامع محمد علي باشا (وقد حكم من عام 1220 إلى 1265 هـ/من 1805 إلى 1848 م) هو الوحيد الذي يرقى إلى مستوى بهاء الجوامع في العاصمة استنبول، بداخله الرخامي المذهَّب الفاخر المزخرف، وفق طراز الباروك. لا غرابة، لأن مصر نالت نوعًا من الاستقلال عن استنبول في ظل محمد علي باشا، الذي نجح ليس فقط في إرساء قاعدة اقتصادية عبر اعتماد صناعات حديثة، قائمة على التكنولوجيا والخبرة الأوروبيتين، بل وفي تأمين مكانة مصر المرموقة في المنطقة عن طريق إصلاح القوات العسكرية.

شكَّل استقلال مصر دليلاً مؤكدًا على تدهور أحوال السلطنة، على الرغم من جملة





مسجد محمد علي باشا

عثماني (1265 هـ/1848 م)
القاهرة، مصر

مشروعات البناء الكبيرة، التي أقدم على إنجازها آخر سلاطين بني عثمان. فالصراع بين دعاة الإصلاح والمفكرين المتزمتين دينيًا تمخض عن السيادة المطلقة للسلطان.

وعلى الرغم من أن السلطان عبد الحميد الثاني اضطر لإعلان النظام الملكي الدستوري مرتين (1292–1294 هـ/1876–1878 م، 1326–1340 هـ/1908–1922 م)، فإن الوضع البائس الذي وجدت السلطنة نفسها فيه، بات حتى أسوأ خلال فترة حكم محمد رشاد (الذي حكم بين عامي 1909 و 1918 م).

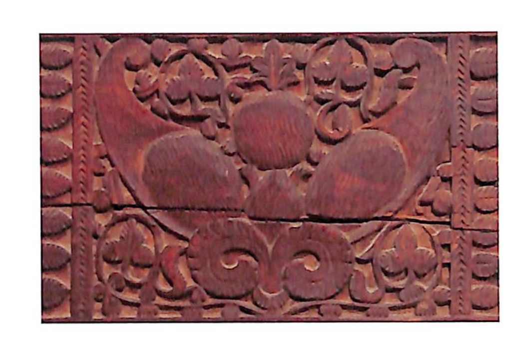
ومع إنهاء وجود هذه السلطنة، حين كان السلطان الأخير محمد السادس (وحيد الدين الذي حكم من عام 1918 إلى 1922)، على العرش، جاءت نهاية التاريخ الذي دام 622 عامًا للإمبراطورية العثمانية أخيراً، وخرجت جمهورية تركية فتية، من رماد ذلك التاريخ.

صور عاكسة للفردوس: الزخارف النباتية في الفن الإسلامي

مشترك



الجامع الأموي
فسيفساء (تفصيل)
أموي (87–96 هـ/706–715 م)
دمشق، سورية



لوح خشبي (تفصيل)

عباسي (القرن الـ 3 هـ/القرن الـ 9 م)
متحف الفن الإسلامي
القاهرة، مصر

لوح مزخرف

فاطمي (القرن الـ 6 هـ/12 م)
متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية
برلين، ألمانيا

على امتداد تاريخ الحضارة الإسلامية، ظل مفهوم "البستان" منطويًا على أهمية خاصة. من المؤكد أن هذا عائد، في جزء منه، إلى المساحات القاحلة التي عاشت فيها أكثرية المسلمين، حيث كانت الخضرة المهدئة لمجمَّع الواحة، أو الحديقة الطارئة، المُصان بقلق عبر إدارة مائية خاضعة لقدر صارم من التحكم، ترفًا لا يستطيع تسديد ثمنه سوى النخبة. وأولئك الذين كانوا متوفرين على ما يكفي من الامتيازات للتنعم براحة حديقة مزدهرة وظليلة، كانوا يستمتعون ليس بمباهجها المادية وحسب، بل وبذكريات الصور القرآنية النابضة بالحياة للفردوس الإسلامي، الجنة، في الوقت نفسه.

يتردد صدى الأهمية المركزية لجنَّة المسلمين وعشقهم للبساتين الأرضية في الولع بالزخارف النباتية في سياق الفن الإسلامي، سواء في لوحات فسيفسائية وأشكال معمارية أخرى للزخرفة، أو في فنون الزينة.

تبقى التمثيلات الحرفية لجنة الفردوس نادرة. لعل أحد الأمثلة الشهيرة هو المسلسل الفسيفسائي المدهش داخل الجامع الأموي الكبير، العائد إلى القرن الثامن الميلادي في دمشق. ثمة تصريح لأحد فناني الفسيفساء باق ليؤكد الأهمية الرمزية للمسلسل: «في اللوحات الفسيفسائية جسّدنا ما وجدناه في القرآن من أشجار وقصور في الفردوس. وحين كان أي عامل

مسجد ديفريغي الكبير ومستشفاه
زخرف البوابة الشمالية والمعروفة أيضًا باسم «بوابة الباروك» (تفصيل)

أمارة منغوجلكي (626 هـ/1228–1229 م)
ديفريغي، سيواز، تركيا



قطعة زخرفة جدارية

رستمي من سيدراتا (296–497 هـ/ 909–1074 م)
متحف الآثار القديمة والفنون الإسلامية الوطني
الجزائر العاصمة، الجزائر

ينجز شجرة بأسلوب استثنائي الحُسْن والجمال. كان الخليفة الوليد يكافئه بثلاثين درهمًا».

وثمة إشارة مثيرة أخرى إلى جنة الفردوس تتكرر بعد قرون في السقف الذي يشرّف إحدى غرف قصر توب قابي في إستانبول. تمثلت طريقة أخرى من طريق التذكير بالفردوس فنيًا بتصوير مداخل مقنطرة زاخرة بالورود. قام بعض المعلقين بتفسيرها على أنها إشارات إلى سرادقات زهور معاصرة. فيما شبهها آخرون بالأروقة المقنطرة التي يستطيع المؤمنون من خلالها أن يلقوا نظرة على البستان المراوغ والعائد إلى العالم الآخر.

أسلوبيًا، من شأن هذه الصورة أن تعيدنا بالذاكرة إلى الترجمات الفنية الهلينية، ما قبل الإسلامية لنبع الحياة. كانت الأشجار المثقلة بالثمار توفر موضوعًا شعبيًا آخر يجري اعتماده صدى لمفاهيم شجرة الحياة الخالدة. كانت لشجرة النخيل التي خُلقت من الصلصال المتبقي بعد خلق الله لآدم، حسب إحدى الروايات، مكانة خاصة. ثمة سِير دينية أخرى، تقول إن محمدًا النبي كان يقرن شجرة النخيل بالفردوس.

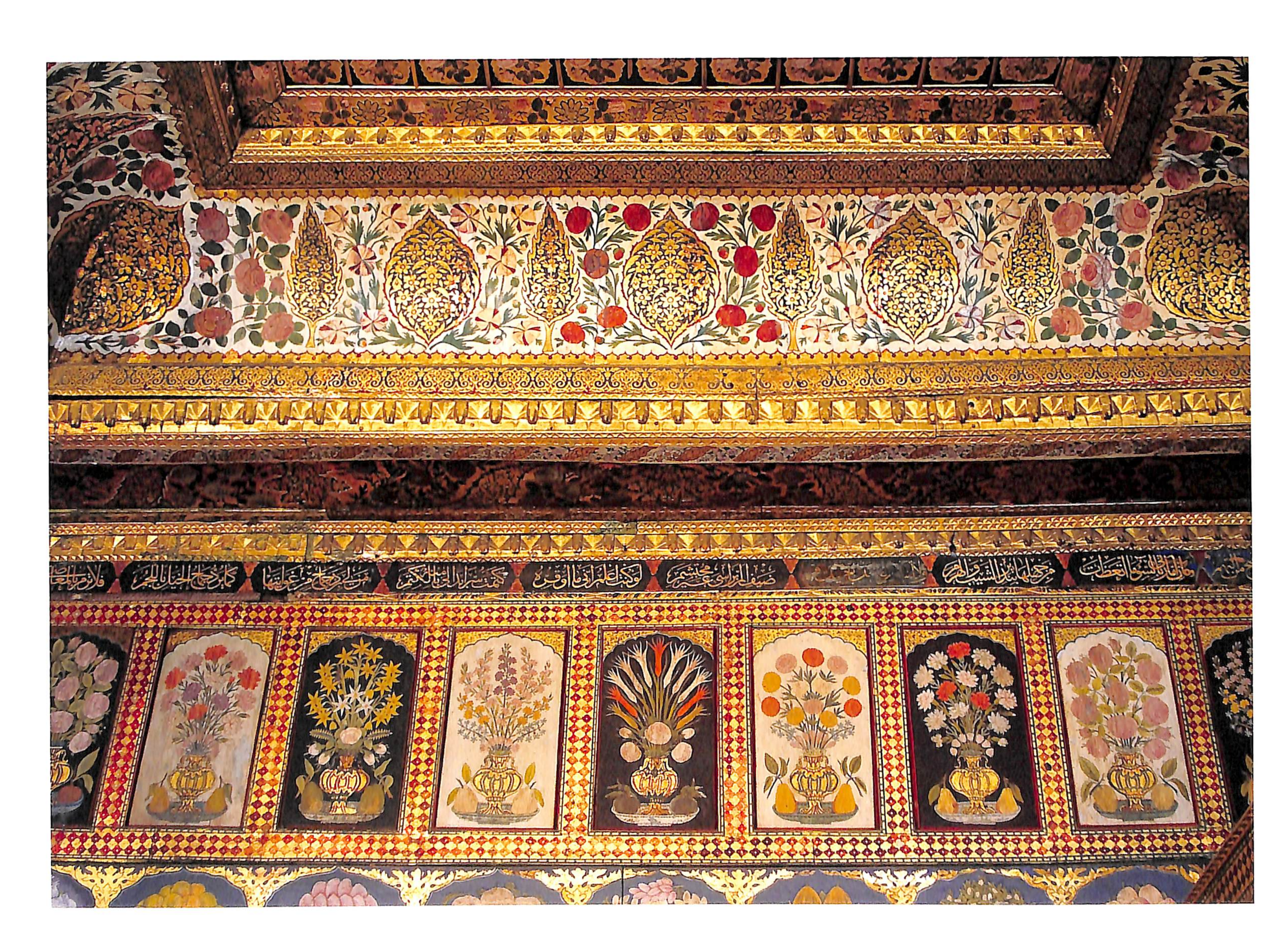
كذلك تتكرر أزهار ونباتات منفردة، مزروعة بعناية في الأراضي الإسلامية، في صيغ فنية. وقد جرى اختيار عدد كبير منها لا لمواصفاتها البستانية وحسب، بل ومن أجل رمزيتها الدينية أو الشاعرية. كان الورد متمتعًا بأفضلية خاصة. وهو، حسب السيرة الإسلامية الشعبية، نتاج حبة من عرق النبي المبذول خلال رحلته الليلية العجائبية إلى الفردوس. ويرمز الورد كذلك

الصفحة المقابلة
تطريز

عثماني (القرن الـ 11 هـ/17 م)
مجموعة بوريل، متاحف غلاسكو
غلاسكو، المملكة المتحدة

غرفة فواكه أحمد الثالث، في حرملك القصر

عثماني (1117 هـ/1705 م)
قصر توب قابي
استانبول، تركيا





إلى وحدانية الله، وتُويجه إلى الأمة أو الجماعة الإسلامية. تمثل زهرٌ آخر ذو شعبية، ولاسيما في تركيا العثمانية، بالزنبق. دأب العثمانيون على استزراعه بقدر كبير من الحماسة وثمة ألف صنف وصنف منه كانت معروفة. وبصلات الزنبق كان يتم الاتجار بها بكثير من الاهتمام، وقد وصلت إلى أوربا في أوقات مبكرة، تعود إلى القرن العاشر الهجري/القرن السادس عشر الميلادي، حيث حَفَزَتْ على عصر جديد من الزراعة، ولاسيما في هولندا. وجمال الزنبق كان يُحتفل به أيضًا في الشعر الديني، حيث شُبه بشهيد العقيدة وبالعاشق الصوفي الناكر للذات.

لم تكن سائر الأزهار والنباتات الواردة في الأعمال الفنية الإسلامية ذات جذور ممتدة في العالم الإسلامي. فالكرمة المثقلة بوفرة من عناقيد العنب تمثل إحدى بقايا العصور الهلينية، في حين كان اللوتس، وهو رمز شرقي للطهر الروحي، من إسهامات المغول في القرن السابع الهجري/القرن الثالث عشر الميلادي بالمخزون الإسلامي.

وحين لا يتم تصوير الأزهار بأشكالها الطبيعية، فإنها ترد في ترتيبات خيالية هادفة إلى إبراز وجه مبنى أو أثر فني أو طمسه في الحقيقة. إلا أن مثل هذه الخطط النباتية كانت تتيح للعقول الروحانية فرصة تأمل التعقيد اللامتناهي للكون مع وحدانية خالقه، الله، بوصفه المنبع.

لا شك أن الأرابسك هو البديل الشعبي والمميز للتوليفات النباتية الإسلامية. ومتشكِّل من حشد من السوق، واللفائف، والأوراق، والغصينات المتوالدة والمتطورة إلى ترتيب تناظري لا

مصباح مسجد

مملوكي (750–761 هـ/1350–1360 م)

المتحف البريطاني

لندن، المملكة المتحدة





صحن بزخارف نباتية

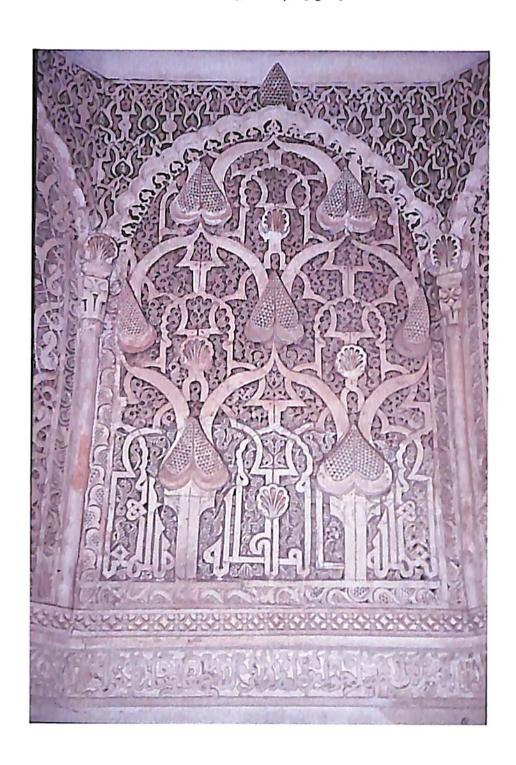
عثماني (القرن الـ 10–11 هـ/16–17 م)

المتحف الوطني للفن الشرقي

روما، إيطاليا

لوحة خزفية

حسيني (القرن الـ12–13 هـ/18–19 م)
متحف الآثار القديمة والمتوسطية والشرق
أوسطية
ستوكهولم، السويد



مدرسة ابن يوسف

زخارف جصية تغطي الجدران الداخلية
(تفصيل)
سعدي (972 هـ/1565 م)
مراكش، المغرب



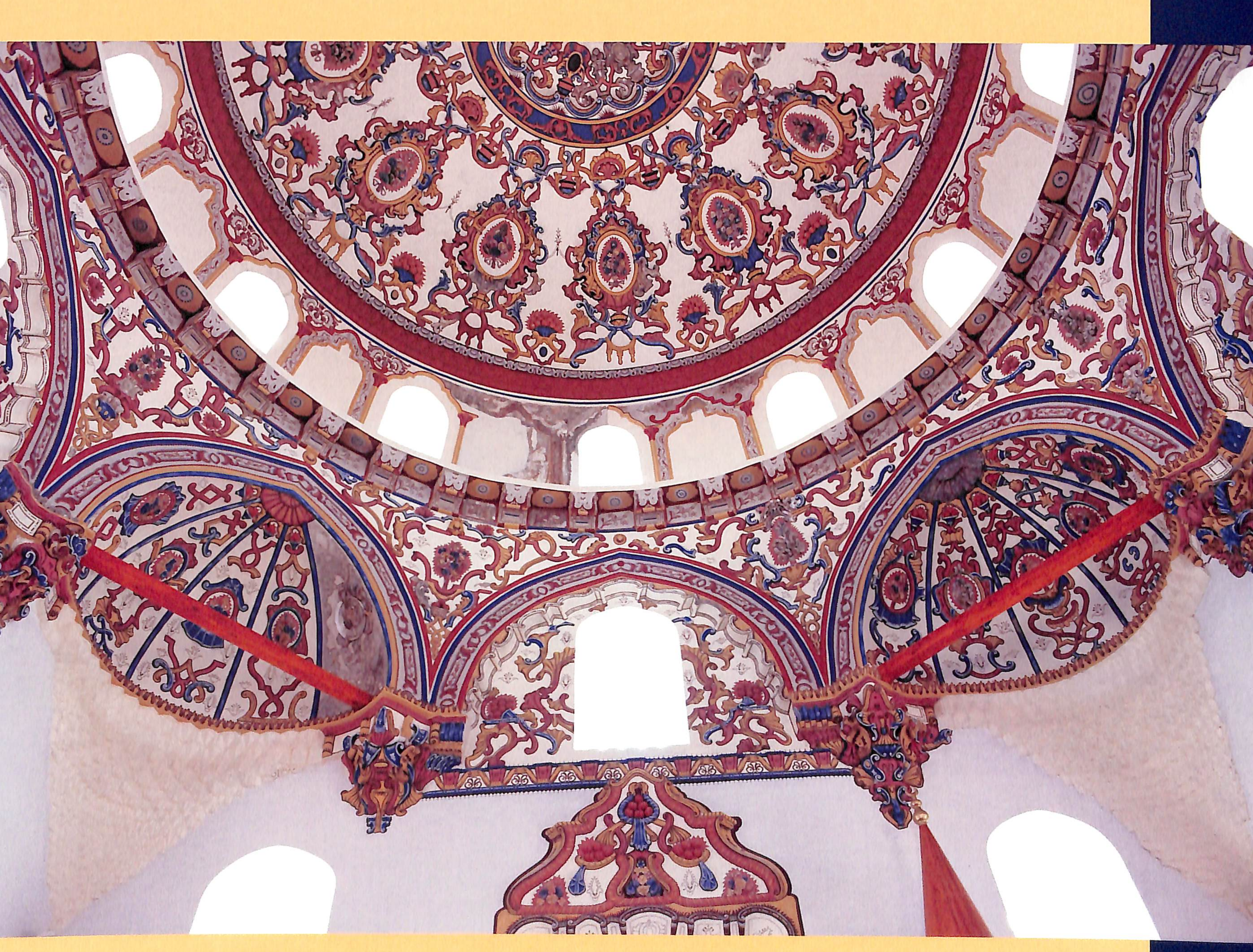
زخرفة جصية منحوتة

أموي (النصف الأول من القرن الـ 2 هـ/
النصف الأول من القرن الـ 8 م)
متحف التراث الأردني، جامعة اليرموك
إربد، الأردن

نهائي. أصبح الأرابسك بجميع تنوعاته اللامتناهية ذا شعبية في القرن الخامس الهجري/القرن الحادي عشر الميلادي. إن قابليته للتكيف وسرعة تقلبه يجعلانه على نحو طبيعي مناسبٍ لزخرفة الآثار الفنية وتزيين الصروح المعمارية، على حد سواء، مع حفزه على تأمل سائر أشكال ترابط وتساند كون الله.

تأثيرات الغرب في بلاد آل عثمان

ميمت قاهيا أوغلو، وباولا توري



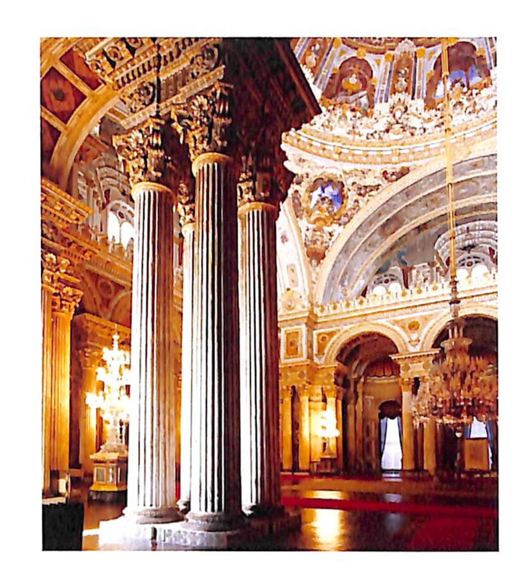
مسجد جهان أوغلو

عثماني (1170 هـ/1756 م)
آيدن، تركيا

تأثيرات الغرب في بلاد آل عثمان

قصر دولمة باختشة (حديقة الردم)
قاعة الاحتفالات والمراسم

عثماني (1259–1273 هـ/1843–1856 م)
استانبول، تركيا

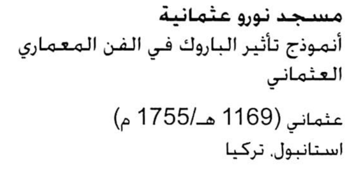


تتميز حقبة الفن العثماني التي بدأت بالفترة المعروفة باسم عصر الزنبق (الممتد من عام 1131 إلى 1143 هـ/1718–1730 م)، ودامت حتى العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، بالتأثير الغربي القوي في الأساليب الفنية الناجمة عن العلاقة التجارية، السياسية، والثقافية المكثفة، التي نشأت بين السلطنة العثمانية والغرب. ففي أعقاب إخفاق حصار فيينا الثاني في عام 1280 هـ/1683 م، بدأ التوازن السياسي بين العثمانيين والغرب يتغير ويميل تدريجيًا لصالح الطرف الثاني.

لم يقتصر الأمر على قيام علاقات اقتصادية ودبلوماسية أكثر زخمًا، بل تجاوزه إلى التمهيد لانبثاق أذواق فنية جديدة، وصولاً، مع حلول القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، إلى تعرض الفن العثماني لعملية «اجتياح» مظاهر الباروك والروكوكو، متبوعة، في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، بالأساليب الكلاسيكية الجديدة، الإمبراطورية والاستشراقية، أو المشرقية.

جرى في هذه الفترة إبدال تدريجي في أساليب الهندسة المعمارية الدينية الفخمة، والعائدة إلى الحقبة العثمانية الكلاسيكية، بمبانٍ وصروح ذوات أحجام أكثر تواضعًا. بات الاهتمام أكثر تركزًا على الزخرفة، مع تشكيل زخارف الباروك والروكوكو الهندسية المميزة حشدًا غزيرًا من الموضوعات الملتوية، المتموجة.

شكلت المقاربة الطبيعة للزخرفة، التي تجلَّت في الزخرفة بالأزهار، أحد العناصر الواضحة للأسلوب الجديد في المقام الأول. وقد كان هذا طرازًا زخرفيًا أصبح فيه عالم الورود الفني، بحد ذاته، عنصر إلهام.



مسجد نورو عثمانية
أنموذج تأثير الباروك في الفن المعماري العثماني

عثماني (1169 هـ/1755 م)
استانبول، تركيا



وفي عالم هندسة العمارة، دأب المخزون الزخرفي، القائم على توظيف التناقض بين الخطوط الأفقية ونظيرتها العمودية، وبين الضوء والظل، على التمخض عن نتائج أصيلة.

صار الفن العثماني التقليدي مشبعًا بحشد من المفردات الزخرفية المتضمنة استحداث أوراق الاقنثيا ومنحيات حرفي C وS اللاتينيين. كان جامع نوروعثمانية في استانبول (الذي أنجز بناؤه في عام 1169 هـ/1756 م)، أقوى شواهد الحقبة الثقافية الجديدة، بباحته دون بحرة، بمحرابه المضلع البارز من الجسم الرئيسي للمسجد، وبعناصره الزخرفية المتداخلة.

ما لبث الذوق الجديد أن انتقل إلى أقاليم الأناضول، من خلال عائلات إقطاعية كبيرة وقوية مثل آل جيهان أوغلو، وقرة عثمان أوغلو. فجامع جيهان أوغلو في آيدن (في عام 1169 هـ/ 1756 م)، أنموذج صارخ لعصره من حيث تشكيلية زخارفه، وتأثيراتها الإيهامية.

ثمة جامع آخر ابتنته العائلة نفسها في قرية جنجن (التابعة لآيدن) جدير بالذكر، ولاسيما بسبب محرابه كثير الشبه بمذبح سان لورنزو لغواريني في تورين (1090 هـ/1679 م). مع صيرورة لوحات المشاهد الطبيعية على الجدران ذات شعبية واسعة في هندسة العمارة المدنية، بل وفي بعض المساجد، مثل تلك الموجودة في جامع خضر بيك بسوما (1206 هـ/ 1791–1792 م)، والذي يمكن أيضًا اعتباره شاهدًا على الانتقال من التزيينات التقليدية، إلى فن الرسم ذي الطراز الغربي، جرى إكساب عدد من المساجد العائدة إلى فترات أبكر حللاً

مسجد خضر بيك

عثماني (1206 هـ/1791–1792 م)

سوما، تركيا





مسجد محمد علي باشا
الميضأة في باحته

عثماني (1264 هـ/1848 م)
القاهرة، مصر

قصر بيلربي
تشتمل الواجهات على أقواس ونوافذ من الطرازين الإغريقي والروماني، في حين يبقى الداخل كثيف التزيين برسوم عثمانية وشرقية تقليدية

عثماني (1281 هـ/ 1865م)
استانبول، تركيا

جديدة، من خلال عمليات ترميم وتجديد نُفذت من منطلق «الذوق الجديد» في القرن التاسع عشر الميلادي. ومن الشواهد على ذلك جامعا كمرآلتي وحصار بمدينة أزمير.

لقد انعكس الأسلوب الغربي الجديد بطرق مختلفة في طول المساحات الشاسعة للإمبراطورية العثمانية وعرضها، كما في جامع محمد علي باشا في القاهرة 1264 هـ/ 1848 م. وفي بلدان المغرب التي كانت خاضعة للحكم العثماني، وإنْ مع التمتع بقدرٍ كبير من الاستقلال، كانت التأثيرات الفنية ناجمة عن الاتصال المباشر مع أوربا، من ناحية، ومتأتية من الإطلاع على المنتجات البديعة المصنوعة في استانبول، من ناحية أخرى.

إن موضوع المزهرية، ذات الألوان الزاهية، وفيها باقة ورود محاطة بحشد من الأوراق، أو الأغصان المضفورة، هو زخرفة شائعة. يمكن أن نراها على سلسلة متنوعة من المنتجات، مثل المنسوجات، السجاجيد، وأشياء أخرى، مستخدمة في السياق الديني، كما في أشياء يومية.

ثمة مثالان بديعان للنزوع الجديد إلى اعتماد قطع الورود، يمكن أن نراهما في منسوجات حريرية مطرزة، حيث يعرض الأول مزهرية زينة كبيرة ملأى بالورود، والثاني مزين بمحراب وزخارف ورود طبيعية. ثمة أيضًا أيقونة ثلاثية، تبين مدى توغل التأثيرات الغربية في عمق الفن العثماني



أسفل
قماش

عثماني (القرن الـ 13 هـ/19 م)
المتحف الوطني للفن المشرقي
روما، إيطاليا



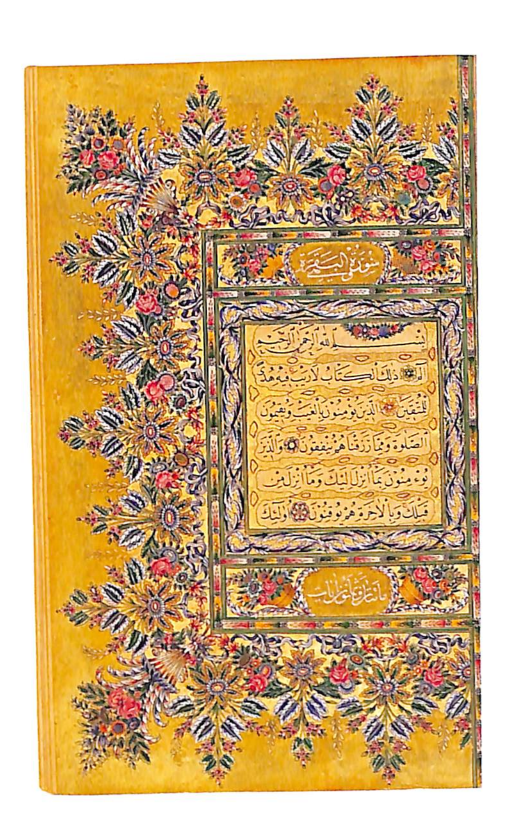
يمين
قماش
مزين بمحراب

عثماني (القرن الـ12–13 هـ/18–19 م)
المتحف الوطني للفن المشرقي
روما، إيطاليا

لوحة ثلاثية عليها سيرة النبي (الحلية الشريفة)

هذه الثلاثيات موضوع تقديس واحترام، جراء الإيمان بقوة النص على الحماية.

عثماني (القرن الـ 12 هـ/18 م)
المتحف الوطني للفن المشرقي
روما، إيطاليا



قرآن

عثماني (1259 هـ/1843 م)
متحف الفنون التركية والإسلامية
استانبول، تركيا

على نطاق واسع. فلدى غلق جناحيها يمكن إرجاع الأيقونة بسهولة إلى أي بيئة أوربية، جراء زخرفة الورد النموذجية ذات الطراز الغربي، إلا أن من شأن فتح الجناحين أن يكشف عن مشهد أنموذجي لفن ديني عثماني زاخر بالكتابات المنقوشة.

يشي الفن العثماني، في هذه الفترة، بقدرةٍ عظيمة على إعادة صياغة جملة العناصر الثقافية والفنية، وإذابتها في بوتقته، وصولاً إلى نتائج بالغة الأصالة.

ثبت المصطلحات

أتابك: مرتبة عسكرية. المصطلح تركي الأصل. يعني القائد الكبير. طوَّر الأتابكة فنون القتال.

الأندلس: الاسم الذي كان يُطلق على شبه الجزيرة الإيبيرية. عندما كانت تحت السيطرة الإسلامية. التي استمرت قرابة ثمانية قرون. فيما بين عامي 92–897 هـ/711–1492 م. وشبه الجزيرة الإيبيرية تضم حاليًّا كلًّا من إسبانيا والبرتغال.

أرابيسك: مجموعة من الزخارف النباتية والهندسية. المجدولة والمضفورة. المتكرِّرة بشكل لا نهائي. طوَّر المسلمون الأرابيسك حتى غدا سمة لزخارفهم.

الإسراء والمعراج: الإسراء هي الرحلة المعجزة التي قام بها الرسول من مكة إلى المسجد الأقصى في القدس. ليلاً. حيث التقى الانبياء ممن سبقوه. وصلَّى بهم. أما المعراج فهي رحلة الرسول الصاعدة إلى السماء ووصل إلى سدرة المنتهى عند العرش الإلهي.

اسطرلاب: أداة لقياس المسافات بين الأرض والنجوم.

الأقصى: وهي تسمية من المسجد الأقصى. في القدس. وهو عند المسلمين أولى القبلتين. ولقد تحوَّل عنه المسلمون في صلواتهم نحو الكعبة. في مكة. بعد رحلة الإسراء والمعراج.

إفريقيا: التسمية التي كان يطلقها المسلمون على شمال إفريقيا. وغالبًا ما كانوا يقصدون بها منطقة تونس الحالية.

أمير: قائد عسكري كبير. أو حاكم سياسي إداري لولاية.

إمام: وهو من يقود المسلمين في صلواتهم. كما تعني الشيخ المُعلِّم. أو الزعيم الروحي. لتقواه وحكمته. كما يمكن أن يطلق لقب إمام. أحيانًا. على زعيم سياسي.

إيوان: ركن في بيت أو قصر. ميِّزته أنه دون الجدار الرابع. بحيث يطل على باحة أو ساحة البيت أو القصر.

احتلال: احتلال شبه الجزيرة الليبيرية (إسبانيا والبرتغال) من قبل المسيحيين حيث استولوا عليها من المسلمين . والذي سبب حالة من الفوضى ووضع حدًا لثمانية قرون من حكم العرب لها.

بني أو بنو: بمعنى أولاد تستخدم لتشير إلى مجموعة من الناس تنتمي إلى عشيرة أو قبيلة معينة. وصيغة المفرد منها ابن

باروك: حركة فنية أوروبية برزت في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي. أثَّرت في الفن الإسلامي خلال العهد العثماني.

بلاد الشام: تُسمى أيضًا «المشرق العربي». أو «سورية الكبرى». وتضم حاليًّا كلًّا من سورية. والأردن. ولبنان. وفلسطين.

بيمارستان: مشفى. أو مصحة. كانت تقدِّم الخدمات الصحية للمرضى بالمجّان. وتلعب دور المركز التعليمي العلمي. كما هي أمكنة استجمام للاستشفاء.

جاهلية: الفترة التاريخية التي سبقت ظهور الإسلام. حيث كان العرب في شبه الجزيرة يعبدون الأصنام.

جهاد: من أجل نشر الدين. وإعلاء كلمة الله. خاض المسلمون مسيرة كفاح طويلة. ضد المشركين. كما قاتلوا ضد المنشقين على السلطة المركزية.

خان: أمكنة خدمة. وإقامة مؤقتة. أو استراحة. على طرق الحج أو التجارة أو السفر. حيث كان يأوي الناس وأموالهم وأمتعتهم بأمان. لينالوا قسطًا من الراحة.

خانقاه: دار متعددة الأغراض. تؤوي المساكين والدراويش. وأصحاب الطرق الصوفية. تقدم لهم ما يحتاجونه من طعام وكساء ومسكن.

خزف ذو بريق معدني: أحد أنواع الخزف المزجَّج. يتمُّ الحصول عليه بطريقة معقدة، حيث يتم تعريض أواني الخزف للشيِّ مع بعض أوكسيدات المعادن، مما يمنح أواني الخزف بريقًا مميزًا. ولقد تمَّ تطوير هذه التقنية منذ العصور الإسلامية المبكرة.

خطبة: الموعظة الأسبوعية التي يلقيها الإمام أو الخطيب، قبيل صلاة الظهر من كل يوم جمعة.

خليفة: القائد الأعلى في الدولة الإسلامية. والخليفة هو من كان يخلف الرسول في قيادة المسلمين.

رباط: أمكنة حصينة، كان يقيم فيها مقاتلون عاملون، وكان ينزل فيها المسافرون على طريق الحج من المغرب العربي، عبر مصر وفلسطين وسوريا.

زليج: أنبوب صغير فخاري وزجاجي.

روكوكو: طراز فني أوروبي، ظهر بعد الباروك، في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، ويتميز بضخامة الزخارف، والمبالغة في التزيينات. كان له تأثير واضح في العمارة العثمانية.

سبيل: بناء مُخصَّص لتقديم الماء للشرب مجانًا.

سلطان: القائد الأعلى والمطلق في ولاية أو مقاطعة إسلامية، وغالباً ما كان يحكم دون أن يؤثِّر على المكانة الاعتبارية للخليفة.

سنّة: طائفة المسلمين ممن يتَّبعون (يقلِّدون) سنَّة الرسول والقرآن، ويعترفون بشرعية كافة الخلفاء.

سوق: مركز المدينة المسلمة، مركز الحياة الحضرية

شريف (سيّد): لقب يطلق على كل من ينحدر من سلالة الرسول محمد، عبر ابنته فاطمة. تمتع الأشراف (السادة) بمكانة دينية مميزة، دائمًا، وسياسية أحيانًا.

شيعة: طائفة من المسلمين، يعتقدون بحق علي بن أبي طالب بالخلافة بعد وفاة الرسول، ومن ثم لم يقرُّوا بشرعية الخلفاء بعد مقتل علي عام 40 هـ/661 م.

طائفة: جماعة، أو فرقة، أو حزب. ولقد ظهرت ممالك الطوائف في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، بسبب انقسام الدولة الاسلامية في الأندلس إلى جماعات وفرق وأحزاب.

فرنجة: التسمية التي أطلقها العرب على الصليبيين.

قبط (الأقباط): المسيحيون المصريون، الذين سكنوا مصر قبل الإسلام. كان لهم ثقافتهم، ولغتهم القبطية، وتقويمهم الخاص.

قلعة: بناء حصين، يستخدم لأغراض دفاعية، يتمتع بالأسوار العالية المنيعة، والأبراج، وكوات رمي السهام.

قبلة: اتجاه الكعبة، حيث يتوجَّه المسلمون في صلواتهم.

قبة: عنصر معماري، نصف كروي، أو بيضوي، يعلو الأبنية الدينية، كالمساجد، أو الأضرحة.

قرآن: الكتاب المقدس لدى المسلمين، نزل وحيًا عبر الملاك جبريل إلى الرسول محمد، باللغة العربية.

قصبة: لفظة شائعة في المغرب العربي، وتدل على المدينة، أو مركزها الحصين، حيث يقيم القادة.

قوطي: الطراز الفني في أوروبا الشمالية وإسبانيا، في الفترة من القرن السادس الهجري وحتى العاشر الهجري/الثاني عشر الميلادي، حتى القرن السادس عشر الميلادي. انتقل إلى العالم الإسلامي عبر الفرنجة.

هجرة: رحيل الرسول من مكة إلى المدينة، متخفِّيًا، وذلك في العام 622 م.

هجري: التقويم الذي اعتمده المسلمون اعتبارًا من السنة التي هاجر فيها الرسول. السنة الهجرية تتألف من اثني عشر شهرًا قمريًا، أي 354 يومًا.

كعبة: البيت العتيق، الذي رفع قوائمه النبي إبراهيم، وابنه إسماعيل. وتُعتبر قبلة العالم الإسلامي.

كوفي: نسبة إلى مدينة الكوفة، في العراق. ويُقصد بالكوفي أحد أنماط الخط العربي المبكرة.

مدرسة: المباني المعدة من أجل التعليم الديني (تفسير القرآن، الحديث النبوي، الفقه، القانون). غالبًا ما يُلحق بالمدرسة أماكن لإقامة الطلاب. المهدي: قائد ديني شديد التقوى، يرقى إلى مستوى المرشد، أو المخلِّص.

محراب: تجويف في جدار القبلة في المسجد، يدل المصلّين على اتجاه الكعبة في مكة. وأحيانًا يدلّ على مكان المحراب قوس، أو زخارف مميزة، في قاعة الصلاة.

مقرنص: زخارف معمارية، مكونة من نوازل تشبه خلايا النحل، ميَّزت فن الزخرفة المعمارية الإسلامية. ولقد استخدمت لتزيين السطوح الخارجية، والقباب، والمداخل.

ملك: صاحب الشرعية المطلقة في الحكم والإدارة.

مُلك: صيغة الاسم بمعني المُلك و المملكة، وعادة ما ينقش على الزخارف و المخطوطات لتزين المواد الفاخرة التي تعود إلى الملوك و السلاطين.

منبر: مكان مرتفع في قاعة الصلاة، من خشب أو رخام، يرتقي إليه الإمام أو الخطيب لإلقاء خطبة يوم الجمعة.

نسخي: أحد أكثر أنواع الخطوط العربية انتشارًا، بسبب سهولة إتقانه وليونته. استخدم في الكتابة والمراسلات.

وقْف: عقارات أو ممتلكات أو مبانٍ منتجة، يتحوَّل ريعها لصالح صيانة هذه الممتلكات، وتطويرها، ولصالح الخدمة العامة.

وزير: منصب رفيع، يُمنح لكبار رجال الإدارة، ويصبحون رأس العمل في مجالهم.



مراجع للاستزادة

ابن عبد الحكم. فتوح إفريقيا والأندلس. بيروت 1987.

أشك. بحرية. النساء الحاكمات في التأريخ. مطبعة السعدون. بغداد.

بول. ستانلي لين. طبقات سلاطين الإسلام. مطبعة البصري. بغداد 1986.

تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي. شفاء الغرام بأخبار بلاد الحرام. مكة المكرمة/القاهرة 1956.

زكي محمد حسن. فنون الإسلام. القاهرة 1948.

السعيد سليمان. أحمد. مع معجم الأسر الحاكمة. دار المعارف. القاهرة. 1972.

سهيل زكار. حطين: مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس. دمشق 1984–1959.

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون. المقدمة و كتاب العبر. بيروت 1956–1959.

الفن المملوكي: روعة وسحر السلاطين. (عدة مؤلفين). إصدار متحف بلا حدود.

القلقشندي. أحمد. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهر 1913. الجزء الثالث.

Amine, A., Boutaleb, B., Brignon, J., Martinet, G., Terrasse, M., *Histoire du Maroc,* Paris 1990.

Arseven, E.C., *Les arts décoratifs turc,* Istanbul 1952.

Atıl, E., *Renaissance of Islam, Art of the Mamluks,* Washington DC 1981.

Atıl, E., *Turkish Art of the Ottoman Period,* Washington 1973.

Baer, E., *The Human Figure in Islamic Art: Inheritances and Islamic Transformations,* Costa Mesa 2004.

Behrens-Abouseif, D., *Islamic Architecture in Cairo.* An Introduction, Cairo 1996.

Bosworth, C. E., *The New Islamic Dynasties,* New York: Columbia University Press 1996.

Bowersock, G. W., Brown, P., Grabar, O., *Interpreting Late Antiquity,* Cambridge Mass. 2001.

Cahen, C., *Orient et Occident au Temps des Croisades,* Paris 1983.

Delpont, E., *L'Orient de Saladin: L'art des Ayyoubides,* Paris 2001.

Early Ottoman Art, The Legacy of the Emirates, (MWNF–Turkey, Islamic Art in the Meditererranean), 2002.

Ettinghausen, R. & Grabar, O., *The Art and Architecture of Islam,* 650-1250, New York and Harmondsworth 1987; paperback edition, New Haven Conn. and London 1992.

Gautier, E.F., *l'islamisation de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs du Maghreb,* Paris: Payot 1927.

Gautier, E.F., *Le passé de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs,* Paris: Payot 1937.

Golvin, L., *Essai sur l'architecture musulmane,* 4 tomes, Paris: éditions Klincksieck 1974-1979.

Grabar, O., *The Formation of Islamic Art,* New Haven and London 1973; repr. 1988.

Hillenbrand, C., *The Crusades – Islamic perspectives,* Edinburgh: Edinburgh University Press 1999.

Hillenbrand, R., *Islamic Architecture: Form, Function and Meaning,* Edinburgh 1994.

Hitti, P.K., *History of the Arabs,* 10th ed. New York: St. Martin's Press 1970.

Hodgson, M.G.S., *The Venture of Islam.* Vol. 1. *The Classical Age of Islam,* Chicago: University of Chicago Press 1974.

Hourani, A., *A History of the Arab Peoples.* Cambridge Mass.: Belknap Press of Harvard University Press 1991.

Idris, H.R., *L'Occident musulman (Ifriqiya et al-Andalus) à l'avènement des Abbasides, d'après le chroniqueur Ziride al-Raqiq,* REI 39, 2, 1971, 109–191.

Islamic Art, The David Collection, Copenhagen 1990.

Kennedy, H., *The Prophet and the Age of the Caliphates: The Islamic Near East from the 6th to the 11th Century,* 2nd ed. London and New York: Longman 2004.

Krautheimer, R., *The Christian Capitals: Topography and Politics,* Berkeley 1983.

Le Maroc Andalou, À la découverte d'un Art de Vivre (MWNF-Maroc, Islamic Art in the Mediterranean), Aix en Provence-Casablanca 2000.

Lehrmann, *J., Earthly Paradise: Garden and Courtyard in Islam,* London 1980.

Levi-Provençal, E., *Histoire de l'Espagne musulmane,* 3 vol, Paris-Leyden: Brill 1950-1953.

Levi-Provençal, E., *Un nouveau récit de la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes,* 1954.

Long, D., *The Hajj Today: A Survey of the Contemporary Pilgrimage to Mekka,* Albany: State University Press of New York 1979.

Marcais, G., L'architecture musulmane d'occident, Paris 1954.

Marçais, G., *L'art musulman,* PUF, Paris 1962.

Mernissi, Fatima, *Sultanes oubliées, Femmes chefs d'Etat en Islam,* Albin Michel 1990.

Museum of Turkish and Islamic Art, Istanbul 2002.

Nasr, S. H., *Sacred Art in Persian Culture,* Leiden 1971.

Peters, F.E., *The Hajj. The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy Places,* Princeton: Princeton University Press 1994.

Rogers, J.M., *Innovation and continuity in Islamic urbanism,* in I. Sarageldin and S. el-Sadek (eds.), *The Arab city: its character and Islamic cultural heritage,* Medina (Arab Urban Development Institute) 1982, 53-9.

Salameh, Kh., *The Qur'an Manuscripts in the al-Haram al-Sharif Islamic Museum,* London 2001, 22-30.

Scerrato, U., Arte islamica in Italia, in F. Gabrielli, U. Scerrato, *Gli Arabi in Italia,* Milano, 1979, 279-571.

Schimmel, A., *Calligraphy and Islamic Culture,* New York: New York University Press 1984.

Siculo-Norman Art. Islamic Culture in Medieval Sicily (MWNF-Italy, Islamic Art in the Mediterranean), 2004.

Taylor, R., *Ottoman Embroidery,* London 1993.

Terrasse, H., *L'art hispano-mauresque des origines au XIIIè siècle, Paris:* éditions G. Van Oest 1932.

Terrasse, H., *Les arts décoratifs du Maroc,* éd. H. Laurens, Paris 1925.

The Umayyads. The Rise of Islamic Art (MWNF-Jordan, Islamic Art in the Mediterranean), 2000.

مؤلفو المقالات

إتّوري سيستا (باليرمو، إيطاليا): تخرَّج من جامعة باليرمو، بعد دراسة هندسة العمارة، سنة 1981، حيث يقوم الآن بتدريس تاريخ العمارة، وتاريخ الحدائق، والمشهد. ظل باحثًا في التاريخ والعمارة، بمعهد باليرمو لهندسة العمارة منذ 1985 م، حتى أصبح مساعد أستاذ في 2003م. وقد نشر ما يزيد على مئة مقالة، مع بعض الكتب عن العمارة الصقلية (القروسطية، والباروك المتأخر، والكلاسيكية الجديدة، والانتقائية، والحداثية، وعشرينيات القرن العشرين، وثلاثينيات القرن العشرين،) كما شارك في تنسيق عدد من المعارض.

اميلي شوفلتون (لندن، المملكة المتحدة): خبيرة تاريخ فن إسلامي مستقلة. في السنوات الأخيرة عملت على عدد من المشروعات، في المتحف البريطاني. هي الآن عاكفة على استكمال أطروحة الدكتوراه، حول الرسم الهندي الإسلامي، بمعهد الدراسات الشرقية والإفريقية، في جامعة لندن.

إنجي قويولو ارصوي (أزمير، تركيا): تخرَّجت في جامعة أنقرة، كلية الآداب، بعد دراسة تاريخ الفن. وحصلت على شهادتي الماجستير والدكتوراه، من الجامعة نفسها. تعمل أستاذة جامعية، وتتولَّى رئاسة كل من «فرع الفنون المغربية، والمعاصرة، بقسم تاريخ الفن، وقسم تاريخ الفن التركي، في معهد الدراسات العالمية التركية، جامعة إيجه، تركيا. وقد نشرت بحوثًا مختلفة، وتتابع الفن والعمارة التركيين الإسلاميين.

إنجي قويولو ارصوي (أزمير، تركيا): تخرَّجت في جامعة أنقرة، كلية الآداب، بعد دراسة تاريخ الفن. وحصلت على شهادتي الماجستير والدكتوراه، من الجامعة نفسها. تعمل أستاذة جامعية، وتتولَّى رئاسة كل من فرع الفنون الغربية، والمعاصرة، بقسم تاريخ الفن، وقسم تاريخ الفن التركي، في معهد الدراسات العالمية التركية، جامعة إيجه، تركيا. وقد نشرت بحوثًا مختلفة، وتتابع الفن والعمارة التركيين الإسلاميين.

أولريكه الخميس (أدنبره، المملكة المتحدة): أمينة أولى للشرق الأوسط وجنوب آسيا في متاحف سكوتلندا القومية. مقيمة في أدنبره منذ 1999، بدأت حياتها الأكاديمية في ألمانيا، قبل الحصول على الإجازة BA (بدرجة شرف أولى)، في الفنون والآثار الإسلامية بمعهد الدراسات الشرقية والإفريقية، في لندن عام 1987، وفي 1994 أنجزت رسالة الدكتوراه بجامعة أدنبره. وبين عامي 1994 و1999 شغلت منصب أمينة الفن والثقافة الإسلاميين بمتحف غلاسكو. وفي 1997، ساهمت في إقامة المهرجان السكوتلندي الأول للفن والثقافة الإسلاميين، SALAAM.

إيفا شوبرت (روما، إيطاليا؛ بروكسل، بلجيكا): إنها المُبادرة إلى المشروع المُعرَّف باسم «متحف بلا حدود» (MWNF)، ومؤسِّسته، وهي الآن رئيسة المشروع، ومديرته التنفيذية. بعد دراسة التمثيل، والإخراج المسرحي، في فيينا، حيث وُلدت في عام 1957، بدأت حياتها العملية مُنظِّمة مناسبات ثقافية دولية. ما لبثت سلسلة من المشروعات الثنائية، في مختلف ميادين الفن والثقافة، أن أفضت إلى ضالتها المنشودة: تصميم وإدارة مشروعات متعددة الثقافات، ذات شحنة سياسية قوية.

باري وود (استانبول، تركيا): مؤرِّخ فن، درس تاريخ الفن، والعمارة، بجامعتي جونز هوبكنز وهارفارد، حيث تخصَّص بالفن الإسلامي. وقد قام بتدريس الفن الإسلامي في الجامعة المتوسطية الشرقية، فاماغوستا، ومعهد الدراسات الشرقية والإفريقية، لندن، ومعهد كورتلاود للفن، لندن. إنه أمين متاحف ذو خبرة أيضًا، إذ سبق له أن عمل في متاحف الفن في جامعة هارفارد، ومتحف ولترز للفن، بلتيمور، ومتحف فكتور وألبرت، لندن. وقد نشر جملة كتابات حول موضوعات متأرجحة فيما بين الرسم الفارسي وتاريخ المعارض.

باولا توري (روما، إيطاليا): رئيسة قسم الفن والآثار الإسلاميين، ومكتب التعليم في متحف غوسيبي نوتشي الوطني للفنون الشرقية، في روما، وبوصفها خريجة فن وعمارة إسلاميين، قامت بالتدريس في المعهد الجامعي الشرقي (الجامعة للدراسات الشرقية، الآن) بنابولي، لسنوات عديدة، ونشرت عددًا من أعمالها.

بوسعد وادي (الجزائر العاصمة، الجزائر): سوسيولوجي متدرِّب، ناشر، وبائع كتب، وقد ساهم في عدد من الأعمال حول الأدب، والفن، والتاريخ، في الجزائر، المتعلِّقة، في المقام الأول، بفن نحت الصخور في الصحراء الجزائرية، والتعبير الثقافي البربري في المغرب.

بيير باولو راتشيوبي (روما، إيطاليا): حصل على الدكتوراه في التاريخ، والمحافظة على الفن المعماري، من جامعة روما الثالثة. عمل في موسوعة الأعلام الإيطاليين (موسوعة تريكاني). وهو خبير في الفنون، والعلوم الأثارية، للقرن الثامن عشر الميلادي. حرر الطبعة الإيطالية لمجموعة الفن الإسلامي في حوض المتوسط، في «متحف بلا حدود» (MWNF). يدرّس فن النهضة بمعهد التعليم الدولي للطلاب (LUISS)، روما.

جميلة بينوس (تونس العاصمة، تونس): مخططة، معها إجازة في التاريخ والجغرافيا من جامعتي تونس وتور. كانت باحثة أولاً، ومديرة بعد ذلك، في رابطة الحفاظ على مدينة تونس. شاركت في العديد من المؤتمرات الدولية، وكتبت عدداً من المقالات والكتب عن أوابد مدينة تونس.

خضر سلامة (القدس): كان مديرًا للمتحف الإسلامي بمكتبة الأقصى، في القدس، مدة زادت عن عقدين من الزمن. ومن قبل كان موظفًا في مكتبة الجامعة العبرية، وعمل أمين مكتبة في السعودية، ومدرّساً في ليبيا. هو الآن مرشح للدكتوراه في التاريخ العثماني. حصل على شهادة أمين مكتبة عام 1986، من الجامعة العبرية. أما إجازته الأولى الـ BA فحصل عليها من جامعة بيروت سنة 1980. قام بتصنيف مجموعات المخطوطات الموجودة في الحرم الشريف، تلك المجموعات التي نُشرت في ستة أجزاء، في عدد من البلدان. تشمل أعماله المنشورة العديد من المقالات، حول موضوعات مختلفة.

زينة تقي الدين (دمشق، سورية): باحثة في التاريخ العربي والفن الإسلامي. حصلت على إجازتها الـ BA من الجامعة الأمريكية، في بيروت، وعلى الماجستير في الفن والآثار، من معهد الدراسات الشرقية والإفريقية، في لندن، كما على دبلوم خبيرة آثار قديمة، من مؤسسة سوثَبي اللندنية. مجالات اهتمامها تشمل تطوُّر الكتابة العربية، والفن والمعمار الإسلاميين المبكرين، والزخرف والرسم العربيين، والتفاعل الثقافي بين الحضارتين الإسلامية والغربية، ومنهجية ما بعد الاستعمار، في دراسة التاريخ والهوية.

سانتياغو ماثياس (ميرتولا، البرتغال): حاصل على الدكتوراه في التاريخ، من جامعة لوميير الثانية، في ليون، ويعمل باحثاً في معسكر ميرتولا الأثري، ومحررًا لمجلة أركيولوجيا ميديفال (آثار القرون الوسطى). كان المنسق العلمي لمعرضي «البرتغال الإسلامية» (لشبونه، 1998) و"البرتغال المغرب" (طنجة، 1999)؛ شارك كلاوديو توريز في تأليف: التراث الإسلامي في البرتغال.

شوله آقصوي (استانبول، تركيا): مؤرخة فنون، ونائبة مدير متحف الفنون التركية والإسلامية في استانبول. تخرجت في قسم التاريخ، وتاريخ الفنون في كلية الآداب، جامعة استانبول 1970. ظلت تعمل في متحف الفنون التركية والإسلامية في استانبول منذ 1967، خبيرة أولاً، ورئيسة قسم المخطوطات بعد ذلك حتى 2003، حيث أصبحت نائبة مدير. شاركت في العديد من المشروعات والمعارض التي نظمها المتحف، وهي مؤلفة كتابات مختلفة.

شيلا كانبي (لندن، المملكة المتحدة): اختصاصية تاريخ فنون، وأمينة مسؤولة عن الفنون والآثار الإسلامية، في المتحف البريطاني. حصلت على شهادتي الماجستير والدكتوراه، من جامعة هارفارد. وبعد أن عملت في عدد من المتاحف الأمريكية، التحقت بالعمل في المتحف البريطاني، في 1991. نظمت معارض للفن الإسلامي، وكتبت وحررت عدداً من الكتب المختلفة، وهي في المتحف البريطاني. في العام 2005–2006 الدراسي، درّست بمعهد الدراسات الشرقية والإفريقية، جامعة لندن.

عائشة بن عابد (تونس العاصمة، تونس): رئيسة بحوث في معهد التراث القومي التونسي والأثارية، المسؤولة عن إدارة عدد من المواقع القديمة في تونس. أشرفت على العديد من المعارض الدولية للتراث التونسي، ونشرت العديد من الكتب والمقالات عن الآثار القديمة ولاسيما: الخزفيات، والعمارة المنزلية، وعمارة المدافن، والعمارة المسيحية.

عبد الرزاق معاذ (دمشق، سورية:) اختصاصي تاريخ العمارة الإسلامية، درس التاريخ في جامعة دمشق، سورية، وحصل على الدكتوراه في تاريخ الفن الإسلامي والآثار في آين بروفانس، باريس. درّس في جامعات سورية، وفرنسا، والولايات المتحدة الأمريكية، بما فيها جامعة هارفارد. كان مديرًا عامّا للآثار والمتاحف في سورية، وهو الآن معاون لوزير الثقافة. ألّف العديد من المنشورات عن التاريخ، والفن، وفن العمارة الإسلامي، باللغات العربية، والفرنسية، والإنجليزية.

غازي بيشه (عمان، الأردن): كان مديرًا عامّا لقسم الآثار القديمة الأردني 1988–1991 و 1995–1999. دَرَس الآثار في جامعة الأردن، وتاريخ الفن الإسلامي بجامعة ميتشيغان، آن آربور، حيث حصل على الدكتوراه. ارتبط بقسم الآثار القديمة الأردني، خلال الجزء الأكبر من الفترة الممتدة بين عامي 1980 و 1999. كان أيضًا أستاذًا مساعدًا لمادة الآثار في جامعة اليرموك، أوائل التسعينيات. إنه مؤلف للعديد من المنشورات، وقد نفذ أعمالاً حفرية في الأردن، وخارجه. يشغل منصب نائب مدير المجلس الدولي للمتحف عن البلدان العربية.

غاسبار آراندا (مدريد، إسبانيا): يحمل إجازة في التاريخ، وماجستير في الدراسات المتحفية، وهو عضو في فريق بحوث بكرسي انطونيو فيرنانديز - بويرتاس، للفن الإسلامي في جامعة غرناطة، سبق له أن عمل مع قسم الآثار القروسطية في متحف الآثار القومي بمدريد، وله عدد من الأعمال المنشورة عن الفن الناصري.

غونزالو م. بوراس غواليس (سرقسطة، إسبانيا): أستاذ تاريخ الفن بجامعة سرقسطة، ومدير معهد الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية بالجعفرية، سرقسطة، مجال بحثه الرئيسي هو فن المدجّنين، وقد نسق عدداً من برامج البحث لصالح منظمتي اليونسكو، و«متحف بلا حدود» (MWNF) ميدانيّا.

فريدة بنويس (الجزائر العاصمة، الجزائر): تحمل إجازة في التاريخ من جامعة الجزائر، ودرّست مادتي التاريخ والجغرافيا في معهد ديكارت بمدينة الجزائر، نشرت عددًا من الكتب المدرسية المقررة، وهي الآن أمينة عامة لرابطة الحفاظ على التراث المعماري في الجزائر وحمايته.

فيرنا دايبر (برلين، ألمانيا): مرشحة دكتوراه في الفنون والآثار الإسلامية، جامعة بامبرغ، تعمل في معهد الآثار الألماني (DAI) بدمشق، منذ 2002، وتتابع كتابة رسالتها للدكتوراه عن تاريخ البناء في دمشق العثمانية، دَرَست الآثار والأدب العربي في جامعة برلين، وحصلت على الماجستير، عن أطروحة حول الخزفيات الأيوبية والمملوكية في حلب، من مؤلفاتها المنشورة، دراسة عن الخزفيات الإسلامية في بعلبك، ومجلدين عن أعمال التنقيب في الرقة، وبوصفها مترجمة ذات خبرة (الألمانية، والعربية)، تولّت تنظيم التنسيق التحريري لترجمة منشورات (DAI)، ومتحف بلا حدود (MWNF)، إلى العربية.

كلاوس بيتر هاسه (برلين، ألمانيا): مدير متحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية، في برلين، أستاذ شرف في جامعة برلين المفتوحة، ومدير عمليات التنقيب في الموقع الإسلامي المبكر مدينة الفار (حصن مسلمة بسورية)، وقد نشر عن الفن والثقافة الإسلامية المبكرين، وفن العمارة التيموري في آسيا الوسطى، والفن العثماني الكلاسيكي، وهو عاكف الآن على إعداد فهرسة مخطوطات وخطوط عربية، وفارسية، وعثمانية.

كمال الأخضر (الرباط، المغرب): لغوي، وسوسيولوجي، أنجز دراسات تاريخية مستقلة عن تاريخ الموحّدين، ومدينة الرباط، إنه مستشار دبلوماسي، على علاقة بعدد من الوزراء، وقد قام أيضًا بتطوير مواهبه في مجالي الصحافة، والرسم، شارك في نشر دراسة عن المغرب الأندلسي، لمتحف بلا حدود (MWNF).

محمد الأسد (عمان، الأردن): مهندس معماري، واختصاصي تاريخ عمارة، ومدير مركز البيئة المبنية في عمان، درس هندسة العمارة في جامعة ايلينوي بأوربا ناشامبين، وتاريخ العمارة في جامعة هارفارد، شغل مناصب لمستوى ما بعد الدكتوراه في جامعة هارفارد، ومعهد الدراسة المتقدمة، برنستون، درّس في جامعتي الأردن وبرنستون ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، بين جامعات ومؤسسات أخرى، نشر عن هندسة العمارة في العالم الإسلامي في عدد من الكتب والمجلات الأكاديمية والمتخصصة.

محمد عباس سليم (القاهرة، مصر): مدير عام متحف الفن الإسلامي، ومتحف النسيج المصري (قيد الإعداد)، القاهرة، تخرج في كلية الآثار، جامعة القاهرة عام 1974، ويحمل شهادة ماجستير من الجامعة نفسها، (1995) شارك في تأليف البيان الأول لمؤسسة آبغ ABEGG (عن النسيج)، وبيان كنوز الفن الإسلامي في متاحف القاهرة، الذي نشرته الجامعة الأمريكية بالقاهرة، كتب أيضًا عددًا غير قليل من المقالات لسلسلة من الدوريات والمجلات المتخصصة باللغتين العربية والإنجليزية.

محمد مَزّين (فاس، المغرب): مؤرخ، ودكتور فلسفة، حائز على جائزة العلوم الإنسانية والاجتماعية في المغرب، رئيس بحوث من مركز التدريب والبحث، المعروف باسم «المدينة العربية الإسلامية»، وعضو في مركز الامتياز القومي للتراث القومي، ألَّف عددًا من الكتب والمقالات عن تاريخ المغرب.

محمد نجار (عمان، الأردن): آثاري، وباحث ميداني، ورئيس رابطة أصدقاء الآثار الأردنية، درس الآثار في موسكو 1972–1978 م، وأنجز الدكتوراه في تاريخ الفن والآثار في 1981 م، بمعهد الآثار وأكاديمية العلوم، في موسكو، بين عامي 1982 و1988 م، كان أمينًا لمتحف الآثار الأردني بعمَّان، حاليًا يتولّى رئاسة التنقيبات والمسوح الأثرية، في قسم الآثار القديمة الأردني، نشر عن الآثار الأردنية، في عدد من الكتب والمجلات الأكاديمية والمتخصصة.

منيرة شابوتو – رمادي (تونس العاصمة، تونس): مدرسة، وأستاذة جامعية، دكتورة في الفلسفة، متخصصة في التاريخ الوسيط للشرق الأدنى، خلال الفترة المملوكية، محاضرة بجامعة تونس، ومديرة مجلة دفاتر تونسية، نشرت عددًا من الدراسات عن الشرق الأدنى، خلال الحقبة المملوكية، وعن المغرب في القرون الأخيرة من العصور الوسطى.

مونيكا ريوس (برشلونة، إسبانيا): أستاذة الدراسات العربية في جامعة برشلونة. حصلت على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية، من جامعة برشلونة عام 1999، بإطروحة عن تطور المساجد في الغرب المسلم، الأندلس والمغرب الأقصى، خلال العصور الوسطى. عملت على تحقيق عدد من الفهارس، لصالح معهد العالم العربي، ومؤسسة ليغادو. كما نشرت بانتظام في عدد من المجلات المتخصصة، ورأست تحرير بعضها. هي أمينة الجمعية الإسبانية للدراسات العربية، والجمعية الكاتالونية لتاريخ العلوم والفنون.

ميمت قاهيا أوغلو (بروكسل، بلجيكا): حصل على الإجازة (BA)، والماجستير من قسم تاريخ الفن في كلية الآداب، بجامعة إيجه (ازمير، تركيا) حاضر في تاريخ الفن، والأَيْقَنة، وعلم الأساطير، في كلية الفنون الجميلة، بجامعة التاسع من أيلول الأزميرية. هو عاكف الآن على التحضير للدكتوراه بجامعة إيجه، مركّزًا على موانئ غرب الأناضول، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

نظمي الجعبة (القدس): آثاري، ومؤرخ، وأحد مدراء الرواق RIWAQ، مركز الحفاظ على الآثار في رام الله، فلسطين. دَرَس في جامعتي بير زيت بفلسطين، وتوبنغن بألمانيا. درَّس في جامعتي بير زيت والقدس. كان مديرًا للمتحف الإسلامي، الحرم الشريف، القدس، وأدار عددًا من مشروعات التراث الثقافي المختلفة في فلسطين، بما فيها مسوح لمواقع أثرية ومعمارية. كان مساهمًا رئيسيًا في الحج، علوم التصوف: الفن الإسلامي في الضفة الغربية وغزة (فيينا: MWNF 2004)، ومنشورات أخرى.

نعيمة الخطيب بوجيبار (الدار البيضاء، المغرب): آثارية، مؤرخة فنون، وعضوة مؤسسات علمية دولية. درست في السوربون، معهد اللوفر، ومعهد الاثنوغرافيا بنيو شاتيل. شغلت عددًا من مناصب المسؤولية في قطاع التراث الثقافي المغربي. درَّست في المعهد القومي لعلوم الآثار والتراث (INSAP). وتولت إدارة إحدى الحفريات الأثرية. شاركت في العديد من المؤتمرات، نظَّمت مؤتمرات، ونشرت مقالات وكتبًا عن التراث الأثري والفني.

نورة الكيلاني (غلاسكو، المملكة المتحدة): أمينة الحضارات الإسلامية بمتاحف غلاسكو، سكوتلندا، المملكة المتحدة. تحمل شهادة في التصميم الداخلي من جامعة بغداد، وشهادة دراسات متحفية من معهد الآثار، كلية لندن الجامعية، وهي تعمل في قسم التراث منذ 1989.

يَنْس كروغر (برلين، ألمانيا): تخرَّج في جامعة برلين الحرة، بعد دراسة تاريخ الفن، وآثار الشرق الأدنى القديمة. يعمل أمينًا لمتحف الفن الإسلامي، المتاحف الحكومية، في برلين، وقد شارك في العديد من المعارض، ونشر عن موضوع الفن ما قبل الإسلامي، والإسلامي.

عن «متحف بلا حدود»

يقوم «متحف بلا حدود» بإدارة برنامج نشاطات متنوعة، مستندة إلى تطوير صيغ عرض جديدة، قائمة على استخدام مواقع العرض المادية والافتراضية المتكاملة. يتمثل الهدف بخلق منبر يمكّن المشاركين من بلدان مختلفة من الالتحاق بشبكة «متحف بلا حدود» على أساس المساواة والحياد، بعيدًا عن التباينات السياسية والاقتصادية. إن تقديم التاريخ، والفن، والثقافة، من وجهة النظر المحلية لكل بلد هو، إذن، الفكرة الرئيسية المميزة لبرنامج «متحف بلا حدود» تأسس «متحف بلا حدود» الذي هو منظمة دولية غير ربحية، في 1994 بمبادرة من إيفا شوبرت في فيينا، النمسا.

عملت المنظمة من مقرها في مدريد، إسبانيا، بين عامي 1988، ثم انتقلت إلى بروكسل، بلجيكا، في 2002، بالتوازي مع برنامج المتحف الافتراضي، يقوم «متحف بلا حدود» بتطوير شبكة معارض فرعية، مصممة بما يتيح فرصة تحويل الأقاليم، أو البلدان، إلى معارض هواء طلق حقيقية، حيث يتم تقديم المعروضات، وتقويمها ميدانيًا، في بيئاتها الطبيعية، وسياقاتها الثقافية.

البيانات التالية مصممة لاستكمال سلسلة معارض «متحف بلا حدود» الفرعية: الفن الإسلامي في حوض المتوسط

تركيا (غرب الأناضول وتراقيا)
الفن العثماني المبكر: تراث الإمارات

البرتغال
الحسناء المغربية المسحورة: الفن الإسلامي في البرتغال

المغرب
المغرب الأندلسي: اكتشاف في فن مفعم بالحياة

تونس
إفريقية: ثلاثة عشر قرنًا من الفن، وهندسة العمارة في تونس

إسبانيا (مدريد - أراغون - كاستيلالامانشا - كاستيلاي ليون - اكستريمادورا، أندلوثيا)
فن المدجنين: الجماليات الإسلامية في الفن المسيحي

الأردن
الأمويون: صعود الفن الإسلامي

مصر
الفن المملوكي: بهاء السلاطين وسحرهم

السلطة الفلسطينية (الضفة الغربية وغزة)
الحج، والعلوم، والتصوف: الفن الإسلامي في الضفة الغربية في غزة

إيطاليا (صقلية)
الفن الصقلي - النورماندي: الثقافة الإسلامية في صقلية العصر الوسيط قيد الإعداد

الجزائر
آثار الإسلام في الجزائر: فن الضوء وعمارته

سورية
الحقبة الأيوبية: الفن والعمارة في سورية العصر الوسيط

للاستزادة عن هذه المنشورات، وطرق الحصول على نسخ منها، يُرجى زيارة موقع www.museumwnf-books.net الإلكتروني.

